وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

سلسلة
وقفات تربوية
في ضوء القرآن الكريم

المجلد الخامس عشر

ولو شاء ربك ما فعلوه

[سورة الأنعام: ١١٢]

عبد العزيز بن ناصر الجليل

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ

إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ طَبْعَهُ وَتَوْزِيعَهُ
مَجَّانًا
بَعْدَ أَخْذِ الإِذْنِ مِنَ المُؤَلِّفِ

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ

رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٧٥٠٣

ISBN: 798–977–430–226–8

القسطاوي
للطباعة والتجليد
٠٠٢٠١٠١٩٩٩٩٥٥٥

وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

فهرس المجلد الخامس عشر

الموضوع — الصفحة

المقدمة ٧

ربط الأحداث بمراتب القدر ومقتضى أسماء الله الحسنى ٩

أهمية الموضوع ١٦

الفصل الأول

ذكر بعض الآيات الدالة على سنة المدافعة ٢١

الآية الأولى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ ٢١

الآية الثانية: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ ٢٨

الآية الثالثة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ٣١

الآية الرابعة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ٣٤

الآية الخامسة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ ٣٦

الآية السادسة: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ ٣٧

الفوائد المستنبطة من الآيات السابقة ٤٠

ذكر بعض الحكم الربانية من ابتلاء المؤمنين بالكافرين ٤٨

الفصل الثاني

أنواع الغزو الذي يتعرض له المسلمون اليوم في بلدانهم ٥٩

المبحث الأول: الغزو العسكري ٦١

المبحث الثاني: الغزو الفكري وإثارة الشبهات ٧٥

أولاً: التهوين من عقيدة الولاء والبراء ومحاولة هدمها ٧٩
- الدعوة إلى عدم كره الكافر وتسميته بالآخر ٨٠
- الدعوة إلى الوطنية وإحلالها محل الدين ٨٠
- الدعوة إلى الإنسانية ٨٣
- الدعوة إلى التقارب بين الأديان والحوار معها ٨٥
- الدعوة إلى التسامح الديني ونبذ التعصب ٨٧
- محاربة التوجه السلفي ودعم التصوف ودعاة الاعتدال ٨٨
- نشر الشرك والسحر والشعوذة والتنجيم ٩١
ثانياً: إثارة الشبهات حول شعيرة الجهاد ٩١
ثالثاً: تشويههم للتاريخ الإسلامي ٩٤
رابعاً: إثارة الشبهات حول الشريعة الإسلامية لإقصائها عن الحكم ... ١٠٤
خامساً: إثارة الشبهات حول الأسرة المسلمة ١٠٦
سادساً: إثارة الشبهات حول الاقتصاد الإسلامي ١٠٩
وسائل الغزاة في بث شبهاتهم وأباطيلهم ١١٤
المبحث الثالث: الغزو الإباحي وإثارة الشهوات ١٢٥
- إحصاء لمواضع القنوات الإباحية، ومواقع قنوات الأغاني والموسيقى ١٢٦
- الفيديو كليب، وبثه للرقص والموسيقى والأغاني ١٢٩
- الآثار السيئة التي تنجم عن الأفلام السيئة للفضائيات ١٣٢
- دراسة عن أفلام العنف والفيديو على الأطفال ١٣٣
- ألعاب الفيديو والأجهزة الحديثة، وأثرها على الأطفال ١٣٩

الفصل الثالث

المواقف المختلفة من غزو الأعداء ١٥٣
الأول: موقف المنافقين والمرجفين ١٥٥
الثاني: موقف اليائسين والمحبطين ١٥٧
الثالث: موقف أهل الدنيا اللاهثين وراءها ١٥٩
الرابع: موقف المسايرين للواقع ١٦٠
الخامس: موقف المتعجلين ١٦٤

الفصل الرابع

الموقف الحق في مواجهة أنواع الغزو ١٧٣
المبحث الأول: التصدي للغزو العسكري بجهاد السنان ١٧٧
المبحث الثاني: التصدي للغزو الفكري بجهاد البيان ١٨٨
- الشبهات: تعريفها وبيان خطرها والتحذير منها ١٩٥
- التأويل: وخطره وجناياته على العقيدة والأعمال ٢١٤
- الرد على الشبهات المثارة على عقيدة الولاء والبراء، وعلى الجهاد وأهدافه ٢٢٨
المبحث الثالث: التصدي للغزو الأخلاقي وإثارة الشهوات ٢٦٧
- مقدمة عن أهمية الاحتساب ودوره في التحصين والوقاية من الشبهات ... ٢٦٩
- وسائل فاعلة في مواجهة الغزو الإفسادي للأخلاق ٢٧٣

الفصل الخامس

وصايا وتنبيهات مهمة ٢٨٧
الوصية الأولى ٢٨٧

الوصية الثانية.. **٢٨٨**

الأصل الأول: القيام بالحق بصحة الفهم **٢٩١**

الأصل الثاني: حسن القصد والإخلاص لله تعالى **٢٩٩**

الأصل الثالث: اجتماع الكلمة ووحدة الصف **٣٠٢**

وقفات معينة بإذن الله على اجتماع الكلمة **٣٠٥**

الأصل الرابع: لا بد من الابتلاء والتمحيص والصبر على ذلك...... **٣١٥**

الأصل الخامس: التوكل على الله عز وجل **٣١٨**

الوصية الثالثة: ألا إن نصر الله قريب **٣٢٢**

علامات وبشرى قرب نصر الله عز وجل للمؤمنين **٣٢٦**

الخاتمة **٣٣٣**

المُقَدِّمَةُ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. أما بعد:

فإن المتأمل اليوم في عصرنا الحاضر وما فيه من الصراعات، يجد أن الصراع بين الحق والباطل قد بلغ أشده، وأن ملل الكفر قد جمعت كل إمكانياتها ضد عدو واحد، ألا وهو الإسلام ودعاته الصادقون، الذين يصفونهم تارة بالمتطرفين وتارة بالأصوليين وتارة بالإرهابيين.

وإن المراقب للأحداث التي ظهرت في العقود الأخيرة ليرى أنها تتسم بسمتين اثنتين:

١ - التسارع الشديد والمفاجآت التي تصحبها، إلى حد أن المتابع لهذه الأحداث لا يفتأ يسمع بحدث ويبحث عن الموقف منه، إلا وتفجؤه أحداث أخر، تنسيه أو تشغله عن الحدث الأول، كما تتسم بضخامتها وشدة آلامها.

عن يحيى بن وثاب قال: قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله لا يأتيهم أمرٌ يضجون منه؛ إلَّا أردفهم أمرٌ يُشغِلُهم عنه»[1].

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٣٦٢)..

٢- إن أغلب هذه الأحداث -إن لم نقل كلها- تقع في المنطقة الإسلامية والمسلمون فيها هم المستهدفون، وفي ظل هذه الأحداث يجب على دعاة الحق والمجاهدين في سبيل الله أن يقفوا طويلاً مع كتاب الله ﷻ وما تضمن من الهدى والنور، ومن ذلك ما تضمنه من السنن الربانية المستمدة من دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وذلك لأن في معرفتها والسير على هداها أخذاً بأسباب النصر والتمكين والفلاح، ونجاة مما وقع فيه الغير من تخبط وشقاء، وفي الغفلة عنها تفريط في الأخذ بأسباب النجاة، وحرمان التوفيق في النظر الصحيح للأحداث والمواقف، وليس المقصود هنا التفصيل في موضوع السنن الربانية فهذا له مقام آخر، وإنما المقصود هو الاستضاءة بهذه السنن في الوصول إلى الموقف الحق، الذي نحسب أنه يرضي الله ﷻ، وذلك في الأحداث الساخنة التي تدور رحاها اليوم في حرب الإسلام وأهله.

وأكتفي هنا بالتنبيه على سنة واحدة من سنن الله تعالى، يجب التذكير بها ونحن في خضم هذه الأحداث وبفهم هذه السنة يزول الاستغراب مما يحدث، ونتمكن من الفهم الصحيح لحقيقة هذه الهجمات المتلاحقة من أعداء الإسلام ودوافعها وحكمة الله ﷻ في إيجادها؛ لأن من أسمائه سبحانه: العليم الحكيم، ومن آثار هذين الاسمين الكريمين اليقين بأن أي شيء يحدث في ملكه سبحانه، فإنما هو بعلم الله تعالى وإرادته وحكمته البالغة. وهذه السنة التي أعنيها هنا، والتي هي مقتضى حكمته سبحانه وعلمه هي: سنة المدافعة والصراع بين الحق والباطل:

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

ويقول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

وعن عياض بن حمار المُجاشعي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا؛ كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ**» الحديث[1].

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

في هذه الآيات والحديث أبلغ دليل على أن الصراع حتمي بين الحق وأهله من جهة، والباطل وأهله من جهة أخرى، هذه سنة إلهية لا تتخلف، ووقائع التاريخ القديم والحديث تشهد على ذلك، وهذه المدافعة وهذا الصراع بين الحق والباطل إن هو إلا مقتضى علمه سبحانه وحكمته وعزته ورحمته ولطفه، وهو لصالح البشرية وإنقاذها من فساد المبطلين، ولذلك ختم الله ﷻ آية المدافعة في سورة البقرة، بقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، حيث لم يجعل الباطل وأهله ينفردون بالناس، بل قيض الله له الحق وأهله يدمغونه حتى يزهق، فالله تعالى يقول: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨].

إن الذين يطمعون في الإصلاح ودرء الفساد عن الأمة من دون هذه السنة -أعني سنة المدافعة مع الباطل وأهل الفساد- إنهم يتنكبون منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ﷻ الذي ارتضاه واختاره لهم، وإن الذين يؤثرون السلامة والخوف من عناء المدافعة مع الفساد وأهله، إنهم بهذا التصرف لا يسلمون من العناء والمشقة، بل إنهم يقعون في مشقة أعظم وعناء أكبر يقاسونه في دينهم، وأنفسهم، وأعراضهم، وأموالهم، وهذه هي ضريبة القعود عن مدافعة الباطل، وإيثار الحياة الدنيا.

والمدافعة بين الحق والباطل تأخذ صوراً متعددة: فبيان الحق وإزالة الشبه ورفع اللبس عن الحق وأهله مدافعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مدافعة، وبيان سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين مدافعة، والصبر

والثبات على ابتلاء الأعداء من الكفرة والظلمة مدافعة، ويأتي الجهاد والقتال في سبيل الله ﷻ على رأس وذروة هذا المدافعات؛ لكف شر الكفار وفسادهم عن ديار المسلمين ودينهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم.

واليوم لم يعد خافياً على كل مسلم ما تتعرض له بلدان المسلمين قاطبة من غزو سافر وحرب شرسة على مختلف الأصعدة، وذلك من قبل أعدائها الكفرة، وأذنابهم المنافقين، فعلى الصعيد العسكري ترزح بعض بلدان المسلمين تحت الاحتلال العسكري لجيوش الكفرة المعتدين، التي غزت أهل هذه البلدان في عقر دارهم كما هي الحال في أفغانستان والشيشان والعراق وفلسطين، وسوريا، وعلى صعيد الحرب على الدين والأخلاق، وإثارة الشبهات والشهوات ولبس الحق بالباطل فإن ذلك لم يسلم منه بلد من بلدان المسلمين.

وقد تقرر عند أهل العلم أن الجهاد يتعين على المسلمين إذا غزاهم الكفار في عقر دارهم، ويصبح واجباً على كل مسلم قادر أن يشارك في دفع الصائل عن بلده بكل ممكن، فإن كان الغزو عسكرياً وبالسلاح وجب رده بالقوة الممكنة والسلاح، وإذا كان الغزو بسلاح الكلمة والكتاب والمجلة والوسائل الإعلامية الخبيثة بأنواعها المقروءة والمسموعة والمشاهدة منها التي يباشر الكفار بعضها وينيبون إخوانهم من المنافقين في بعضها، فإن الجهاد بالبيان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمدافعة والتحصين يصبح واجباً عينياً على كل قادر من المسلمين كل بحسبه.

وحينما نربط هذه السنة ومقتضى أسماء الله الحسنى بهذه الأحداث التي تزامنت وتلاحقت وتشابهت قلوب أصحابها في الهجوم على دين الإسلام وأهله وبلدانه، تتضح لنا هذه السنة بجلاء، وحينئذ يرتفع الاستغراب مما يقوم به الكفار من هجوم وافتراء على دين الإسلام، ويشمر المسلم للدخول في الصراع ضد أعداء الله تعالى بما يستطيع من نفسه وماله ولسانه وقلمه. قال ﷺ: «**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**»(١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (والجهاد منه ما هو باليد، ومنه ما هو بالقلب والدعوة والحجة والبيان والرأي والتدبير والصناعة، فيجب بغاية ما يمكنه)(٢).

وإن التقاعس أو التشاغل أو التخذيل من القادرين على هذه المدافعات من ضروب الجهاد يخشى أن يكون من جنس التولي يوم الزحف، وتقديماً للدنيا الفانية على محبة الله ﷻ ورسوله والجهاد في سبيله -تعالى-، ولا يبعد أن يكون من المعنيين بقوله -تعالى-: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

---

(١) رواه النسائي (٣٠٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٣٠٩٠).
(٢) «الاختيارات الفقهية» (ص٤٤٧).

هذا وإن كانت هذه الآيات في جهاد الكفار في ساحات القتال فإن ذلك لا يمنع من أن تشمل أيضاً القاعدين عن جهاد الكفار والمنافقين بالبيان والمدافعة لأفكارهم الخبيثة وأخلاقهم الرديئة، والوقوف أمام وسائلهم ومخططاتهم المختلفة وتحصين الأمة وتحذيرها منها، فقد قال الله ﷻ آمراً نبيه محمداً ﷺ في سورة مكية بمجاهدة الكفار بالقرآن قبل فرض الجهاد عليهم بالقتال؛ وذلك في سورة الفرقان، حيث يقول الله ﷻ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢].

ويحسن في هذه المقدمة التأكيد والتذكير بالأصل السادس من أصول الإيمان، ألا وهو الإيمان بالقدر خيره وشره، وبيان أركانه ومراتبه ووسطية أهل السنة والجماعة فيه بين القدرية والجبرية.

إن من أصول الإيمان التي لا يصح إيمان عبد إلا بالإيمان بها، الإيمان بالقضاء والقدر، وهو الركن السادس من أركان الإيمان، وذلك في قوله ﷺ في حديث جبريل الطويل: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١). وللإيمان بالقدر أربع مراتب:

الأولى: الإيمان بأن الله ﷻ بكل شيء عليم، عالم ما كان وما يكون وكيف يكون بعلمه الأزلي الأبدي، فلا يتجدد له علم بعد جهل، ولا يلحقه نسيان بعد علم.

الثانية: الإيمان بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة. قال الله تعالى عن المرتبتين السابقتين: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

---

(١) «صحيح مسلم» (٨).

الثالثة: الإيمان بأن الله ﷻ قد شاء كل ما في السموات والأرض، لا يكون شيء إلا بمشيئته، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الرابعة: الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء وموجده.

وهذه المراتب الأربع شاملة لكل ما خلق الله ﷻ. ومن ذلك أفعال العباد. فكل ما يقوم به العباد من أقوال وأفعال أو تروك، وما يجري في ملكوت السموات والأرض فهي معلومة لله تعالى مكتوبة عنده، والله تعالى قد شاءها وخلقها، وهذه عقيدة السلف الصالح الذين هم وسط بين القدرية الذين ينفون خلق الله لأفعال العباد، ويقولون: إن العبد يخلق أفعال نفسه، وبين الجبرية الذين يقولون بأن العبد مجبور على أفعاله وليس له فيها اختيار، قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]. ومن ذلك عنوان هذه الرسالة المأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

ومشيئة الله تعالى صادرة عن علمه وحكمته وعدله وعزته ورحمته، بل إن الخلق كله والأمر كله هو مقتضى أسماء الله ﷻ الحسنى، وإن ظهر في بعض مفعولاته من شر تكرهه النفوس، فإن فيه الرحمة والحكمة والعدل، فنفس قضاء الله تعالى ليس فيه شر أبداً؛ لأنه صادر عن عدل ورحمة وعزة

وعلم وحكمة، وإنما يكون الشر من مقضياته لقوله ﷺ: «**والشَّرُّ ليسَ إليكَ**»(١). وقوله ﷺ: «**وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْت**»(٢)، ومع ذلك فإن الشر في المقضيات ليس شراً خالصاً، بل هو شر من وجه وخير من وجه آخر، أو شر في محله خير في محل آخر.

والمقصود من هذه المقدمة التي لابد منها الدخول منها إلى موضوع هذه الرسالة، وهو بيان أن ما يجري اليوم من أحداث مؤلمة ونوازل عظيمة في بلدان المسلمين، إنما هي بعلم الله ﷻ وكتابته لها ومشيئته وخلقه لها، وله سبحانه الحكمة البالغة في خلقه وأمره، ومن ذلك ما نشهده من صراع بين الحق والباطل، وما تمخض عن ذلك من آلام وآمال وأحداث ونوازل.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأسماؤه الحسنى تقتضي آثارها، وتستلزمها استلزام المقتضي المُوجب لمُوجبه ومُقتضاه، فلابد من ظهور آثارها في الوجود، فإن من أسمائه: الخلّاق المقتضي لوجود الخلق، ومن أسمائه الرزاق المقتضي لوجود الرزق والمرزوق، وكذلك الغفار والتواب والحكيم والعفو، وكذلك الرحمن الرحيم، وكذلك الحكم العدل، إلى سائر الأسماء، ومنها الحكيم المستلزم لظهور حكمته في الوجود، والوجود متضمن لخلقه وأمره، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] فخلقه وأمره صدرا عن حكمته وعلمه، وحكمته وعلمه اقتضيا ظهور خلقه وأمره، فمصدر الخلق والأمر عن هذين الاسمين

---

(١) «صحيح مسلم» (٧٧١).

(٢) رواه أبو داود كتاب الوتر (١٤٢٥)، والترمذي أبواب الوتر وصححه الألباني.

المتضمنين لهاتين الصفتين، ولهذا يقرن -سبحانه- بينهما عند ذكر إنزال كتابه، وعند ذكر ملكه وربوبيته، إذ هما مصدر الخلق والأمر)[١].

ومشيئة الله ﷻ صادرة عن حكمة بالغة وعلم شامل، والعارفون لربهم سبحانه ولأسمائه الحسنى وصفاته العلا يوقنون بذلك، ولذا فهم يحسنون الظن بربهم ويحمدونه على كل ما يقدره، ويوقنون بأن أسماءه وصفاته وأفعاله كلها حسنى، ممتثلين لأوامره الشرعية مجتنبين لما ينهاهم عنه، وذلك لكونها من الأسباب الشرعية التي أمرهم الله بها لجلب خيري الدنيا والآخرة، ودفع شري الدنيا والآخرة.

ولبيان هذه المعاني العظيمة التي قد يجهلها أو يغفل عنها كثير من المسلمين، أكتب هذه الرسالة الموسومة بقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ**﴾ لتوضح هذه المسلمات، ولاسيما في ظل الأحداث والنوازل التي تعيشها أمتنا المسلمة، والتي كادت أن تعصف برياحها كثير من القلوب، وكادت أن تزل بها كثير من الأقدام، ولو شاء الله ﷻ ما أوجدها، ولكنها مقتضى حكمة الله ﷻ وعلمه وعزته ولطفه ورحمته. ولكي تتضح أهمية هذا الموضوع أذكر فيما يلي بعض الأمور التي دفعت إلى كتابة هذه الرسالة:

الأمر الأول: ما تشهده بلدان المسلمين من حوادث جسيمة ومحن شديدة وغزو مكثف من أعداء الدين من الكفار والمنافقين آلت ببعض المسلمين إلى حالة من اليأس والإحباط أثار في النفوس وساوس وشبهات وتساؤلات مفادها: ألسنا مسلمين؟ أليس أعداؤنا هم أعداء الله من

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٥٦٤).

الكفـار والمنافقين؟ أليس الله على كل شيء قدير؟ فلماذا لا ننتصر عليهم؟ ولمـاذا يمكن لهم علينا؟ وغير ذلك من السـؤالات التـي تنم عن خلل في الفهم وضعف إيمان، وإساءة ظن بوعد الله ﷻ. وهذه التساؤلات: إما في الضمير، أو تظهر على الألسن.

ومنشأ مثل هذه الظنون إنما هو الجهل بالله ﷻ والجهل بأسمائه الحسنى ومعانيهـا وآثارهـا، والجهل بسـنن الله ﷻ في التغيير والهزيمـة والنصر، وفي تصريف الأحداث، فلعل في هذه الرسالة إسهامًا في كشف الشبهات، وبيان الحق والوقوف فيها على بيان التفسير الشرعي لهذه الأحداث والموقف منها.

الأمر الثـاني: الحاجة إلى بيان الفرق بين إرادة الله ﷻ الكونية القدرية وإرادتـه الدينيـة الشرعية، وقد سـبق بيـان أن من أصـول العقيدة الإيمان بالقـدر، وأن شـيئاً لا يكـون في ملـك الله ﷻ إلا بعلمـه وإرادتـه وإيجاده وحكمتـه، ولكن من هذه المقضيات ما يريده سـبحانه كوناً وقدراً لحكمة بالغـة، وإن كان لا يرضاه ولا يريده ديناً وشرعاً، بل أمر بتجنبه ومدافعته ديناً وشرعاً، كما هو الحاصل اليوم من نشر للكفر وصد عن سبيل الله ﷻ، وفشو للظلم والعدوان، فقد أراد الله ﷻ ذلك كوناً وقدراً لحكمة الابتلاء، ولكنـه أراد ديناً وشرعاً اجتنـاب ذلك ومدافعتـه ومجاهدته، قال الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤] وقـال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان:٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وللإمام ابن القيم رحمه الله كلام جميل في تجلية هذه الحقيقة أسوقه بشيء من الاختصار. قال رحمه الله: (فإن قلت: كيف يريد الله سبحانه أمراً لا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويُكوِّنه؟ وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكراهيته؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً، وتباينت عنده طرقهم وأقوالهم.

فاعلم أن «المراد» نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته ولما فيه من الخير، فهو مرادٌ، إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره: قد لا يكون في نفسه مقصودًا للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته. وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده. فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، ومراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده. فيجتمع فيه الأمران: بغضه، وإرادته، ولا يتنافيان، لاختلاف متعلقهما)[1].

الأمر الثالث: بيان الموقف الشرعي إزاء هذه الأحداث والفتن، وما ينبغي أن يكون عليه المؤمن تجاهها حتى لا يسقط في الابتلاء، وما هو المطلوب اتخاذه شرعاً من المواقف والأعمال، وذلك في ضوء السنن الربانية في تفسير الأحداث؟ ويقابل ذلك ذكر المواقف والممارسات الخاطئة التي ظهرت في هذه الأحداث وتفسيرها وطرق مواجهتها.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٩٣-١٩٤).

الأمر الرابع: التلبيس والتضليل الشديدان اللذان يمارسهما إعلام الكفار والمنافقين، مستغلين ضغط هذه الأحداث في إضلال الناس وحرفهم عن الصراط المستقيم، مستخدمين في ذلك وسائل الإعلام المختلفة في إثارة الشبهات والحرب النفسية الموجهة للمسلمين، ليوقعوهم في مزيد من الإحباط والهزيمة النفسية، وسعيهم في زعزعة الثوابت وأصول الاعتقاد في نفوس الناس، حتى أصبحنا نفاجأ بتغيرات في المفاهيم والمواقف عند كثير من الناس، فكان لزاماً على كل مقتدر من أهل العلم وطلابه مواجهة هذا التلبيس وكشفه عن الناس ورد شبهات المشبهين وضلالات المضلين.

الأمر الخامس: الحاجة إلى بيان أسباب النصر وأصول التمكين، وبيان أسباب الهزيمة وإدالة الأعداء، والحكمة من تأخير النصر على المسلمين، لأن في خفاء ذلك تثور الوساوس والشبهات. وبالعلم بها تطمئن النفوس المؤمنة، وتسعى للأخذ بالأسباب الشرعية والسنن الكونية التي ذكرها الله ﷻ في كتابه، وأهم الرسول ﷺ للأخذ بها في طلب النصر والتمكين لهذا الدين.

ولأجل هذه الأسباب والدوافع وغيرها أكتب هذه الرسالة إبراءً للذمة ونصحاً للأمة، وجهاداً ودفعاً بالكلمة، جعلها الله خالصة لوجهه الكريم، ونافعة لي ولإخواني المسلمين.

ويمكن تقسيم الكتاب إلى الفصول الآتية:

الفصل الأول: ذكر بعض الآيات الدالة على حتمية الصراع بين الحق والباطل والحكمة من ذلك.

الفصل الثاني: أنواع الغزو الذي يتعرض له المسلمون اليوم في بلدانهم.

الفصل الثالث: اختلاف المواقف من غزو الأعداء وصوره المختلفة.

الفصل الرابع: الموقف الحق في صد هذا الغزو والعدوان.

الفصل الخامس: تنبيهات مهمة لابد منها.

الخاتمة

الفصل الأول

ذكر بعض الآيات الدالة على سنة المدافعة
وسنة الصراع بين الحق والباطل

الآية الأولى:

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

يقول الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ مسليه بذلك عما لقي من كفرة قومه في ذات الله، وحاثًّا له على الصبر على ما نال فيه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا﴾ [الأنعام:١١٢]، يقول: وكما ابتليناك، يا محمد، بأن جعلنا لك من مشركي قومك أعداء شياطينَ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول؛ ليصدوهم بمجادلتهم إياك بذلك عن اتباعك والإيمان بك وبما جئتهم به من عند ربّك، كذلك ابتلينا من قبلك من الأنبياء والرسل، بأن جعلنا لهم أعداءً من قومهم يؤذُونهم بالجدال والخصومات.

يقول: فهذا الذي امتحنتك به، لم تخصص به من بينهم وحدك، بل قد عممتهم بذلك معك لأبتليهم وأختبرهم، مع قدرتي على منع من آذاهم

من إيذائهم، فلم أفعل ذلك إلا لأعرف أولي العزم منهم من غيرهم. يقول: فاصبر أنتَ كما صبرَ أولو العزم من الرسل)[١]. وفي تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

يقول تعالى ذكره: ولو شئتُ يا محمد، أن يؤمن الذين كانوا لأنبيائي أعداءً من شياطين الإنس والجن فلا ينالهم مكرهم ويأمنوا غوائلهم وأذاهم، فعلتُ ذلك، ولكني لم أشأ ذلك، لأبتلي بعضهم ببعض، فيستحق كل فريق منهم ما سبق له في الكتاب السابق ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يقول: فدعهم، يعني الشياطين الذين يجادلونك بالباطل من مشركي قومك، ويخاصمونك بما يوحي إليهم أولياؤهم من شياطين الإنس والجن: ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: وما يختلقون من إفك وزور، يقول له ﷺ: اصبر عليهم فإني من وراء عقابهم على افترائهم على الله واختلاقهم عليه الكذب والزور[٢].

ويقول الإمام ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية أيضاً:

«يقول تعالى: وكما جعلنا لك -يا محمد- أعداء يخالفونك، ويعادونك جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء فلا يَهِيبنَّك ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران:١٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٤]، وقال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ

(١) «تفسير الطبري» بتحقيق أحمد شاكر (١٢/ ٥٠، ٥١).
(٢) نفس المصدر (١٢/ ٥٧).

لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان:٣١].

وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: «**إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي**»[١].

وقوله: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ**﴾ أي: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء)[٢].

ويعلق الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على قول ورقة بن نوفل: (إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي) فيقول:

«واستبعد النبي ﷺ أن يُخْرِجُوهُ؛ لأَنَّهُ لمْ يكنْ فِيهِ سَبَب يَقْتَضِي الإِخْراج، لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلاَق التي تَقدَّمَ مِنْ خَديجة وَصْفَها. وقَدْ استدَلَّ ابن الدُّغُنَّة بمِثْلِ تلكَ الأَوْصاف على أَنَّ أبَا بكر لا يُخْرَج.

قوله: (إلاّ عُوديَ)، وفي رواية يُونُس في التّفسير: «إلاَّ أُوذِيَ» فذكرَ ورقة أَنَّ العلّة في ذلكَ مجيئُهُ لهم بالانتقالِ عَنْ مأْلُوفهم؛ ولأنّه علمَ من الكُتُب أنّهم لا يُجِيبُونَهُ إلى ذلكَ، وأَنّهُ يلزَمهُ لذلكَ مُنابَذتهم ومُعاندتهمْ فتَنشأ العَداوةُ مِنْ ثَمَّ»[٣].

ويقول الشيخ السعدي في تفسير الآية: (يقول الله -مسلياً لرسوله

(١) البخاري (٣)، مسلم (١٦٠).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣١٨، ٣١٩)، ط دار طيبة، تحقيق سامي السلامة.
(٣) «فتح الباري» (١/ ٢٦).

محمد ﷺ: وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك ويحاربونك، ويحسدونك، فهذه سنتنا أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء من شياطين الإنس والجن يقومون بضد ما جاءت به الرسل.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق باطلاً والباطل حقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي: ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحملهم على ذلك، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولاً فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة، فإن كانت حقاً قبلوها، وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظاً غير وافية، وإن

كانت باطلاً ردوها على من قالها، كائناً من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداءً، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، ليتميز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته أن في ذلك بياناً للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه. فإنه -حينئذ- يتبين من أدلة الحق، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو أكبر المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون)[1].

ويقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الآية:

(والمشهد الذي يرسمه القرآن الكريم للمعركة بين شياطين الإنس والجن من ناحية، وكل نبي وأتباعه من ناحية أخرى؛ ومشيئة الله المهيمنة وقدره النافذ من ناحية ثالثة.. هذا المشهد بكل جوانبه جدير بأن نقف أمامه وقفة قصيرة:

إنها معركة تتجمع فيها قوى الشر في هذا الكون.. شياطين الإنس والجن.. تتجمع في تعاون وتناسق لإمضاء خطة مقررة.. هي عداء الحق الممثل في رسالات الأنبياء وحربه.. خطة مقررة فيها وسائلها.. ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.. يمد بعضهم بعضاً بوسائل الخداع والغواية؛ وفي

(١) «تفسير السعدي» (١/ ٢٦٩، ٢٧٠).

الوقت ذاته يغوي بعضهم بعضاً! وهي ظاهرة ملحوظة في كل تجمع للشر في حرب الحق وأهله.. إن الشياطين يتعاونون فيما بينهم؛ ويعين بعضهم بعضاً على الضلال أيضاً! إنهم لا يهدون بعضهم البعض إلى الحق أبداً. ولكن يزين بعضهم لبعض عداء الحق وحربه والمضي في المعركة معه طويلاً!

ولكن هذا الكيد كله ليس طليقاً.. إنه محاط به بمشيئة الله وقدره.. لا يقدر الشياطين على شيء منه إلا بالقدر الذي يشاؤه الله وينفذه بقدره. ومن هنا يبدو هذا الكيد -على ضخامته وتجمع قوى الشر العالمية كلها عليه- مقيداً مغلولاً! إنه لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط. ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع، كما يحب الطغاة أن يلقوا في روع من يعبدونهم من البشر، ليعلقوا قلوبهم بمشيئتهم وإرادتهم.. كلا! إن إرادتهم مقيدة بمشيئة الله. وقدرتهم محدودة بقدر الله. وما يضرون أولياء الله بشيء إلا ما أراده الله -في حدود الابتلاء- ومرد الأمر كله إلى الله.

ومشهد التجمع على خطة مقررة من الشياطين جدير بأن يسترعي وعي أصحاب الحق؛ ليعرفوا طبيعة الخطة ووسائلها.. ومشهد إحاطة مشيئة الله وقدره بخطة الشياطين وتدبيرهم جدير كذلك بأن يملأ قلوب أصحاب الحق بالثقة والطمأنينة واليقين، وأن يعلق قلوبهم وأبصارهم بالقدرة القاهرة والقدر النافذ، وبالسلطان الحق الأصيل في هذا الوجود، وأن يطلق وجدانهم من التعلق بما يريده أو لا يريده الشياطين! وأن يمضوا في طريقهم يبنون الحق في واقع الخلق، بعد بنائه في قلوبهم هم وفي حياتهم. أما عداوة الشياطين، وكيد الشياطين، فليدعوهما للمشيئة

المحيطة والقدر النافذ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾(١).

ويقـول في موطـن آخـر مجيباً على من يسـأل عن حكمته سـبحانه في تسليط أعدائه على أوليائه، ولماذا لم ينتشر هذا الدين إلا بجهد البشر، ولو شاء الله لأهلك أعداءه وأعداء أوليائه دون هذا كله.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وليس لأحد من خلقه أن يسأله: لماذا شاء هذا؟ ما دام أن أحـداً مـن خلقه ليس إلهاً! وليس لديه العلـم ولا إمكان العلم بالنظام الـكلي للكون وبمقتضيات هذا النظـام في طبيعة كل كائن في هذا الوجود وبالحكمة المغيبة وراء خلق كل كائن بهذا »التصميم« الخاص!

ولكن قد يسـأل ذلك جاهل بحقيقة الألوهية.. فالسبيل لإجابة هذا الجاهـل ليـس هو الجواب المبـاشر. إنما هو تعريفه بحقيقـة الألوهية حتى يعرفها فهو مؤمن أو ينكرها فهو ملحد.. وبهذا ينتهي الجدل إلا أن يكون مراء!

ليس لأحد من خلق الله إذن أن يسـأله -سـبحانه- لماذا شاء أن يخلق الكائن الإنسـاني بهـذه الفطرة؟ ولماذا شـاء أن تبقى فطرته هـذه عاملة لا تمحـى ولا تعدل ولا تعطل؟ ولماذا شـاء أن يجعل المنهج الإلهي يتحقق في حياته عن طريق الجهد البشري وفي حدود الطاقة البشرية(٢)؟

ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقيقة؛ ويراها وهي تعمل

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٢٨).
(٢) لا يعني كلام سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ نفي الحكمة في أفعال الله عز وجل، فهو يثبتها في مواطن كثيرة، وأما نفاة الحكمة والتعليل؛ فهم الأشاعرة ومن تبعهم الذين يقولون بمجرد المشيئة المحضة.

في واقـع البشريـة، ويفسر التاريخ البـشري على ضوئها؛ فيفقه خط سـير التاريخ من ناحية، ويعرف كيف يوجه هذا الخط من ناحية أخرى.

هذا المنهج الإلهي الذي يمثله الإسلام -كما جاء به محمد- ﷺ لا يتحقق في الأرض في دنيا الناس بمجرد تنزله من عند الله، ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للنـاس وبيانـه، ولا يتحقق بالقهـر الإلهي على نحو ما يُمضي الله ناموسـه في دورة الفلك وسير الكواكب، وترتب النتائج على أسبابها الطبيعية)[١].

الآية الثانية:

قولـه تعـالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ...﴾ الآية [محمد:٤].

يقـول الإمـام الطـبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنـد هـذه الآيـة: (.. ولو يشـاء ربكم ويريـد لانتـصر من هؤلاء المشركـين، الذين بين هذا الحكـم فيهم بعقوبة منه لهم عاجلة، وكفاكم ذلك كله، ولكنه تعالى ذكره كره الانتصار منهم، وعقوبتهـم عاجـلاً إلا بأيديكـم أيهـا المؤمنـون ﴿لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ يقول: ليختبركم بهم، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين، ويبلوهم بكم، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم، ويتعظ من شاء منهم بمن أهلك بأيديكم من شاء منهم، حتى ينيب إلى الحق)[٢].

ويقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الآية:

---

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ٩).
(٢) «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٥٨).

(إن هؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وأمثالهم في الأرض كلها في كل زمان من البغاة الطغاة المفسدين، الذين يظهرون في ثوب البطش والاستكبار، ويتراءون لأنفسهم وللضالين من أتباعهم قادرين أقوياء، إن هؤلاء جميعاً حفنة من الخلق، تعيش على ظهر هذا الكوكب الصغير المسمى بالأرض.

فلا يبلغ هؤلاء ومن ورائهم من الأتباع، بل لا يبلغ أهل الأرض كلها، إن يكونوا نمالاً صغيرة. لا بل إنهم لا يبلغون أن يكونوا هباء تتقاذفه النسمات. لا بل إنهم لا يبلغون شيئاً أصلاً حين يقفون أمام قوة الله.

إنما يتخذ الله المؤمنين -حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار وشد وثاقهم بعد إثخانهم- إنما يتخذهم سبحانه سببًا من الأسباب الظاهرة. ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرة. كما انتصر من بعضهم بالطوفان والصيحة والريح العقيم. بل لانتصر منهم من غير هذه الأسباب كلها، ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين الخير. وهو يبتليهم، ويربيهم، ويصلحهم، وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار.

يريد ليبتليهم، وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين أكرم ما في النفس البشرية من طاقات واتجاهات. فليس أكرم في النفس من أن يعز عليها الحق الذي تؤمن به، حتى تجاهد في سبيله، فتَقْتُل وتُقْتَل، ولا تسلم في هذا الحق الذي تعيش له وبه، ولا تستطيع الحياة بدونه، ولا تحب هذه الحياة في غير ظله.

ويريد ليربيهم، فيظل يخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة في

أعـراض هذه الأرض الفانيـة، مما يعز عليهم أن يتخلوا عنه. ويظل يقوي في نفوسهم كل ضعف، ويكمل كل نقص، وينفي كل زغل ودخل، حتى تصبـح رغائبهم كلها في كفـة، وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد، والتطلـع إلى وجـه الله ورضاه، فترجح هذه وتشـيل تلـك، ويعلم الله من هـذه النفوس أنها خيرت فاختارت، وأنها تربـت فعرفت، وأنها لا تندفع بلا وعي، ولكنها تقدر وتختار.

ويريد ليصلحهم، ففي معاناة الجهاد في سـبيل الله، والتعرض للموت في كل جولة، ما يعود النفس الاسـتهانة بهـذا الخطر المخوف، الذي يكلف الناس الكثير من نفوسهم وأخلاقهم وموازينهم وقيمهم ليتقوه. وهو هين هين عند من يعتاد ملاقاته، سواء سلم منه أو لاقاه، والتوجه به لله في كل مرة يفعل في النفس لحظات الخطر شيئاً يقربه للتصور فعل الكهرباء بالأجسام! وكأنه صياغة جديدة للقلوب والأرواح على صفاء ونقاء وصلاح.

ثم هي الأسـباب الظاهرة لإصلاح الجماعـة البشرية كلها عن طريق قيادتهـا بأيدي المجاهدين الذين فرغت نفوسـهم مـن كل أعراض الدنيا وكل زخارفها؛ وهانت عليهم الحياة وهم يخوضون غمار الموت في سـبيل الله. ولم يعـد في قلوبهـم ما يشـغلهم عـن الله والتطلع إلى رضـاه.. وحين تكـون القيـادة في مثل هذه الأيـدي تصلح الأرض كلهـا ويصلح العباد. ويصبـح عزيزاً على هـذه الأيدي أن تسـلم راية القيـادة للكفر والضلال والفسـاد؛ وهي قد اشـترتها بالدماء والأرواح وكل عزيز وغال أرخصته لتتسلم هذه الراية لا لنفسها ولكن لله! ثم هو بعد ذلك كله تيسير الوسيلة

لمن أراد الله بهم الحسنى؛ لينالوا رضاه وجزاءه بغير حساب)[١].

وممـا يدخـل في معنـى هذه الآيـة قوله سـبحانه في الحديـث القدسي الطويـل ومنه: «إِنَّمَا بَعَثْتُـكَ لأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ»[٢] ويشرح الإمام النووي هذا الحديث فيقول:

(معنَـاهُ: لأَمتحِنك بـما يظهر منك من قِيامك بـما أمرتُك به من تَبليغ الرّسالة وغير ذلك من الجِهاد في الله حقّ جهاده، والصَّبر في الله تعالى وغير ذلكَ، وأبتلي بك مَن أرسـلتُك إليهـم، فمنهم من يُظهر إيمانه، ويُخلص في طاعاتـه، ومن يتخلّف، ويتأبّـد بالعداوةِ والكُفر، ومـن يُنافق. والمُراد أن يمتحنـهُ ليصيـرَ ذلك واقعاً بـارزاً، فإنّ الله تعالى إنما يُعاقـب العباد على ما وقـع منهـم، لا على ما يعلمهُ قبـل وقُوعه، وإلاَّ فهو سـبحانه عالم بجميع الأشـياء قبـل وُقُوعها، وهذا نحو قولـه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١] أي: نعلمهُم فاعلينَ ذلك مُتّصفين به)[٣].

الآية الثالثة:

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١].

يقـول الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنـد هذه الآية: (يقول تعـالى ذكره لنبيه محمـد ﷺ: وكـما جعلنـا لك يـا محمد أعداء مـن مشركي قومـك، كذلك جعلنـا لـكل من نبأناه مـن قبلك عـدوًّا من مشركي قومـه، فلم تخصص

---

(١) «في ظلال القرآن» (٦/ ٤٤٠، ٤٤١).
(٢) «صحيح مسلم» (٢٨٦٥).
(٣) «شرح مسلم للنووي» (٩/ ٢٤٧).

بذلك من بينهم، يقول: فاصبر لما نالك منهم كما صبر من قبلك أولو العزم من رسلنا)[١].

ويقول السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكون عليه يعارضونهم ويردون عليهم ويجادلونهم بالباطل.

من بعض فوائد ذلك أن يعلو الحق على الباطل، وأن يتبين الحق ويتضح اتضاحاً عظيماً؛ لأن معارضة الباطل للحق مما تزيده وضوحاً وبياناً وكمال استدلال، وأن يتبين ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة، وبأهل الباطل من العقوبة، فلا تحزن عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ يهديك فيحصل لك المطلوب ومصالح دينك ودنياك. ﴿وَنَصِيرًا﴾ ينصرك على أعدائك ويدفع عنك كل مكروه في أمر الدين والدنيا فاكتف به وتوكل عليه)[٢].

ويقول سيد قطب رحمه الله عن هذه الآية:

(ولله الحكمة البالغة، فإن بروز المجرمين لحرب الأنبياء والدعوات يقوي عودها؛ ويطبعها بطابع الجد الذي يناسب طبيعتها، وكفاح أصحاب الدعوات للمجرمين الذين يتصدون لها مهما كلفهم من مشقة وكلف الدعوات من تعويق، هو الذي يميز الدعوات الحقة من الدعاوى الزائفة؛ وهو الذي يمحص القائمين عليها، ويطرد الزائفين منهم؛ فلا

(١) «تفسير الطبري» (١٩/ ٢٦٥).
(٢) «تفسير السعدي» (١/ ٥٨٢).

يبقى بجوارها إلا العناصر المؤمنة القوية المتجردة، التي لا تبتغي مغانم قريبة، ولا تريد إلا الدعوة خالصة، تبتغي بها وجه الله تعالى.

ولو كانت الدعوات سهلة ميسورة، تسلك طرقاً ممهدة مفروشة بالأزهار، ولا يبرز لها في الطريق خصوم ومعارضون، ولا يتعرض لها المكذبون والمعاندون، لسهل على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة، ولاختلطت دعوات الحق ودعاوى الباطل، ووقعت البلية والفتنة. ولكن بروز الخصوم والأعداء للدعوات، هو الذي يجعل الكفاح لانتصارها حتماً مقضياً، ويجعل الآلام والتضحيات لها وقوداً، فلا يكافح ويناضل، ويحتمل الآلام والتضحيات إلا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون، الذين يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع، وأعراض الحياة الدنيا، بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا في سبيلها، ولا يثبت على الكفاح المرير إلا أصلبهم عوداً، وأشدهم إيماناً، وأكثرهم تطلعاً إلى ما عند الله واستهانة بما عند الناس.. عندئذ تتميز دعوة الحق من دعاوى الباطل. وعندئذ تمحص الصفوف فيتميز الأقوياء من الضعفاء، وعندئذ تمضي دعوة الحق في طريقها برجالها الذين ثبتوا عليها، واجتازوا امتحانها وبلاءها، أولئك هم الأمناء عليها، الذين يحتملون تكاليف النصر وتبعاته. وقد نالوا هذا النصر بثمنه الغالي، وأدوا ضريبته صادقين مؤثرين، وقد علمتهم التجارب والابتلاءات، كيف يسيرون بدعوتهم بين الأشواك والصخور، وقد حفزت الشدائد والمخاوف كل طاقاتهم ومقدراتهم، فنما رصيدهم من القوة وذخيرتهم من المعرفة، فيكون هذا كله رصيداً للدعوة

التي يحملون رايتها على السراء والضراء..

وبروز المجرمين في طريق الأنبياء أمر طبيعي، فدعوة الحق إنما تجيء في أوانها لعلاج فساد واقع في الجماعة أو في البشرية، فساد في القلوب، وفساد في النظم، وفساد في الأوضاع، ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون، الذي ينشئون الفساد من ناحية، ويستغلونه من ناحية، والذين تتفق مشاربهم مع هذا الفساد، وتتنفس شهواتهم في جوه الوبيء، والذين يجدون فيه سنداً للقيم الزائفة التي يستندون هم في وجودهم إليها.. فطبيعي إذن أن يبرزوا للأنبياء وللدعوات دفاعاً عن وجودهم، واستبقاء للجو الذي يملكون أن يتنفسوا فيه. وبعض الحشرات يختنق برائحة الأزهار العبقة، ولا يستطيع الحياة إلا في المقاذر، وبعض الديدان يموت في الماء الطاهر الجاري، ولا يستطيع الحياة إلا في المستنقع الآسن.

وكذلك المجرمون.. فطبيعي إذن أن يكونوا أعداء لدعوة الحق، يستميتون في كفاحها. وطبيعي أن تنتصر دعوة الحق في النهاية، لأنها تسير مع خط الحياة، وتتجه إلى الأفق الكريم الوضيء الذي تتصل فيه بالله، والذي تبلغ عنده الكمال المقدر لها كما أراد الله.. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾)[1].

الآية الرابعة:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ...﴾ الآية [الحج: ٤٠].

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الآية: (فلولا دفع الله الناس بعضهم

(١) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢١٥، ٢١٦).

ببعض لاستولى الكفار على المسلمين فخربوا معابدهم وفتنوهم عن دينهم، فدل هذا أن الجهاد مشروع لأجل دفع الصائل والمؤذي ومقصود لغيره. ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله وعمرت مساجدها، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها من فضائل المجاهدين وببركتهم دفع الله عنها الكافرين. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١])[1].

ويقول سيد قطب رحمه الله: (إن كل الأماكن التي يعبد فيها الله تعالى معرضة للهدم رغم قدسيتها ولا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها -كما جاء في سورة الحج- ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض، أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرماتها ويتعدون على أهلها.

فالباطل قبيح لا يكف ولا يقف عن العدوان، إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول، ولا يكفي الحق أنه الحق ليوقف عدوان الباطل، بل لابد من قوة تحميه وتدفع عنه، وهي سنة ثابتة وقاعدة كلية لا تتبدل مادام الإنسان هو الإنسان)[2].

والمدافعة بالقتال يمثل الصورة الأخيرة للتدافع التي تأتي بعد سلسلة من المدافعات، إذ يحتمل التدافع عدة معان وصورًا متعددة، فالدعوة والحوار مع أهل الباطل مدافعة، والبيان وإقامة الحجة والإغلاظ في القول

---

(١) «تفسير السعدي» (١/ ٥٣٩).
(٢) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٤٢٥).

مدافعـة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مدافعة، والصراع مع الباطل وأهله في ساحات القتال مدافعة، وكل هذه الصور مشروعة، وسنة التدافع مترتبة على سنة الإعداد بكل أنواع القوة لمصارعة الباطل وأهله.

الآية الخامسة:

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٣].

يقول سـيد قطب رحمه الله عن هذه الآية: (إنها سنة جارية أن ينتدب في كل قريـة -وهي المدينة الكبـيرة والعاصمة- نفر من أكابر المجرمين فيها، يقفـون موقـف العداء من ديـن الله، ذلك أن دين الله يبـدأ من نقطة تجريد هؤلاء الأكابر من السـلطان الذي يستطيلون به على الناس، ومن الربوبية التـي يتعبدون بها الناس، ومن الحاكمية التي يسـتذلون بها الرقاب، ويرد هذا كله إلى الله وحده.. رب الناس.. ملك الناس.. إله الناس.

إنها سـنة من أصل الفطرة.. أن يرسـل الله رسـله بالحق.. بهذا الحق الـذي يجـرد مدعي الألوهيـة من الألوهيـة والربوبية والحاكميـة. فيجهر هـؤلاء بالعـداوة لديـن الله ورسـل الله. ثم يمكـرون مكرهـم في القرى، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً. ويتعاونون مع شـياطين الجن في المعركة مع الحق والهدى، وفي نشر الباطل والضلال، واستخفاف الناس بهذا الكيد الظاهر والخافي.

إنها سنة جارية، ومعركة محتومة، لأنها تقوم على أساس التناقض الكامل بين القاعدة الأولى في دين الله -وهي رد الحاكمية كلها لله- وبين أطماع المجرمين في القرى. بل بين وجودهم أصلاً.. معركة لا مفر للنبي أن يخوضها، فهو لا يملك أن يتقيها، ولا مفر للمؤمنين بالنبي أن يخوضوها وأن يمضوا إلى النهاية فيها.. والله سبحانه يطمئن أولياءه.. إن كيد أكابر المجرمين -مهما ضخم واستطال- لا يحيق إلا بهم في نهاية المطاف. إن المؤمنين لا يخوضون المعركة وحدهم فالله وليهم فيها، وهو حسبهم، وهو يرد على الكائدين كيدهم: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فليطمئن المؤمنون)[1].

الآية السادسة:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧-٥٨].

يقول الإمام الطبري رحمه الله عند هذه الآية: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد! لهؤلاء العادلين بربهم الآلهة والأوثان، المكذبيك فيما جئتهم به، السائليك أن تأتيهم بآية استعجالاً منهم بالعذاب: لو أنّ بيدي ما تستعجلون به من العذاب ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾،

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٤٠).

ففصل ذلك أسرع الفصل، بتعجيلي لكم ما تسألوني من ذلك، وتستعجلونه، ولكن ذلك بيد الله، الذي هو أعلم بوقت إرساله على الظالمين، الذين يضعون عبادتهم التي لا تنبغي أن تكون إلا لله في غير موضعها، فيعبدون من دونه الآلهة والأصنام، وهو أعلم بوقت الانتقام منهم، وحال القضاء بيني وبينهم)[(١)].

ويقول سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه الآية:

(كذلك كانوا يطلبون أن ينزل عليهم خارقة أو ينزل بهم العذاب، ليصدقوا أنه جاءهم من عند الله.. وكان يؤمر أن يعلن لهم حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول؛ وأن يفرق فرقاناً كاملاً بينها وبين حقيقة الألوهية؛ وأن يجهر بأنه لا يملك هذا الذي يستعجلونه؛ فالذي يملكه هو الله وحده؛ وهو ليس إلهاً، إنما هو رسول: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾.

إن إيقاع العذاب بهم بعد مجيء الخارقة وتكذيبهم بها حكم وقضاء؛ ولله وحده الحكم والقضاء. فهو وحده الذي يقص الحق ويخبر به؛ وهو وحده الذي يفصل في الأمر بين الداعي إلى الحق والمكذبين به. وليس هذا أو ذلك لأحد من خلقه.

وبذلك يجرد الرسول ﷺ نفسه من أن تكون له قدرة، أو تدخل في شأن القضاء الذي ينزله الله بعباده، فهذا من شأن الألوهية وحدها وخصائصها، وهو بشر يوحى إليه، ليبلغ وينذر؛ لا لينزل قضاء ويفصل.

(١) «تفسير الطبري» (١١/ ٤٠٠).

وكما أن الله سبحانه هو الذي يقص الحق ويخبر به؛ فهو كذلك الذي يقضي في الأمر ويفصل فيه.. وليس بعد هذا تنزيه وتجريد لذات الله -سبحانه- وخصائصه عن ذوات العبيد.

ثم يؤمر أن يلمس قلوبهم وعقولهم ويلفتها إلى دلالة قوية على أن هذا الأمر من عند الله، ومتروك لمشيئة الله. فلو أن أمر الخوارق -بما فيها إنزال العذاب- في مقدوره -وهو بشر- ما استطاع أن يمسك نفسه عن الاستجابة لهم، وهم يلحفون هذا الإلحاف، ولكن لأن الأمر بيد الله وحده، فهو يحلم عليهم؛ فلا يجيئهم بخارقة يتبعها العذاب المدمر، إن هم كذبوا بها كما فعل بمن قبلهم: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

إن للطاقة البشرية حدوداً في الصبر والحلم والإمهال. وما يحلم على البشر ويمهلهم -على عصيانهم وتمردهم وتبجحهم- إلا الله الحليم القوي العظيم..

وصدق الله العظيم.. فإن الإنسان ليرى من بعض الخلق ما يضيق به الصدر، وتبلغ منه الروح الحلقوم.. ثم ينظر فيجد الله -سبحانه- يسعهم في ملكه، ويطعمهم، ويسقيهم، ويغدق أحياناً عليهم، ويفتح عليهم أبواب كل شيء.. وما يجد الإنسان إلا أن يقول قولة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والمشركون يضربونه الضرب المبرح الغليظ، حتى ما يعرف له أنف من عين: «رب ما أحلمك! رب ما أحلمك!» فإنما هو حلم الله وحده.. وهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهو

يمهلهم عن علم، ويملي لهم عن حكمة، ويحلم عليهم وهو القادر على أن يجيبهم إلى ما يقترحون، ثم ينزل بهم العذاب الأليم)[١]. ا.هـ.

وفي ختام هذه الآيات الكريمات وما ورد في تفسيرها من أقوال بعض أهل العلم يحسن بنا ذكر بعض الفوائد التي نخرج بها من هذه الآيات التي تقودنا إلى معرفة بعض الحكم الربانية في تقدير الصراع بين الحق والباطل وحتميته، ومن ذلك تسليط أعداء الله المجرمين على عباده المؤمنين في بعض الأزمنة أو الأمكنة.

الفائدة الأولى:

إن تقلب الكافرين في البلاد وما هم فيه من الغلبة الظاهرة على المسلمين إنما هو بقدر الله -عزّ وجل- ومقتضى حكمته البالغة، وليس من صنعهم ولا من عند أنفسهم ﴿**وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾، فالنصر منه سبحانه وحده، ومتعلق بقدره وإرادته وحكمته، فالأمر كله لله وحده، وتدبير الأمور كلها بيده سبحانه، وأن شيئاً لا يكون في ملكه العلوي أو السفلي إلا بأمره وحكمته.

وبهذا الإيمان واليقين يستعلي المؤمن بإيمانه، ويستقر في قلبه أن الأمر كله لله، كي لا يشوب القلب ما يشوب ضعاف الإيمان من إساءة الظن بالله ﷻ وبوعده، وكي لا يتعلق بالأسباب والوسائل، وإنما يتعلق بمسببها وخالقها ومدبرها سبحانه، ويعتقد أن له سبحانه الحكمة البالغة في تدبير الأمور، ومنها إدالة الكافرين على المسلمين في بعض الأزمنة والأمكنة.

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ٥٧).

وهنـا تنبيه مهم لابد من ذكـره ألا وهو: التأكيد على أن يقيننا بأن كل شيء يحـدث في هذا الكون إنما هو بقـدر الله ﷻ وإرادته وحكمته. إن هذا لا يقتضي الاسـتكانة لتسلط الأعداء واحتلالهم للبلاد بحجة الرضا بقدر الله ﷻ كما يراه غلاة المتصوفة الجبرية، وإنما الواجب على المسلمين في هذه الأحوال مدافعة قدر الله ﷻ في تسـليط الأعداء بقدره سـبحانه بجهادهم ودفعهم عن ديار المسـلمين، وقل مثل ذلك في دفع قدر المرض بالتداوي والحريـق بإطفائه، وكل مصيبة يمكن مدافعتهـا، وهذا ما أوضحه الإمام ابن القيم رحمه الله بقوله:

(ودفع القدر بالقدر نوعان:

أحدهمـا: دفـع القدر الذي قد انعقدت أسـبابه -ولما يقع- بأسـباب أخـرى من القـدر تقابله؛ فيمتنع وقوعـه كدفع العدو بقتالـه، ودفع الحر والبرد ونحوه.

الثـاني: دفـع القـدر الذي قد وقع واسـتقر بقـدر آخر يرفعـه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوي، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان، فهذا شأن العارفين، وشأن الأقدار، لا الاستسلام لهـا، وتـرك الحركة والحيلـة؛ فإنه عجـز، والله تعالى يلوم عـلى العجز، فإذا غلب العبد، وضاقت به الحيل، ولم يبق مجال؛ فهنالك الاستسـلام للقدر، والانطراح كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء)[1] ا.هـ.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٠).

الفائدة الثانية:

إن حتمية الصراع والمدافعة بين الحق والباطل سنة ربانية مطردة ثابتة، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكون هذا الصراع والمدافعة بين أوليائه وأعدائه، ولو شاء الله -عز وجل- لانتشر دينه وعلا في الأرض دون جهد البشر، ولكن الله ﷻ لم يرد هذا، بل أراد خلافه بحكمته البالغة قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقد مر بنا قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢]، وأيضاً قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ...﴾ الآية [البقرة:٢٥١].

الفائدة الثالثة:

إن من ثمرات العلم بالله ﷻ وبأسمائه الحسنى والإيمان بها ومقتضياتها وآثارها والتعبد له سبحانه بها أن يدرك العبد هذه المسلمات، ويسير في ضوئها وهداها، وينسجم معها ولا يصادمها، وأن ينطلق في تفسيره للحوادث والنوازل والموقف منها من هذا الفهم الصحيح لأسماء الله ﷻ وصفاته العلا، ومن العلم بالسنن الإلهية في الصراع والتغيير، وفي المقابل فإن الجهل بالله ﷻ وبأسمائه الحسنى وسننه التي لا تتبدل هو مصدر التخبط والاضطراب والانحراف في التعامل مع الحوادث والمتغيرات، كما أنه مصدر الوساوس والشكوك في وعد الله ﷻ وسوء الظن به سبحانه.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولكن تُذكر هنا نكتة نافعة، وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من مصائب، وما يصيب كثيراً من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور، وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما يتنعمون به إلا قليلاً، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين، وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن العاقبة للتقوى، وقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣] -وهو ممن يصدِّق بالقرآن- حمل هذه الآيات على الدار الآخرة فقط، وقال: أما في الدنيا فما نرى بأعيننا إلا أن الكفار والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين، ولهم العزة والنصرة، والقرآن لا يَرد بخلاف المحسوس، ويعتمد على هذا فيما إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى، فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق، فيقول: أنا على الحق وأنا مغلوب، وإذا ذكره إنسان بما وعده الله من حسن العاقبة للمتقين، قال: هذا في الآخرة فقط.

وإذا قيل له: كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور؟ قال: يفعل ما يشاء، وربما قال بقلبه أو لسانه، أو كان حاله يقتضي أن هذا من نوع الظلم، لكن يقول: يفعل الله ما يشاء. وإذا ذُكِّر برحمة الله وحكمته لم يقل إلا أنه يفعل ما يشاء، فلا يعتقدون أن صاحب الحق والتقوى منصور ومؤيد، بل يعتقدون أن الله يفعل ما يشاء.

وهذه الأقوال مبنية على مقدمتين:

إحداهما: حسن ظنه بدين نفسه نوعاً أو شخصاً، واعتقاد أنه قائم بما يجب عليه، وتارك ما نُهي عنه في الدين الحق، واعتقاده في خصمه ونظيره خلاف ذلك: أن دينه باطل نوعاً أو شخصاً، لأنه ترك المأمور وفعل المحظور.

والمقدمة الثانية: أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره. وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا، فلا ينبغي الاغترار بذلك.

والمقدمتان اللتان بنيت عليهما هذا البلية مبناهما على الجهل بأمر الله ونهيه، وبوعده ووعيده. فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق، فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور، وتارك للمحظور، وهو على عكس ذلك، وهذا يكون من جهله بالدين الحق.

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على المؤمنين، ولأهل الفجور على أهل البر، فهذا من جهله بوعد الله تعالى.

أما الأول: فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها، وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها، بل ما أكثر ما يعبد الله بما حرم ويترك ما أوجب، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه، وأن خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه، ولا يكون الأمر كذلك، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم، ومع خصمه نوع من الحق والعدل.

وحبك الشيء يعمي ويصم، والإنسان مجبول على محبة نفسه، فهو لا يرى إلا محاسنها، ومبغض لخصمه، فلا يرى إلا مساوئه، وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم، فإن الإنسان ظلوم جهول.

وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم، وتقليدهم في التصديق والتكذيب، والحب والبغض، والموالاة والمعاداة. كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [لقمان:٢١]..

وأما الثاني: فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه، بخلاف من فارقهم إلى طاعة أخرى أو سبيل آخر، ويكذب بوعد الله بنصرهم.

والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ [غافر:٥١].

وقال تعالى في كتابه: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

وقال تعالى في كتابه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ [المجادلة:٥].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ [المجادلة:٢٠-٢١].

وقال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٥-٥٦].

وقال تعالى في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال:٢٩].

وأخبر أن ما يحصل لهم من مصيبة انتصار العدو وغيرها، إنما هو بذنوبهم، فقال تعالى في يوم أحد: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الروم:٣٦].

وقال تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ [الشورى:٣٤].

وذم في كتابه من لا يثق بوعده لعباده المؤمنين، وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين، فقال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:١٠-١٤].

ولهذا أمر الله رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم، وهو طاعته، وهو **المقدمة الأولى**، وأمرهم بانتظار وعده، وهي **المقدمة الثانية**، وأمرهم بالاستغفار والصبر، لأنهم لابد أن يحصل لهم تقصير وذنوب فيزيله الاستغفار، ولابد مع انتظار الوعد من الصبر فبالاستغفار تتم الطاعة، وبالصبر يتم اليقين بالوعد، وإن كان هذا كله يدخل في مسمى الطاعة والإيمان، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤]..)[١].

(١) «جامع الرسائل» (ج٢) (قاعدة في المحبة) (ص٣٢٤ - ٣٣٩ باختصار).

الفائدة الرابعة:

إن تدبر الآيات الكريمات التي سبق ذكرها وما يماثلها في القرآن الكريم ليقودنا إلى التعرف على بعض الحكم الإلهية، من وجود الصراع بين الحق والباطل، وابتلاء عباد الله المؤمنين بعباده وأعدائه الكافرين، ومن هذه الحكم ما يلي:

أولاً: حكمة الابتلاء والتمحيص وتمييز الخبيث من الطيب التي لا تحصل إلا بصراع الحق مع الباطل، وقد مر بنا قول الله ﷻ: ﴿**ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ**﴾. وقال سبحانه: ﴿**وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤١-١٤٢]، وقال ﷻ: ﴿**مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ...**﴾ الآية [آل عمران:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ**﴾ [محمد:٣١]، وقال سبحانه: ﴿**وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ**﴾ [آل عمران:١٥٤].

وقال الله ﷻ في الحديث القدسي: «**وَإِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**»(١).

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله بعض الحكم والغايات التي كانت في وقعة غزوة أحد التي ابتلي فيها المؤمنون بلاءً عظيماً، فقال:

---

(١) مسلم (٢٨٦٥).

* **ومنها**: أن حكمة الله وسُنّته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرةً ويُدال عليهم أخرى، لكن تكونُ لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميّز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمعَ لهم بين الأمرين، ليتميّز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاءوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصةً.

* **ومنها**: أن يتميّز المؤمن الصّادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لمّا أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدرٍ وطار لهم الصيت، دخل معهم في الإسلام ظاهراً من ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت حكمة الله ﷻ أن سبّب لعباده محنةً ميّزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مخبآتُهم، وعاد تلويحُهم تصريحاً، وانقسمَ الناس إلى كافرٍ ومؤمنٍ ومنافقٍ انقساماً ظاهراً، وعرف المؤمنون أن لهم عدواً في نفس دورهم وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم. قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران:١٧٩] أي: ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين حتى يميزَ أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميّزهم بالمحنة يوم أحدٍ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ الذي يميزُ به بين هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميزون في غيبه وعلمه، وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً، فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة..)[١].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٩٧).

ويقول سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ:

(وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية)[١].

وها هي الأحداث المعاصرة والنوازل المزلزلة في بلدان المسلمين في سوريا والعراق وأفغانستان وغيرها كم كشفت من المنافقين والرافضة الباطنيين وعملاء الكافرين، حيث تساقطت الأقنعة عن وجوه هؤلاء، وأظهرت هذه الابتلاءات نفاقهم وزندقتهم وخبث طويتهم وعداءهم للإسلام وأهله، وتمييز الخبيث من الطيب، وفي ذلك خير ومصلحة عظيمة لم تكن لتتحقق لولا هذه الابتلاءات والنوازل، وسبحان الله العليم الحكيم العزيز الرحيم!!

ثانياً: ما في ذلك من الخير الذي يسوقه الله عَجَّلَ إلى أوليائه بالابتلاء في استخراج عبوديتهم، وظهور صدقها في السراء والضراء، وظهور من ينصره ورسله بالغيب، وهذا لا يكون إلا بتسليط أعدائه سبحانه على أوليائه، وفي ذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

* (**ومنها**: استخراجُ عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضرّاء وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على

(١) «طريق الدعوة في ظلال القرآن» (ص٣٥٩).

الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عبيده حقاً، وليسوا كمن يعبد الله على حرفٍ واحدٍ من السرّاء والنعمة والعافية)[١].

ويقول في موطن آخر:

(والمقصود بالقصد الأول إتمام نعمته تعالى على أوليائه ورسله وخاصته، فاستعمال أعدائه فيما تكمل به النعمة على أوليائه غاية الحكمة، وكان في تمكين أهل الكفر والفسق والعصيان من ذلك إيصال إلى الكمال الذي يحصل لهم بمعاداة هؤلاء وجهادهم والإنكار عليهم والموالاة فيه والمعاداة فيه، وبذل نفوسهم وأموالهم وقواهم له، فإن تمام العبودية لا يحصل إلا بالمحبة الصادقة، وإنما تكون المحبة صادقة إذا بذل فيها المحب ما يملكه من مال ورياسة وقوة في مرضاة محبوبه والتقرب إليه، فإن بذل له روحه كان هذا أعلى درجات المحبة، ومن المعلوم أن من لوازم ذلك التي لا يحصل إلا بها أن يخلق ذواتاً وأسباباً وأعمالاً وأخلاقاً وطبائع تقتضي معاداة من يحبه ويؤثر مرضاته لها، وعند ذلك تتحقق المحبة الصادقة من غيرها، فكل أحد يحب الإحسان والراحة والدعة واللذة، ويحب من يوصل إليه ذلك ويحصله له، ولكن الشأن في أمر وراء هذا وهو محبته سبحانه، ومحبة ما يحبه مما هو أكره شيء إلى النفوس وأشق شيء عليها مما لا يلائمها، فعند حصول أسباب ذلك يتبين من يحب الله لذاته ويحب ما يحب ممن يحبه لأجل مخلوقاته فقط من المأكل والمشرب والمنكح والرياسة، فإن أعطي منها رضي، وإن منعها سخط وعتب على ربه وربما

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٩٨).

شكاه وربما ترك عبادته، فلولا خلق الأضداد وتسليط أعدائه وامتحان أوليائه لم يستخرج خاص العبودية من عبيده الذين هم عبيده، ولم يحصل لهم عبودية الموالاة فيه والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه والعطاء له والمنع له، ولا عبودية بذل الأرواح والأموال والأولاد والقوى في جهاد أعدائه ومضرته، ولا عبودية مفارقة الناس أحوج ما يكون إليهم عنده لأجله في مرضاته، ولا يتحيز إليهم وهو يرى محاب نفسه وملاذها بأيديهم فيرضى مفارقتهم ومشاقتهم، وإيثار موالاة الحق عليهم، فلولا الأضداد والأسباب التي توجب ذلك لم تحصل هذه الآثار، وأيضاً فلولا تسليط الشهوة والغضب ودواعيهما على العبد لم تحصل له فضيلة الصبر وجهاد النفس، ومنعها من حظوظها وشهواتها محبة لله، وإيثاراً لمرضاته وطلباً للزلفى لديه والقرب منه، وأيضاً فلولا ذلك لم تكن هذه النشأة الإنسانية إنسانية بل كانت ملكية)[(١)].

ثالثاً: تعريف عباده سوء عاقبة الذنوب والمعاصي والركون إلى الحياة الدنيا والاغترار بها، ونسيان الآخرة وما فيها، وهذه من رحمة الله ﷻ وحكمته، حيث يكون الابتلاء وتسليط الكافرين على المؤمنين تمحيصاً لهم وسبباً في رجوعهم إلى الله ﷻ ومعرفتهم لعيوبهم وذنوبهم فيقلعوا عنها ويتوبوا إلى الله ﷻ وينكسروا له ويرجعوا إليه ويغيروا ما بأنفسهم، ويشهد على ذلك ما حصل للمسلمين في العراق وسوريا وأفغانستان والبوسنة من الرجوع إلى دين الله ﷻ بسبب ما حل بهم من المصائب وغزو الكفار لهم. قال الله ﷻ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

(١) «طريق الهجرتين» (ص٢٠٢، ٢٠٣).

يقـول الإمـام ابن القيـم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديثه عـن حكمة الابتـلاء الذي حصل للمسلمين في غزوة أحد:

* (**فمنها**: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهـم إنما هو بشـؤم ذلك، كما قال تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٢]. فلـما ذاقـوا عاقبة معصيتهم للرسـول وتنازعهم وفشـلهم كانوا بعد ذلك أشـدّ حذراً ويقظةً وتحرزاً من أسباب الخذلان: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠])[١].

ويقـول في موطن آخـر: (فمن نقـص إيمانه نقص نصيبـه من النصر والتأييد، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسـه أو ماله، أو بإدالة عدوه عليـه، فإنـما هو بذنوبـه: إما بترك واجـب، أو فعل محـرم، وهو من نقص إيمانه. وبهذا يزول الإشـكال الذي يورده كثير من الناس على قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١] والتحقيـق: أنها انتفاء السـبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم)[٢].

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٩٧).
(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٨٢).

رابعـاً: إن في الصراع بـين الحق والباطل بياناً للحق وإظهاراً لسـبيل المجرمين.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: (ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعـداء، وللباطل أنصـاراً قائمين بالدعـوة إليه أن يحصل لعبـاده الابتلاء والامتحـان.. ومن حكمته أن في ذلك بياناً للحق وتوضيحاً له، فإن الحق يسـتنير ويتضـح إذا قام الباطـل يصارعـه ويقاومه، فإنـه -حينئذ- يتبين من أدلة الحق وشـواهده الدالـة على صدقه وحقيقته، ومن فسـاد الباطل وبطلانه ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون)[١].

وهذا ما نشهده اليوم من اليقظة الشاملة في أوساط المسلمين بحقيقة أعدائهـم، وتعريـة باطلهم، وتقويـة عقيدة الولاء والبراء، وشـحذ الهمم لنـصرة دين الله عز وجل والجهاد في سـبيله، وفي هذا مكاسـب كبيرة ومصلحة عظيمة، لاسيما إذا قارنا أحوال الأمة ويقظتها اليوم مما كانت تعيشه سابقاً قبل هـذه الأحداث من غفلة وانخداع بما يروجـه الكفار والمنافقون أنهم دعاة سلام وأمن وحرية.

خامسـاً: ما ذكره ابن القيم رحمه الله في كلامه عن الحكم المسـتوحاة من غزوة أحد في قوله:

* (**ومنهـا**: أنـه سـبحانه لو نصرهم دائـماً وأظفرهـم بعدوّهم في كل موطـنٍ، وجعـل لهـم التمكـين والقهـر لأعدائهم أبـداً لطغت نفوسـهم وشـمخت وارتفعت، فلو بسـط لهم النصر والظفر لكانـوا في الحال التي

(١) «تفسير السعدي» (ص٢٧٠).

يكونون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يُصلح عباده إلا السرّاء والضّرّاء والشّدّة والرّخاء والقبض والبسطُ، فهو المدبرُ لأمر عباده كما يليق بحكمته، إنه بهم خبيرٌ بصيرٌ)(١).

سادساً: اصطفاء الله ﷻ لمن يشاء من عباده بالابتلاء، ليكونوا من أوليائه، ويتخذ منهم شهداء، ينعمون في جواره برضاه وجنته، وما كان لهم أن يبلغوا ذلك إلا بالمحنة والبلاء. يقول ابن القيم رحمه الله:

* (**ومنها**: أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلُغها أعمالهم ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيّض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها)(٢).

سابعاً: تخليص النفوس من الزهو والعجب والطغيان، وتحقيق التوكل على الله وحده وانكسارها له.

يقول ابن القيم رحمه الله:

* (**ومنها**: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً وركوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه.

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٩٨).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ١٩٨).

* **ومنها**: أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلّوا وانكسروا وخضعوا، فاستوجبوا منه العزّ والنصر، فإن خلعة النصر إنّما تكون مع ولاية الذّل والانكسار. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣]، وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة:٢٥]، فهو -سبحانه- إذا أراد أن يُعزّ عبده ويجبره وينصره كسره أولاً، ويكون جبره له ونصره على مقدار ذلّه وانكساره)(١).

وفي ذلك يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها دون سند من الله لا تكفل النصر.. إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها، ثم تكل الأمر بعدها إلى الله..)(٢).

ويقول أيضاً: (وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سنداً إلا الله، ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء.. وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله.. فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به)(٣).

ثامناً: ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في سرده للحكم المستوحاة من غزوة أحد بقوله:

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٩٩).
(٢) «طريق الدعوة في ظلال القرآن» (ص٣٥٩).
(٣) «طريق الدعوة في ظلال القرآن» (ص٣٥٩).

* (**ومنها**: أن الله سبحانه إذا أراد أن يُهلك أعداءه ويمحقهم قيّض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم وطغيانهم ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم، فيتمحّص بذلك أولياؤُه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، وقد ذكر سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤١])[1].

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٠٠).

الفَصْلُ الثَّانِي

أنواع الغزو الذي يتعرض له المسلمون اليوم في بلدانهم

قال في «لسان العرب»: (مادة غزا): غزا الشيء غزواً، أراده وطلبه، والغزوة -بالكسر- ما غُزي وطلب، ومغزى الكلام مقصده، وعرفت ما يُغزى من هذا الكلام: أي ما يراد منه، والغزو: القصد.

وبهذا تنحصر معاني هذه المادة: في الطلب والقصد والإرادة ومعرفة ما يراد، واليوم لم يعد خافياً ما يتعرض له المسلمون في بلدانهم من غزو وعدوان شامل، تداعت إليه أمم الكفر من كل حدب ينسلون، وهذا مصداق قوله ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ كما تَدَاعَى الأَكَلَةُ على قَصْعَتِهَا**..» الحديث[1].

وقد أخذ هذا الغزو والعدوان صوراً متعددة، كل واحدة منها لا تقل خطراً عن أختها، ولم يسلم من فتنة هذا الغزو إلا من رحم الله تعالى، فلا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم.

ويمكن إجمال أنواع الغزو الذي تتعرض له بلدان المسلمين اليوم فيما يلي:

---

(١) أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨١٨٣).

١ - الغزو العسكري.

٢- الغزو الفكري وإثارة الشبهات على العقيدة والأحكام.

٣- الغزو الإباحي وإثارة الشهوات.

وأسـوق في هذا الفصل توصيفاً لهذه الأنـواع من الغزو، ثم أتبعه في الفصل الذي يليه إن شاء الله تعالى ذكر مواقف الناس من هذا الغزو.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

الغزو العسكري

وهو الغزو الذي اجتاحت به بعض أمم الكفر، واحتلت بجيوشها بعض أراضي المسلمين، فسامت أهلها سوء العذاب، وأكثروا في الأرض الفساد، كما هو الواقع في الغزو الأمريكي وحلفائهم من الغرب والشرق لدولة أفغانستان والعراق، وكما هو الواقع في الاحتلال اليهودي لفلسطين، والاحتلال الباطني لبلاد الشام، والاحتلال الفرنسي لدولة مالي، وكما هو الحاصل في كشمير وبورما وتركستان وغيرها.

ولقد عانى المسلمون في تلك الديار معاناة عظيمة في أديانهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم، فكم قتل هؤلاء الغزاة من المسلمين، وكم سجنوا وعذبوا، وكم هتكوا من الأعراض، واستباحوا من الدماء والأموال، وكل ذلك يتم تحت نظر العالم وسمعه، ويتبجح هؤلاء الغزاة بلا خوف ولا حياء بأنهم قد أتوا لنشر الحرية والكرامة والديمقراطية وتطهير البلاد من الفساد والإرهاب!!

ومما يجب الانتباه إليه في هذا الغزو ابتهاج المنافقين في تلك البلاد بهذا الغزو واستدعاؤهم له، والتعاون مع الغازي المحتل في دخول الديار واحتلالها، ووقوفهم في خندق واحد مع الغزاة، ونظرة سريعة إلى مواقف

العلمانيين والليبراليين والرافضة الباطنين من هذا الغزو، وابتهاجهم وفرحهم به. وتوليهم المناصب في حكومة المحتل تُظهر لنا الدليل القاطع على عمالتهم وخيانتهم لأمتهم، ولولا أن الله ﷻ قدر -بعلمه وحكمته- أن يوجد مثل هؤلاء المنافقين من الرافضة والعلمانيين والنفعيين لما استطاع الكفرة الغزاة من دخول البلاد واحتلالها أبداً، وهذا مطرد في التاريخ القديم والحديث ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩].

وأسوق فيما يلي بعض صور المعاناة والآلام التي عاناها ويعانيها المسلمون من الغزاة الكفرة وأوليائهم المنافقين، وذلك فيما يقومون به في تلك البلدان من عدوان صارخ على كرامة الإنسان وحقوقه في نفسه وماله وعرضه. فأين الكرامة والحرية التي يتذرع بها هؤلاء الكفرة الغزاة في أنهم جاءوا لإحيائها ونشرها في بلدان المسلمين؟!!

نشر موقع (Thawra on Line) تقريراً بعنوان (عشرة أعوام على الغزو الأمريكي للعراق.. عقد مملوء بالفوضى والموت والنزوح والفقر دفنت شعارات أمريكا الكاذبة) قال التقرير:

(أعطى القرار الأمريكي المشؤوم بغزو العراق متخطياً بصلف كل الشرائع السماوية والإنسانية الضوء الأخضر، لمرحلة عارمة بالفوضى والموت والتشتت والتمزيق في هذا البلد الذي شكل على الدوام نقطة ثقل لحضارة المنطقة واستقرارها في المراحل الأولى لعقد مضى على هذا

الغزو، قبل أن تنقلب الطاولة على الحسابات الأمريكية المزكومة بروائح النفط، وليعلن التاريخ واحدة من أكبر الهزائم التي منيت بها الإمبريالية الأمريكية في العالم من جهة، وليزيل اللثام في المقلب الآخر عن واحدة من أفظع الانتكاسات في التاريخ الإنساني من هول التخبط الأمريكي الذي أنتج مجازر إنسانية بالجملة طالت الحجر والبشر في هذا البلد من جهة ثانية.

القرار الأمريكي بالاعتداء على دولة ذات سيادة الذي عبر حينه عن مدى العجرفة الأمريكية خلف مآس كشفتها الدوائر الأمريكية أو المقربة منها قبل أن تكشفها دوائر رسمية وغير رسمية، ووثائق سربت لعشرات المواقع الإلكترونية المنتشرة في العالم، لعل أشهرها ما سمي وثائق »ويكيليكس« الموقع الإلكتروني الشهير بنشر الوثائق السرية، فقد كشفت وثائق سرية نشرت لأول مرة عن خفايا الغزو الأمريكي للعراق أن الجيش الأمريكي قتل مئات العراقيين على الحواجز ونقاط التفتيش، وأن عدد القتلى من المدنيين العراقيين أعلى بكثير من الرقم المعلن.

كما كشفت الوثائق التي حصل عليها الموقع والتي تجاوز عددها ٤٠٠ ألف وثيقة معلومات جديدة عن ضحايا لشركة «بلاك ووتر» من المدنيين، وعن تستر الجيش الأمريكي على التعذيب داخل السجون العراقية بأمر من الإدارة الأمريكية، وأكدت الوثائق السرية أن القوات الأمريكية كانت تحتفظ بتوثيق للقتلى والجرحى العراقيين برغم إنكارها علنياً لكل ذلك، حيث تم الكشف عن توثيق لـ ٢٨٥ ألف ضحية عراقية

بينهم ١٠٩ آلاف قتيل على الأقل، وتعني هذه الأرقام بوضوح أن نسبة القتلى بسبب الحرب الأمريكية على العراق، يصل إلى أربعة أضعاف تلك التي سجلتها الحرب الأمريكية في أفغانستان، وأن بقية الخسائر تصل إلى ستة أضعاف في سياق المقارنة نفسها.

وأظهرت الوثائق أن قرابة ٦٣٪ من القتلى هم من المدنيين؛ أي: أنهم يشكلون ثلثي مجموع القتلى، وكشفت تحليلات الوثائق ارتفاع معدلات القتلى في العراق شهراً بعد شهر منذ اليوم الأول للغزو الأمريكي، وبحسب موقع إحصاء الضحايا العراقيين فإن عدد القتلى من المدنيين وصل إلى ١١٠ آلاف قتيل منذ بداية الغزو الأمريكي للعراق، لكن مع نشر وثائق «ويكيليكس» بات يتعين على الموقع رفع أرقامه بنسبة ٥٠٪، إذ إن العدد الحقيقي وصل إلى ١٥٠ ألف مدني دفعوا حياتهم جراء الغزو الأمريكي، حيث شكل المدنيون العراقيون فريسة سهلة على الدوام لكل مصادر النيران الأمريكية، علماً أن الإدارة الأمريكية لم تكلف نفسها عناء الإحصاء الممنهج للقتلى الذين سقطوا بنيران قواتها.

وفضحت الوثائق كذب الرواية الأمريكية المعلنة على صعيد الحواجز ونقاط التفتيش، حيث تظهر عدداً كبيراً من العراقيين قضوا عند هذه النقاط أو بهجمات جوية أمريكية مباشرة، حيث اعتادت الطائرات الأمريكية استهداف ما تسميهم «مشتبهاً فيهم» على أنهم مقاتلون مناوئون لها، وكثيراً ما كانت النتائج مدمرة، ففي مدينة الفلوجة في التاسع من أيلول عام ٢٠٠٥ تقول برقية عسكرية سرية: إن طائرة من طراز (F15)

ألقت قنبلتين (BY 125) على الهدف وإصابته إصابة بالغة، بينما تضمن تقرير أضرار ساحة المعركة الذي أعدته «أصابع الإدارة الأمريكية» أنها غير معروفة، وأنه لم يسجل وقوع أي إصابات، وكشفت الوثائق أن قوة جوية غير خاضعة للمساءلة كانت تحوم في سماء العراق، وتصب حمم قنابلها، فتتسبب في نشر الموت في أرجاء البلاد بعد عشرات الطلعات يومياً مؤكدة وقوع ١٤ ألف حادثة في كل العراق، معظمها شهد مقتل مدنيين عراقيين، وكان لفضائح «معتقل أبو غريب» دوي في العالم على المستويين الشعبي والرسمي، أحدث لطخة سوداء في التاريخ الأمريكي على كل المستويات، فيما حاولت الإدارة الأمريكية التملص من الفضيحة بذرائع زادت من حدة الانتقادات الموجهة لها حيال هذا الأمر، فقد كشفت الوثائق أمراً عسكرياً صدر في نيسان عام (٢٠٠٥) أمر من خلاله العسكريين الأمريكيين بأن يبلغوا رؤساءهم عن تعذيب العراقيين للعراقيين فقط، ولكن على ألا يتخذوا أي إجراءات أخرى.

الكارثة التي خلفها الغزو الأمريكي للعراق بدأت تنكشف بمرور الوقت فقد ذكرت مصادر صحيَّة محلية ودولية أنه بسبب الغزو الأمريكي، فقد ترك العراقيون وحدهم في مواجهة أراض مسمومة باليورانيوم المنضب، ولا تزال آثار التفجيرات التي نفذتها القوات الأمريكية والبريطانية في العراق قائمة حتى الآن مشيرة إلى أن العراق شهد تزايداً واضحاً في انتشار الأمراض السرطانية والتشوهات الخلقية، وخصوصاً في مدينة الفلوجة التي تشهد أكبر نسبة انتشار لهذه الأمراض والتشوهات

الخلقية، ولاسيما عند الأطفال بسبب استخدام القوات الأمريكية أسلحة محرمة دولياً.

وكانت تقارير عديدة أكدت أن الولايات المتحدة أسقطت كميات ضخمة من الفوسفور الأبيض على مدينة الفلوجة خلال العدوان على المدينة في تشرين الثاني عام (٢٠٠٤)، الأمر الذي أسفر عن مقتل عدد كبير من أهالي الفلوجة مع إصابتهم بحروق هائلة كاشفة أن هذه الهجمات تسببت بتدمير نحو ستين إلى سبعين بالمئة من المنازل والمباني بشكل كامل، وأسفرت عن سقوط الكثير من الضحايا، بينما أكدت إحصاءات طبية ارتفاع نسبة التشوهات الخلقية لدى الأطفال المولودين حديثاً بنسبة ٦٠٪ منذ عام (٢٠٠٣) مع توقعات بتزايد هذه الظاهرة وتفاقمها.

وبلغ عدد النازحين أكثر من (٢,٨) مليون عراقي ما زالوا مهجرين من ديارهم، ويعيشون في ظروف بائسة، هائمين على وجوههم في مشارق الأرض ومغاربها، متأبطين البؤس والمذلة والعوز على أعتاب سفارات أمم الدنيا، بينما علقت قصص المئات والآلاف من العراقيات اللواتي دفعهن الفقر والعوز للانزلاق في المحظور على مناشير الإعلام الأصفر، وصرن عامل جذب لآلاف المتابعين والمتطفلين العابثين.

ومنذ لحظة إعلان سقوط بغداد في (٩ نيسان ٢٠٠٣)، بدأت عمليات سلب ونهب واسعة النطاق في بغداد وبعض المدن الأخرى، نقلت إلى العالم بأسره عبر شارات التلفاز، حيث قام الجيش الأمريكي بحماية مباني وزارتي النفط والداخلية فقط، ومن ضمنها المخابرات العراقية،

بينما بقيت المؤسسات الأخرى كالبنوك ومشاجب الأسلحة والمنشآت النووية والمستشفيات والمتاحف والأماكن الأثرية حلالاً للقاصي والداني ولعملاء كل المؤسسات الغربية الانتهازية والإسرائيلية التي اقتنصت بغطاء أمريكي فاضح آلاف القطع الأثرية التي لا تقدر بثمن، حيث فقد المتحف الوطني العراقي وحده ١٧٠ ألف قطعة أثرية تختزن وتؤرخ الذاكرة العراقية لآلاف السنين، وكذلك سرقة آلاف الأطنان من الذخيرة الحربية من معسكرات الجيش العراقي، وسرقة مركز للأبحاث النووية في (التويثة) التي كانت تحتوي على ١٠٠ طن من اليورانيوم، حيث قامت شاحنات بنقل محتويات هذا المركز إلى جهات مجهولة.

وفي الاقتصاد فبعد مرور عشر سنوات من الغزو الأمريكي للعراق لا يزال الوضع الاقتصادي والسياسي والأمني يعاني من تعقيد شديد، ولا تزال دماء العراقيين في الشوارع، حيث يواجه هذا الاقتصاد الذي نهبه الاحتلال ودمر بناه الأساسية تحديات جمة للخروج من النفق المظلم واسترداد عافيته، إذ يئن تحت أعباء مديونية ضخمة تقدر بنحو ١٣٠ مليار دولار، تكدست على البلاد خلال سنوات الحرب والحصار الطويلة، وقد أدى ذلك إلى تدهور الاقتصاد بشكل حاد ما أثر سلباً بطبيعة الحال على المستوى المعيشي للمواطن العراقي، وأشارت الدراسات إلى أن نحو ٥٠٪ من العراقيين يعيشون الآن في حالة فقر ومنذ الغزو الأمريكي للعراق ٢٠٠٣ ارتفعت نسبة التضخم ليتراجع مستوى معيشة العراقيين.

ومنذ سقوط أول صاروخ في الحرب على العراق هوى الاقتصاد في براثن حالة من الفوضى برغم امتلاك العراق ثالث أكبر احتياطي نفطي وقوة عاملة على درجة عالية من التعليم ووفرة المياه وموارد أخرى ذات قيمة.

ويعتمد الاقتصاد العراقي على النفط، فاقتصاده نفطي في المقام الأول، إلا أن النفط لا يشكل المورد الوحيد، وهو من الدول المؤسسة لمنظمة الأوبك، وبدأت صناعته منذ عام ١٩٢٥ [انتهى التقرير].

وفي (١١/ ٣/ ١٤٢٤هـ)، الموافق (٢/ ٥/ ٢٠٠٤م)، عرضت القنوات الإخبارية صوراً منقولة عن (قناة CBC الأمريكية) يظهر فيها تعذيب الأسرى العراقيين في »سجن أبو غريب« قرب بغداد، بلغت الغاية في الوحشية والهمجية والظلم وامتهان الكرامة الإنسانية، والتعذيب الذي يؤدي إلى القتل، فظهر في الصورة جندي أمريكي يضع قدمه على المواطن العراقي السجين، وفي صورة أخرى يتبول الجندي الأمريكي على السجين وسط استهزاء الجنود وإظهار الاحتقار، وفي صورة ثالثة ظهر المعتقلون عراة والمجندات يتحسَّسن بعض المواضع من أجسادهم ويتندرن بهم، مما دعا الهيئات العالمية إلى استنكارها وشجبها، وإظهار الاشمئزاز.

هذه هي الكرامة والحرية ومحاربة الإرهاب التي تدعيها أمريكا وحلفاؤها وأولياؤها من العلمانيين والليبراليين المنافقين من بني جلدتنا كهدف لها في غزوها للعراق وبلدان المسلمين!!!

وأمـا ما فعلته أمريـكا وتفعله الآن بمعاونة حلفائهـا الكفرة في بلاد الأفغـان، فلا يقل عما حصل في العراق من قتـل وتدمير، وزادت عليه ما تقوم به منذ عدة سـنوات من قتل للمسـلمين بطائراتها المقاتلة دون طيار، ويـرى الصحفي البريطـاني (روبرت فيك) تحت عنـوان (إرهاب الحرب ضـد الإرهـاب) أن الغرب بحضارتـه أصبح مجرم حرب في أفغانسـتان، أو كـما عـبر عن ذلـك بقولـه: (أصبحنـا مجرمي حـرب منذ قـرار حرب أفغانسـتان وتجييش الجيوش والتحالفات لها قبـل إعلان الأدلة والوثائق المُدِينة لهؤلاء أو هؤلاء)[١]، وهذا ما عبر عن معناه وزير العدل الأمريكي السابق (رمزي كلارك) في مقابلته مع قناة الجزيرة القطرية، حيث وصف عمليـات القصف الأمريكي على أفغانسـتان بأنها جرائـم حرب بالتأكيد وجرائم ضد الإنسانية وضد السلام»[١].

وما مارسـته وتمارسـه في سـجون (جوانتناموا) من تعذيب وإهدار لكرامـة الإنسـان وحقوقه. وسـبحان الله العليـم الحكيم العزيـز الرحيم الحليـم العظيم، الذي يمهل ولا يهمـل ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعـام:١١٢]. وهـا هي بعض حكـم الله ﷻ وألطافه تظهر لنا وذلـك مما أصاب به الكفرة الغزاة بسـبب غزوهم من كـوارث اقتصادية واجتماعيـة، وتعرية لهم أمـام العالم بسـقوطهم أخلاقياً وعقدياً وإنسـانياً وسـقوطهم عسـكرياً بـما يواجهونه من قتـل وتدمير من قبـل المجاهدين الأبطال، والذي أشعرهم بالإحباط والتورط في معركة لم يحسبوا حسابها، فأخذوا يفكرون بالانسحاب منها.

---

(١) انظر: (القطاع الخيري ودعاوى الإرهاب) د. محمد السلومي.

ونَقْلَة إلى عدوان اليهود الفجرة على إخواننا المسلمين في فلسطين، ولاسيما ما حصل في غزة من حصار ظالم وتدمير للبيوت على أهلها وقتل للنساء والأطفال، ترينا حقد الكفرة على المسلمين، وحرصهم على إبادتهم وإفساد أديانهم وأموالهم وأعراضهم.

وأعداء المسلمين يتفقون على أن عدوهم الأكبر هو الإسلام وأهله، وإن اختلفوا فيما بينهم، فها هم البوذيون يسومون المسلمين في مانيمار (بورما) سوء العذاب، يقتلون الرجال والنساء والأطفال ويحرقونهم ويهجرونهم من ديارهم، وهؤلاء الهنود الهندوس لا يخفى عدوانهم على المسلمين واحتلال ديارهم في كشمير وجامو، واضطهادهم داخل مدنهم الهندية.

وها هي الحرب الصليبية الفرنسية على دولة مالي لمقاتلة المسلمين، والحيلولة بينهم وبين إقامة دولة إسلامية تحكم بشرع الله تعالى.

وأخيراً هاهم الروس والباطنيون الرافضة في إيران والعراق ولبنان يتحالفون الآن في حرب شرسة على أهل السنة المسلمين في سوريا وبلاد الشام، لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، يقتلون الأطفال والنساء والشيوخ على الهوية. والغرب والشرق يؤيدهم علناً أو سراً. فسبحان الله العظيم ما أحلمه وأحكمه وأرحمه.

ولو أن ديناً أو طائفة تتعرض لما تعرض له الإسلام في تاريخه الطويل من عدوان وكيد ومكر تشترك فيه كل أمم الكفر في الأرض (نصارى ويهود وباطنيون وبوذيون وهندوس ومشركون وشيوعيون وعلمانيون

منافقـون) لمحيـت خارطتـه مـن الوجـود منذ أمـد بعيد. ولكنـه دين الله الإسـلام الذي تكفل الله بحفظه وبقائه وظهـوره على الدين كله ولو كره المشركـون، قـال تعـالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٢-٣٣].

وفي ختـام الحديث عن الغزو العسـكري الموجه إلى بلدان المسـلمين يجـدر التنبيـه إلى نـوع خطير من الحـرب والغزو بدأ الكفار يسـتخدمونها في بلـدان المسـلمين، وهـو مـا يسـمى (بحـروب الجيـل الرابـع والشرق الأوسـط الجديد)[١]، وهو إصدار جديد من إصدارات الحروب الموجهة إلى المسـلمين، وهذه الحرب تقوم على إثارة الفـوضى الفكرية والأمنية في الدولة المقصودة بالحرب والسـعي لتفتيتها بمواجهات بين أبناء الشـعب الواحد عن طريق دعم طرف دون الآخر، ولاسيما بين الجماعات المختلفة وإذكاء الخـلاف بينهـا وإشـاعة الفـوضى لإجبـار الدولـة عـلى التقسـيم والتشرذم لتصبح دويلات لا حول لها ولا قوة.. دويلات ضعيفة متهالكة لا تسـتطيع أن تحيـا مـن دون وصايتهـا؛ أي: ما معناه أن هـذه الدويلات لن تبلغ سـن الرشد أبداً، وسيسهل تشكيلها والتلاعب بها بحجة حمايتها

(١) وقد سبقها ثلاثة أنواع من الحروب: الحرب الأولى: هي الحرب التقليدية بالجيوش والسلاح، والحرب الثانية: هي الحرب الباردة، والحرب الثالثة: ما يسموه بالحرب على الإرهاب.

وإيصالها إلى بر الأمان، في حين أنها تستخدم وتسخر للاقتتال نيابة عنها بعد أن تمزق أوصالها عن طريق زرع الفتن والانشقاقات وإشاعة الفوضى ونشر الأكاذيب والافتراءات، مستخدمة الإعلام الملبس في إثارة الفوضى والغبش في الأفكار وإثارة الشبهات.

ويتم تنفيذ هذه السياسة الماكرة من خلال العملاء المنافقين من أبناء البلد، أو من يزرعه الكفار من أوليائهم داخل البلد، وغالباً ما يكون هؤلاء المنافقون والعملاء من السياسيين وأصحاب الأقلام، ورواد منابر الإعلام، والفنانين والرياضيين والليبراليين، والذين تكون مهمتهم خلق الأزمات وإثارة الشبهات وزعزعة الاستقرار، بحيث يردد وراءهم عامة الناس ما يرفعونه من شعارات فيخربون بيوتهم بأيديهم، وتبقى الدولة المغزوة في فوضى وعدم استقرار تغتنمه الدول الغازية في تمرير ما يريدون من تدخل سافر في شئون البلاد وسيطرة على مقدراتها وتنفيذ لمخططاتها، وذلك بأقل خسارة تنالهم، ودون تدخل عسكري يكلفهم الخسائر في الأرواح والمعدات.

ولو احتاجوا للتدخل العسكري لتم لهم بأقل الخسائر لأنهم يدخلون بلداً مفككاً ضعيفاً قد اختلفت كلمة أهله وأفكارهم وغاياتهم، وهذا وللأسف ما يجري في هذه الأزمنة من حرب يشنها الأعداء على بلدان المسلمين، دون أن تكلفهم هذه الحرب سلاحاً وجنوداً، فهل نعي معشر المسلمين هذا النوع من الحرب، ونسعى لفضحها وتحذير الناس منها وقطع الطريق على أهلها؟

يحدد أهداف هذه الحرب أحد المخططين لها (ماكس مايوراينج) الأستاذ بمعهد الدراسات الإستراتيجية بالجيش الأمريكي وأحد أعمدة المخابرات العسكرية السابقين، فيقول: (إنها إفشال الدولة المغزوة وزعزعة استقرارها، ثم فرض واقع جديد يراعي المصالح الأمريكية عن طريق السيطرة على وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي والغرض من ذلك إنهاك وقضم إرادة الدولة المستهدفة ببطء وثبات؛ لتحقيق هدفنا النهائي. وهو إرغام العدو على تنفيذ رغباتنا) ويقول: (إن أسلحتنا في هذه الحرب الناعمة ليست المدافع والدبابات والطائرات، ولكن قوة المال والقدرات العقلية، وهو أهون علينا وأقل تكلفة، لأن من سينفذها لحسابنا هم مواطنون من الدولة العدو الذين يتولون عنا زعزعة الاستقرار ونشر الفوضى).

وبعد هذا التوصيف السريع لما يتعرض له المسلمون اليوم وقبل اليوم من غزو وعدوان على بلدانهم، يمكن إجمال أهداف الكفرة من غزوهم العسكري فيما يلي:

أولاً: إفساد عقائد المسلمين وردهم عن دينهم الذي يحتم على المسلمين عداوة الكافر والبراء منه، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ الآية [البقرة:٢١٧]، وقال سبحانه: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ الآية [النساء:٨٩]، وقال ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ ...﴾ [البقرة:١٠٩].

ثانياً: التمكن من أدوات التوجيه في البلدان المحتلة واستخدامها في إفساد أخلاق المسلمين وأعراضهم، ونشر الرذيلة بينهم، وبث الشقاق بينهم.

ثالثاً: اضطهاد المسلمين في البلدان التي احتلوها بقتلهم وسجنهم وتشريدهم ولاسيما رموز المسلمين ومرجعياتهم من الدعاة والعلماء، وذلك لينفردوا بتغريب مجتمعات المسلمين والقضاء على روح الجهاد لديهم.

رابعاً: الاستيلاء على خيرات المسلمين والتحكم في مقدراتهم واقتصادهم وثرواتهم.

خامساً: استخدام البلدان التي احتلوها في أن تكون مقراً لقواعدهم العسكرية والاستخباراتية لتوسيع نفوذهم.

سادساً: التمكين لأوليائهم في تلك البلدان من المنافقين والعملاء من بني جلدتنا وتسليمهم مقاليد الأمور في بلدانهم.

المبحث الثاني

الغزو الفكري وإثارة الشبهات على أصول الإسلام وأحكامه

وهذا النوع من الغزو لم يسلم منه بلد من بلدان المسلمين، فهو غزو عام شامل من الأعداء الكفرة لجميع بلدان المسلمين بديل عن الغزو العسكري، كما أن هذا النوع من الغزو لم يختص بزمان دون زمان، فمنذ أشرقت شمس الإسلام على البشرية ببعثة نبينا محمد ﷺ والأعداء ما فتأوا يوجهون سهام شبهاتهم على أهل الإسلام كما حصل هذا من اليهود في زمن الرسول ﷺ وما تلا عصر الخلافة الراشدة من الفتن والبدع والأهواء إلى عصرنا اليوم الذي بلغ فيه هذا النوع من الغزو أوجه وذروة قوته وخطره، وذلك بما يستخدمه الغزاة في هذا الغزو من وسائل إعلامية هائلة لم تمر على البشرية في تاريخها، مما كان له أكبر الأثر في نشر الشبهات وتوجيه معاول الهدم على ثوابت هذا الدين في أصوله وأحكامه، فليس عندهم شيء ثابت ولا أصل لا يتغير، بل ما كان ثابتاً وأصلاً في زمان أو مكان ما قد لا يكون ثابتاً وأصلاً في زمان ومكان آخرين، ولا يستثنون شيئاً من ذلك، ولو كان ذلك في توحيد رب العالمين أو في الأخلاق والقيم التي هي ثابتة في كل الكتب السماوية ودعى إليها كل الأنبياء والرسل.

وهدف هذا الغزو هو إذابة الشعوب الإسلامية وسلخها عن عقيدتها وهويتها وحضارتها؛ لتصبح مسخاً مشوهاً تابعاً ذليلاً لغيرها؛ لأن الكفرة

من النصارى الصليبيين واليهود الفجرة يعلمون أن العقيدة الصحيحة القائمة على الولاء والبراء هي أقوى سلاح ضدهم، فسعوا جاهدين لطمسها وكسر هذا الحاجز المنيع بينهم وبين المسلمين، واستخدموا في ذلك كل الوسائل الممكنة، وسخروا أولياءهم من المنافقين في بلدان المسلمين في تنفيذ ذلك.

يقول الدكتور عبدالستار السعيد: (الغزو الفكري تعبير دقيق بارع يصور خطورة الآثار الفكرية التي يستهين بها كثير من الناس؛ لأنها تمضي بينهم في صمت ونعومة مع أنها حرب ضروس.. لا تضع أوزارها حتى تترك ضحاياها بين أسير أو قتيل أو مسيخ؛ كحرب السلاح أو هي أشد فتكاً)[١].

وذلك أن الغزو العسكري واحتلال الأرض يثير في الطرف المقابل الحمية والنخوة وروح المقاومة ورد العدوان، في حين أن الغزو عن طريق الفكر لا يثير شيئاً من هذا عند كثير من الناس؛ لأنه يتودد إلى النفس، ويدخل إليها من عدة مداخل تناسبها: مداخل الشبهات من دعاوى التقدم والتطور ومسايرة ركب الحضارة والمدنية.. إلخ. أو مداخل الشهوات من حب الأموال والسلطة والجاه وحب الظهور، وتحقيق الرغبات الهابطة من الجنس والشراب وغيرها من ألوان الفساد والانحراف الخلقي والسلوكي، وبذلك يسهل قياده، ويضمن تحوله واستمراره ذاتياً، من

(١) مجلة البيان العدد (٢٠) عن مقال (وسائل الغزو الفكري في دراسة التاريخ) د. محمد ابن صامل السلمي.

داخل نفسه، بل قد يصبح داعية لمبادئ العدو وأفكاره، وهذه فتنة من أعظم الفتن، وقد قال -سبحانه وتعالى-: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة:٢١٧].

إن الصراع بين المسلمين والكفار دائم ومستمر، وقد جرب عدونا سلاح القوة مراراً، فما أجدى له نفعاً، مما جعل قادتهم يفكرون في وسيلة أخرى وميدان آخر للصراع، ولقد أدركوا أن السر في صلابة المسلمين وتفوقهم هو في إسلامهم؛ ولذا حولوا ميدان الصراع من حرب المسلمين ذاتهم إلى حرب العقيدة الإسلامية، وبهذا تغيرت ملامح المعركة، فلم يعد ميدانها الرئيس الأرض ولكنه الأدمغة والعقول، ولم تعد وسيلتها السيف بل الفكر، ولم تعد جيوشها الأساطيل والفرق العسكرية ولكنها المؤسسات والمناهج بالدرجة الأولى[١].

ويذهب بعض المفكرين الإسلاميين إلى إطلاق «الاستعمار النفسي» «الاستعمار عن بعد» على هذا النوع من الغزو، يقول الدكتور ماهر عباس جلال: (إن الاستعمار النفسي استعمار جديد يعمد إلى استعمار النفوس والأفئدة بدلاً من استعمار الأرض، وذلك أن السيطرة على النفوس والعقول والأفئدة يعني السيطرة على كل شيء، فتكاد هذه النفوس ألاّ ترى إلا بعينه ولا تسمع إلا بإذنه ولا تفكر إلا بعقله.

(١) انظر: (العلمانية) للدكتور سفر الحوالي (ص٥٣٥).

لقد أدرك هذا الاستعمار أهمية وسائل الإعلام في عصر من يمتلك فيه هذه الوسائل يمتلك العالم، فلا عجب إذن إذا علمنا أن هناك حوالي (١٢٠) وكالة إعلام دولية في العالم منها (٣٠) وكالة أمريكية لها قرابة (٢٠٠) فرع توكيل في العالم العربي، وميزانية هذه الوكالات وحدها تعادل الميزانية المخصصة للتعليم في البلاد العربية، والإعلام الغربي عامة يمثل أكثر من (٩٠٪) من الإعلام العالمي.

سيطرة اليهود على الإعلام الأمريكي:

والجدير بالذكر أن اليهود يسيطرون على الإعلام الأمريكي، سواء فيما يتعلق بالشبكات التليفزيونية، مثل شبكة (CNN)، وشبكة (ABC)، وشبكة (CBS)، أو فيما يتعلق بالصحف؛ حيث يمتلك اليهود أكبر ثلاث مؤسسات صحفية أمريكية مؤثرة هي: (نيويورك تايمز)، و(واشنطن بوست)، وصحيفة (وول ستريت جورنال)، أو فيما يتعلق بالمجلات الأسبوعية؛ حيث يمتلك اليهود أهم هذه المجلات وهي: مجلة (التايم)، ومجلة (نيوزويك)، ومجلة (يو إس نيوز).

وإذا تساءلنا: ما دور وكالات الأنباء العربية والإسلامية في الساحة الإعلامية؟ فالإجابة تبدو مخزية؛ وذلك أن هذه الوكالات العربية والإسلامية تعمل من الداخل لصالح وكالات الأنباء الأجنبية، خاصة الوكالات الخمس الكبرى التي تحتكر الأخبار والمعلومات بنسبة (٨٠٪)، وهي: (رويتر)، و(أسوشيتد برس)، و(يونايتد برس إنتر ناشيونال)،

ووكالـة الأنبـاء الفرنسـية، ووكالـة (تاس) الروسـية، ولا تجـد وكالات الأنباء العربية والإسلامية أمامها إلا أن تعتمد عليها)[١].

ذكـر بعض مظاهـر الغزو الفكـري الموجه لعقيـدة التوحيد وأصول الشريعة وأحكامها

أولاً: التهوين من عقيدة الولاء والبراء، وتشويهها وتسليط معاول الهدم عليها.

تقـوم عقيدة الولاء والـبراء على الولاء لله ﷻ بتوحيـده في العبادة لا شريـك له، والولاء لرسـوله ﷺ بتوحيـده من الاتبـاع والتشريع، ومحبته ونصرتـه، والـولاء للمؤمنـين بالنصرة والمحبـة، كما تقوم عـلى ما يقتضي هـذا الولاء من البراءة من الشرك والمشركين والكفر والكافرين، والنفاق والمنافقـين، وبغضهم ومفارقتهم، وهذا هـو حقيقة كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، وهـذا هـو حقيقة دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسـلام- وفي مقدمتهـم خليـلا الرحمـن نبينـا محمـد ﷺ وإبراهيم إمـام الحنفـاء -عليه الصـلاة والسـلام-، والـذي أمرنا الله ﷻ بالاقتـداء به في قوله سـبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ...﴾ الآية [الممتحنة:٤].

ولقـد علم أعداء هذا الدين أن هذه العقيدة هي أصل دين الإسـلام والحاجـز المنيع الـذي يحول بين الكفر وأهله، وبـين اختراقهم لمجتمعات

(١) مجلة البيان العدد (١٦٣).

المسلمين، فما فتأوا يسلطون عليها معاول الهدم والشكوك والشبهات على طول تاريخ المسلمين، ولكنها والحمد لله باءت بالفشل بفضل تمسك المسلمين بهذه العقيدة حتى عصرنا الحاضر، فاشتد هجوم الكفار وغزوهم الفكري لبلاد المسلمين بشتى الوسائل، ولاسيما ما يشهده عصرنا من ثورة إعلامية هائلة سخروها لبث الشبهات ولبس الحق بالباطل، وبدأت تظهر آثار ذلك في مجتمعات المسلمين، وساعدهم في ذلك أناس من أبناء جلدتنا، إما عن جهل، أو خبث، وكره للإسلام وأهله، ومن طروحات هذا الغزو في هدم عقيدة الولاء والبراء ما يلي:

١ - **الإنكار على من يتبنى روح الكراهية والبغضاء للكفار**، وأن هذا يتناقض مع روح التسامح الديني والتعايش السلمي الذي هو سمة العصر الحاضر عصر السلام والإخاء بين الناس!! زعموا. بل ذهب أصحاب هذه الدعوات إلى أن ينسى مصطلح الكفر والكافرين، وأن يحذف من قاموس التعامل بين المسلمين وغيرهم، ويستبدل بمصطلح (غير المسلمين) أو (الآخر) لأنها مصطلحات حضارية، بينما مصطلح الكفار وبغضهم والبراءة منهم إنما هي علم على المتطرفين الأصوليين من المسلمين!! ولست في هذا المبحث بصدد الرد على هذه الدعوات الباطلة، فمحل ذلك سيأتي -إن شاء الله تعالى- في فصل قادم، ولكن المراد هنا عرض شبهاتهم وطروحاتهم المتهافتة الباطلة.

٢ - **استخدام معول (الوطنية) (والقومية) لهدم عقيدة الولاء والبراء** القائمة على أساس التوحيد وعبادة الله ﷻ وحده. وجعلهم الوطن

الواحـد والجنس الواحد هو أساس الحـب والنـصرة، وإن اختلف أهل هذا البلد في العقيدة، حيث تحل رابطة الوطن والقوم محل عقيدة التوحيـد المستلزمة؛ لأن يكون عقد الولاء والبراء على أساسـها بين أبناء المجتمع المسلم، بينما هم يريدون أن يجعلـوا الانتماء إلى الوطن الواحـد هو معيار الولاء والمحبة والنصرة لكل من يعيش تحت مظلة الوطـن الواحـد، ولو كان مشركاً وثنيـاً، أو منافقاً زنديقـاً أو رافضياً باطنيـاً، وجعله المكرم المقدم على مـن ليس من أبناء الوطن، ولو كان مسلماً صالحاً تقياً.

وقد اسـتخدم الغـزاة وسـائل مختلفة لتشـويه عقيدة الـولاء والبراء بمفهوم الوطنية والقومية، واستخدموا أولياءهم من المنافقين في كل بلد؛ لتكريـس هذه الأفكار، ولاسيما من بأيديهم وسـائل التوجيـه في التعليم والإعلام، بل إن بعض السـذج من المسـلمين قد ساهم بلسانه أو قلمه في تكريس هذا الانحراف، فكثرت الكتابة عن المواطنة في الإسلام، والمواطنة عند رسـول الله ﷺ، وأن المواطنة مبدأ إسـلامي أصيـل، وحتى يظهر لنا الخطـر الكامن في مفهـوم (الوطنية) وأثرها في عقيدة الولاء والبراء، أنقل بعض ما كتبه د. أحمد محمود السـيد عـن (فقه المواطنة وأصولها الغربية في الجاهليـة المعاصرة) حيث يقول: (يعرف قاموس المصطلحات السياسـية «المواطنة» بأنها: مكانة أو علاقة اجتماعية تقوم بين شـخص طبيعي، وبين مجتمع سـياسي (الدولـة)، ومن خلال هـذه العلاقة يقـدم الطرف الأول الـولاء، ويتولى الطرف الثاني الحماية، وتتحدد هذه العلاقة بين الشـخص

والدولة بالمساواة أمام القانون (الوضعي) في ظل هيمنة الدولة القومية.

والمواطنة كمفردة من مفردات النظام السياسي الغربي -الذي انتشر في أوربا، ومنها إلى أمريكا ثم بقية أنحاء العالم بعد ذلك- ترتكز على مجموعة عناصر أساسية أهمها:

١- إحلال عبادة الوطن وتقديمها على عبادة الله وحده.

٢- إعلاء وتقديم الولاء للدولة على أي ولاء آخر حتى ولو كان الدين.

٣- إحلال الرابطة القومية محل الرابطة الدينية كأساس لتجانس الجماعة السياسية.

٤- تحويل الفرد من مقولة دينية إلى مقولة سياسية.

٥- فصل العلاقة السياسية عن العلاقة الدينية.

٦- صبغ الوجود الديني بطابع النسبية والذاتية.

٧- رفض تدخل رجال الدين في كل ما له صلة بالسلطة الزمنية.

٨- إطلاق التسامح الديني، وحرية الاعتقاد طالما أنه لن يتدخل في شؤون الحكم.

٩- الحرية هي القيمة العليا التي تعلو على سائر القيم بما فيه حرية الارتداد عن الدين..)[1].

وموضع الرد على دعاة الوطنية في فصل قادم -إن شاء الله تعالى-.

---

(١) نقلًا عن موقع (أنا مسلم) باختصار وتصرف يسير.

٣- **الدعـوة إلى (الإنسـانية)** والدعوة إلى الإنسـانية دعـوة خبيثة غرضها هـدم عقيـدة الولاء والـبراء على أساس التوحيد، وذلـك بأن يكون الإخاء والمحبة هي السـائدة بين بني البشرية والإنسـانية بغض النظر عـن معتقداتهـم ونحلهـم. يصف الأستاذ محمد قطـب -حفظه الله تعالى- هذه النحلة بقوله:

(الإنسـانية -أو العالمية كما يدعونها أحيانـاً- دعوى براقة، تظهر بين الحـين والحين، ثم تختفي لتعـود من جديد! يا أخي! كن إنسـاني النزعة.. وجـه قلبـك ومشـاعرك للإنسـانية جمعـاء.. دع الديـن جانبـاً فهـو أمـر شـخصي.. علاقة خاصة بين العبد والرب محلهـا القلب.. لكن لا تجعلها تشكل مشاعرك وسلوكك نحو الآخرين الذين يخالفونك في الدين.. فإنه لا ينبغي للدين أن يفرق بين البشر.. بين الإخوة في الإنسانية! تعال نصنع الخـير لكل البشرية غير ناظرين إلى جنس أو لون أو وطن أو دين! دعوى براقـة كما ترى.. يخيل إليك حين تسـتمع إليها أنهـا تدعوك للارتفاع فوق كل الحواجـز التي تفرق بـين البشر على وجه الأرض. تدعوك لترفرف في عـالم النـور.. تدعوك لتكون كبير القلب، واسـع الأفق، كريم المشـاعر.. تنظر بعين إنسـانية - وتفكر بفكر عالمي، وتعطي من نفسـك الرحبة لكل البشر على السواء، بدافع الحب الإنساني الكبير!

إن أناساً قد يخدعون بدعوى الإنسانية لما فيها من بريق، فيؤمنون بها أو يدعـون إليها غافلين عن الحقيقـة التي تنطوي عليها. وقد لا يصدقون

أصلاً أنها دعوى إلى التحلل من الدين يبثها الشياطين في الأرض لأمر يراد..)[١].

وسيرد الرد على هذه النحلة في فصل قادم -إن شاء الله تعالى- ولكن يبقى علينا معرفة بعض أهداف هذه الدعوة الخبيثة؛ ليتضح لنا خطرها على عقيدة التوحيد وأهلها. ومن هذه الأهداف والأخطار ما يلي:

١- الخطر على عقيدة التوحيد التي صلبها الولاء لله ﷻ ولرسوله ﷺ وللمؤمنين والبراءة والبغض للشرك والمشركين، ونتيجة هذا الخطر التهوين من الكفر وأهله والكف عن ذكرهم بسوء في عقيدتهم وأفكارهم، والمساواة بين المسلم الموحد والكافر الملحد.

٢- إعادة النظر في مناهج التعليم والإعلام في بلدان المسلمين، وحذف كل ما يشير إلى عداوة الكافر ومجاهدته في سبيل الله ﷻ ، وقد بدأ هذا بالفعل في كثير من بلدان المسلمين.

٣- المطالبة بفتح الكنائس والمعابد الوثنية في بلدان المسلمين، ولاسيما في جزيرة العرب.

٤- هذه الدعوة طريق يمهد إلى تطبيع العلاقات مع اليهود والاعتراف بدولتهم على تراب فلسطين.

٥- فتح المجال للتنصير في بلدان المسلمين أسوة بالمراكز الإسلامية في ديار الكفار.

٦- حرية التدين وتغيير الدين وحرية الرأي والتفكير ولو كان بالإلحاد وسب الدين، وهذا مما يفرح به الزنادقة من الليبراليين

---

(١) «مذاهب فكرية معاصرة» (ص٥١٠).

والعلمانيين، ويغتنموه في مزيد من الإفساد وبث الشبهات والشهوات.

٧- محاصرة التوجه السلفي المستعصي على هذه الأطروحات المضللة، والتمسك بأصول السلف وعقيدتهم في التوحيد والموالاة والمعاداة عليها، ورميه بشتى التهم والسعي لاحتوائه بالترغيب أو الترهيب، وإن لم يجد ذلك فبالتصفية والزج بأهله في غياهب السجون.

٨- إلغاء شعيرة الجهاد لأنها تذكي الكراهية والعداوة بين بني الإنسان.

٤- الدعوة إلى حوار الأديان وتقاربها ووحدتها، وهذه الدعوة من ضمن المعاول التي يسعى إليها الكفرة والمنافقون وبعض جهلة المسلمين في هدم عقيدة الولاء والبراء القائمة على توحيد الله ﷻ وعبادته وحده لا شريك له. وإن هذه الدعوة اليوم تطرح بقوة وكثافة أكثر من أي وقت مضى، حيث تعقد لها الندوات والمؤتمرات ويتولى الإعلام الماكر بشتى وسائله الدعوة إليها، وتزيينها للناس بشبهات باطلة من زخرف القول، تكاد أن تنطلي بتلبيسها على كثير من جهلة المسلمين، فيا لها من غربة ما أشدها على الدين وأهله، وذلك حين تصبح أصول الدين وشعائره عرضة للجهل وإفساد المفسدين وشبهات الملبسين وتشكيك المشككين، إذ كيف تطرح هذه الدعوة الباطلة: دعوة التقارب بين ملة التوحيد التي هي ملة الرسل جميعاً، وبين ملة الشرك من الأوثان والأنداد. إنهما لا يلتقيان ولا يتحدان ولا يتقاربان أبداً، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ

أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦]، وقال سبحانه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢]، وقال سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩]، وللكفرة في طرحهم هذه الدعوة الماكرة أهداف خطيرة، يشاركهم فيها المنافقون من بني جلدتنا، وقد يجهلها كثير من ببغاوات المسلمين، ومن هذه الأهداف:

١- باعث الصد عن سبيل الله ﷻ وبخاصة دين الإسلام الذي رأى الغرب أبناءه يدخلون في الإسلام زرافات ووحداناً، فأرادوا التلبيس على شعوبهم بأن الفروق بين الأديان فروق شكلية، كلها تؤدي إلى عبادة رب واحد فلا حاجة للتغيير.

٢- باعث هدم أصول الدين الإسلامي وثوابته، وبخاصة أصل الولاء والبراء الذي يقتضي تكفير الكافر وبغضه والبراءة منه ومن كفره، وهذا غاية ما يسعون إليه في هذه الدعوات الماكرة، وبخاصة في هذه الأزمنة المتأخرة التي استيقظ فيها المسلمون، ورأوا صوراً صارخة من عداء الكفار وعدوانهم وحقدهم على الإسلام وأهله.

٣- باعث التنصير حيث طرح مجلس الكنائس العالمي أن الحوار وسيلة مفيدة للتنصير؛ لأنه وسيلة لكشف معتقدات وحاجيات الآخر، وهي نقطة البداية الشرعية للتنصير.

٤- إسـقاط جوهر الإسلام واسـتعلاؤه وظهوره وتميزه بجعل دين الإسـلام المحكـم المحفـوظ مـن التحريـف والتبديـل في مرتبة متسـاوية مـع غيره مـن كل دين محرف ممسـوخ، بل مـع العقائد الوثنية الأخرى.

٥- الاعتراف بأديانهم واحترام عقائدهم، وتجنب البحث في المسائل العقدية الفاصلة للحفاظ على استمرار الحوار.

٦- الدعـوة إلى نسـيان الماضي التاريخي والتخلص مـن آثاره، كالذي حصـل من الصليبيين في حروبهم الصليبية، وما قاموا به من ظلم وتقتيل وتشريد للمسـلمين. والدعوة إلى فتح صفحة جديدة بين الأديان يسـودها السـلام والعدل والتسـامح بزعمهم. ولا يخفى على اللبيب خبث هـذه الدعوة وما وراءها، ولكنها لا تنطلي على المسـلم الواعي لعقيدته الواعـي لتاريخه الواعـي لواقعه المعاصر الـذي يمارس فيه هـؤلاء الكفـار الذين يدعوننا إلى الحوار شـتى صـور القتل والتعذيب والتشريد في بلدان المسـلمين، ويكفينا ما يدور الآن في العراق وأفغانستان وفلسطين والصومال من الغرب الصليبي اليهودي الذي تتولى كبره أمريكا الطاغية الكافرة.

وسيأتي الرد على هذه الدعوة في فصل قادم -إن شاء الله تعالى-.

٥- **الدعوة إلى التسامح الديني ونبذ التعصب**: وهذه من حججهم الباطلة التـي ينادي بها أهل المكر من الكفـرة والمنافقين؛ ليمرروا دعوتهم إلى الإنسـانية وتقـارب الأديان، وهـدم عقيدة الولاء والـبراء. إن الذين

يحاولون تمييع المفاصلة بين المسلمين والكفار بحجة التسامح الديني يخطئون في فهم دين الله الحق، وفهم الأديان المخالفة. كما يخطئون في فهم المعنى الصحيح للتسامح في الإسلام، فهم يفهمونه بفهم الغرب الكافر وأتباعهم من المنافقين، حيث يريد الأعداء الكفرة أن يتسامح المسلمون بتركهم عداوة وبغض الكافر، وأن يتقبلوا العدوان عليهم؟؟ واحتلال ديارهم، وأن يستسلموا للأعداء، أما العدو الكافر فلا حسيب على عدوانه وحقده وكرهه للمسلمين؛ لأنه جاء -بزعمه- لنشر الحرية والعدل والديمقراطية والسلام!!! ومع ذلك نرى من بني جلدتنا من يردد مثل هذه الادعاءات، ولا ندري هل هذا جهل منهم أو خبث وسوء طوية؟

وسيأتي مناقشة هذه الدعوة الباطلة والرد عليها في فصل قادم -إن شاء الله تعالى-.

٦- محاربة التوجه السلفي ومحاولة استبداله بمناهج وأفكار أخرى مناوئة له كالصوفية. يجلي الأستاذ أحمد فهمي خطط هذا الاستبدال بقوله:

(يقوم مفهوم الاستبدال على قيام جهات الضغط الغربية -بطرق غير مباشرة غالباً- بتحفيز وتشجيع تيارات ومناهج أخرى؛ لكي تقوم كبديل للمنهج السلفي في الدول الإسلامية، وتتركز فكرة الاستبدال على وجود رغبة عامة وعارمة لدى الجماهير في التدين.

وانبعاث هذه الفكرة -التبديل بين أنماط التدين- في العقلية الغربية وتناميها لدرجة القناعة، يدل على تطور خطير في نظرتهم وتفسيرهم

للسلوك الديني للمسلمين، وقد كانت الفكرة القديمة تنحصر في تجفيف منابع التدين واستبدال الدين بأفكار علمانية براقة، ولكن مع فشل هذه الفكرة، بدأ الكثيرون ينتقلون إلى مرحلة لاحقة، وهي: فلندع المسلمين يتدينون كما يريدون، لكن فلنقدم لهم نحن (التوليفة) المناسبة للتدين.

وتكمن خطورة السلفيين بالنسبة لخصومهم في أنهم يقودون الناس في قطار سريع يصلهم مباشرة بين الواقع ومصادر التشريع، أما غيرهم من التيارات فيأخذون الناس في جولة سياحية تطول وتقصر بحسب المنهج، وأحياناً تتحول الرحلة بمجردها إلى هدف منشود.

والعناصر الرئيسة المتضمنة لـ (توليفة) التدين الأمريكية:

١- رموز ودعاة مستقلون يقدمون نمطاً متطرفاً في تسامحه واعتداله؛ ليبرز النمط السلفي للتدين على أنه متطرف في فهمه وتمسكه بتعاليم الإسلام.

٢- غطاء وحاجز سياسي توفره التيارات السياسية التي تنظر للتيارات السلفية على أنها معوق لتقدمها السياسي كما أنها على استعداد لتقديم تنازلات دينية في سبيل تحقيق مكاسب سياسية.

٣- الربط الوثيق بين السلفية العلمية والدعوية وبين السلفية الجهادية، بحيث يصبح الجميع منهجاً واحداً متعدد المراحل أو المستويات.

٤- إفساح المجال في عدد من البلدان الإسلامية لدعاة التصوف، وخاصة الذين طوروا خطابهم في مرحلة ما بعد (١١ سبتمبر)،

والذي يقفزون فيه على كل ما يثير الغرب في الإسلام، ويقدمون صياغة جديدة قابلة للتسويق في الثقافة الغربية. ونقدم تفصيلاً أكثر لعنصري دعاة الاعتدال والمتصوفة الجدد:

الأول: دعاة الاعتدال

وقد بدأ نجمهم في البزوغ في السنوات الأخيرة، وخاصة بعد (١١ سبتمبر)، وأهم صفتين تمثلان جواز المرور لهذه الفئة من الدعاة أنهم يتجاوزون نقاط الاختلاف الساخنة مع الغرب، ويقفزون على قضايا الولاء والبراء والقضايا العقدية إجمالاً، كما أنهم لا يرتبطون غالباً بأي انتماءات لجماعات إسلامية عليها علامات استفهام غربية.

الثاني: المتصوفة الجدد

ونحتاج إلى بعض التفصيل لهذا العنصر نظراً لأهميته وخطورته على الدين الحق، وهناك دلائل كثيرة تشير إلى أن السياسة الأمريكية باتت تنظر إلى الصوفية «المعدلة» على أنها يمكن أن تمثل بديلاً مناسباً للتدين لدى عامة المسلمين، ونذكر فيما يلي بعض هذه الدلائل:

* في عام (٢٠٠٣م) عقد مركز نيكسون للدراسات في واشنطن مؤتمراً عنوانه «فهم الصوفية والدور الذي ستلعبه السياسة الأمريكية»، وكان من أبرز الحضور الدكتور برنارد لويس، وهو من أبرز الناقمين على الإسلام، والدكتور كوركوت أوزال شقيق الرئيس التركي الأسبق تورجوت أوزال، ومحمد هشام قباني رئيس المجلس الإسلامي الأمريكي.

* ووزع في المؤتمر دراسة بيانية توضح الجماعات والمذاهب الإسلامية والمنتمين إليها، وجاء فيها أن مجموعة السلفية هم الذين ينتمون إلى مدرسة ابن تيمية، وأطلقوا عليها (مجموعة الإسلام السياسي)، ووضعوها داخل دائرة حمراء، واعتبروا من بينها: الوهابية -الجماعات الفلسطينية الإسلامية- الجماعات الإسلامية السلفية، جماعة التبليغ، حزب التحرير.

* يعد المجلس الإسلامي الأمريكي الصوفي الذي أسسه هشام قباني مصدراً مهماً للمعلومات لدى الإدارة الأمريكية عن الإسلام والمسلمين، وكان بول وولفويتز مساعد وزير الدفاع الأمريكي السابق يعقد لقاءات دورية مع أعضاء المجلس للتشاور معهم حول قضايا الإرهاب الإسلامي»[1].

٧- **إثارة الشبهات التي تدعو إلى الشرك الأكبر والسحر والتنجيم في كثير من الكتب والمجلات والمواقع والقنوات الفضائية.**

٨- **إغراق أسواق المسلمين بأنواع من الأثاث والملابس والأدوات التي تحمل شعارات الكفار**؛ كالصليب، وعبدة الشيطان، وصور الفنانين والرياضيين الكفرة، يحملها أبناء المسلمين على ظهورهم وصدورهم من غير نكير.

ثانياً: إثارة الشبهات حول شعيرة الجهاد في سبيل الله ﷻ وتشويه صورته وأهله

لم يقض مضاجع المشركين والكفار والمنافقين شيء أشد عليهم من شعيرة الجهاد عند المسلمين، ولذلك ما فتأوا في قديم الزمان وحديثه

---

(١) موقع المختصر باختصار.

يثيرون عليه الشبهات، ويسلطون عليه معاول هدمهم محاولة منهم في إلغائه والتنفير منه، وهيهات لهم هيهات. فمع كل المحاولات التي بذلها المستشرقون في الغرب الكافر والشرق الملحد إلا أنها باءت بالفشل، وما زاد المسلمون إلا حباً لهذه الشعيرة ورفعاً لرايتها، دفاعاً عن الدين والنفس والمال والعرض، ونشراً للتوحيد والأمن والخير في البشرية التي تعاني من ويلات الكفر وظلماته ومظالمه.

ولقد زاد سعار الكفار واشتد حربهم لهذه الشعيرة في واقعنا المعاصر، حيث يقظة المسلمين وصحوتهم ورفعهم لراية الجهاد في صد عدوان الغزاة الكافرين.

ومن شبهاتهم التي يطرحونها وصفهم للجهاد بأنه حرب مقدسة عند المسلمين، هدفها سفك الدماء وقتل الأبرياء وإرهاب النفس وإرعابهم، وسلب أموال الناس وخيراتهم. ولذلك فهم يطرحون الدعوات السابق ذكرها كالدعوة إلى التسامح والتعايش السلمي والدعوة إلى تقارب الأديان وإلى الإنسانية التي تجمع الناس وتنشر بينهم السلام والإخاء والأمان.

يقول محمد قطب –رحمه الله تعالى–: (إن أشد ما يخشاه أعداء الإسلام من الإسلام هو روح الجهاد الكامنة فيه، «ودعوى الإنسانية» من أسلحة الحرب الموجهة ضد روح الجهاد عند المسلمين.

يا أخي! لقد تغيرت الدنيا! لا تتكلم عن الجهاد! أو إن كنت لابد فاعلاً فتكلم عن الجهاد الدفاعي فحسب! ولا تتكلم عنه إلا في أضيق الحدود! فهذا الذي يتناسب اليوم مع «الإنسانية المتحضرة»! لقد كانت

للجهاد ظروف تاريخية وانقضت! أما اليوم فقد أصبحت الإنسانية أسرة واحدة! وهناك قانون دولي وهيئات دولية، تنظر في حقك، وتحل قضاياك بالطرق «الدبلوماسية»! فإذا فشلت تلك الهيئات في رد حقك المغتصب، فعندئذ لك أن تقاتل دون حقك ولكن لا تسمه جهاداً!.. فالجهاد قد مضى وقته! وإنما سمه دفاعاً عن حقوقك المشروعة!!

أما نشر الدعوة فإياك أن تتحدث فيه عن الجهاد! هناك اليوم وسائل «إنسانية» لنشر الدعوى فاسلكها إن شئت.. هناك الكتاب والمذياع والتلفاز والمحاضرة والدروس.. إياك أن تتحدث عن الجهاد فتكون مضغة في أفواه المتحضرين)[1].

ومع ما في القرآن الكريم والسنة النبوية من بيان كافٍ لهذه الشعيرة العظمية، وعظيم فضلها وأثرها وأهدافها، إلا أن قوماً من بني جلدتنا إما عن خبث وكيد، أو عن جهل وغفلة واجهوا هذه الحملة الاستشراقية الصليبية بمواقف انهزامية فراحوا يدافعون عن الإسلام وكأنه في قفص الاتهام، فقالوا: إن غاية الجهاد في الإسلام دفاعية فحسب، وليس للإسلام رغبة في قتال الكفار، لولا أنهم بدأوا بقتال المسلمين، وليس من هدف الجهاد نشر الإسلام وإخضاع البلدان الكافرة لحكم الإسلام، فانطلت شبهات الكفرة عليهم، بل ذهب بعضهم ولاسيما من المنافقين خبثاء الطوية إلى تعطيل جهاد الدفع، وزعموا أنه جهاد فتنة، وأن من ذهب ليجاهد بنفسه دفاعاً عن المسلمين الذين احتلت ديارهم إنما هو متهور مفتون!!

---

(١) «مذاهب فكرية معاصرة» (ص٥١٢) وما بعدها (باختصار).

وللرد على شبهات المشبهة حول الجهاد وأهدافه موطن آخر في فصل قادم -إن شاء الله تعالى-.

ثالثاً: تشويههم للتاريخ الإسلامي على أيدي المستشرقين والمنافقين من الباطنيين والعلمانيين

يصف الدكتور محمد بن صامل السلمي ما تعرض له التاريخ الإسلامي من الغزو الفكري والتشويه، فيقول:

(لقد تعرض التاريخ الإسلامي لأكبر قدر من **الغزو الفكري**، وركز الأعداء على تشويه تاريخ الأمة الإسلامية، ذلك أن التاريخ -بالنسبة لأي أمة- هو مجال اعتزازها وموطن القدوة فيها. فإذا كان تاريخ الأمة حافلاً بالأمجاد -كما هو واقع تاريخ المسلمين- فإنه بلا شك سيكون باعثاً لهم على النهوض والتمسك بالمبادئ والآداب والقيم التي جعلت الأجداد يحرزون هذا المجد والفخار، ويصلون إلى هذا المستوى الراقي في بناء الأمة والحضارة، ويبحثون عن السر الذي رفعهم إلى هذا المستوى، وأنه إيمانهم بالله وتمسكهم بدينهم وجهادهم في سبيل الله ومن ثم يسعون جاهدين لانتشال أنفسهم من الموضع المتردي الذي وصلوا إليه، وأمامهم الصورة الجلية. والقدوة الممتازة في شخص رسولنا ﷺ الذي أخرج الله به الأمة من الظلمات إلى النور، ومن الشرك والأهواء وتحكم الطواغيت إلى التوحيد والعدل والأمن والطمأنينة، ومن الفقر وضيق الحال والشتات إلى الغنى وسعة الدنيا والآخرة والاعتصام بحبل الله، وكذا أصحابه رضي الله عنهم

الذيـن حملـوا الرايـة وآزروه ونصروه، وأيضـاً بقية الأجيال من السـلف الصالح من العلماء والزعماء والقادة والمصلحين والدعاة إلى الحق.

والنـماذج الممتـازة في التاريخ الصالحة للقدوة ليسـت أفـراداً يمكن حصرهـم، ولكنهـم أجيـال وأجيال، في مجـالات الحياة كافة، العسـكرية والسياسية والتربوية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية وهذا لا يوجد في تاريخ أي أمة أخرى لما لهذه الأمة من خاصية الاستمساك بالمنهج الرباني.

والتاريخ الإسـلامي هو الذي يسجل هذه الصور السامقة ويوضح دور الأمـة وأثرهـا وفضلها عـلى البشرية، ولذلـك لا نسـتغرب إذا ركز الأعـداء في غزوهـم الفكري على التاريخ الإسـلامي حتـى ناله كثير من التشـويه والتحريـف والتجهيـل والتزييـف والتفسـير الخاطـئ لأحداثه ومزاحمتـه بتواريخ الأمم الجاهلية، حتى يبـدو حلقة صغيرة أو كماً مهملاً في تاريخ البشرية.

ولقـد قام على تشـويه التاريخ الإسـلامي في العـصر الحديث جيش بل جيوش من الاسـتشراق والتنصير ودوائر البحث ومكاتب المخابرات في الـدول الغربيـة، واسـتطاعوا أن يجنـدوا مجموعة من ضعـاف النفوس والمغروريـن والجهلـة وضحايـا **الغـزو الفكـري** في العـالم الإسـلامي؛ لمساعدتهم ونشر أفكارهم بين المسلمين.

ونذكر فيما يلي بعض الوسائل التي استخدموها:

١ - اختلاق الأخبار وإبراز المثالب:

وهذه أولى الوسائل التي استخدمها المستشرقون والمنصرون لتشويه صورة الحياة الإسلامية، وعقيدة المسلمين وسيرة رسولهم ﷺ، حتى ينفّروا أبناء جلدتهم من الدين الإسلامي، ويصورون المسلمين بأنهم وحوش وسفاكو دماء، وأنهم يعيشون حياة تخلف وهمجية، ويضعون قصصاً وحكايات تؤيد ما يقولون، كما أنهم يسعون إلى تسقط الأخطاء وجمع المثالب وإبرازها على أنها الصورة المعبرة عن تاريخ المسلمين، وهذه الوسيلة كانت غالبة على الكتابات الأولى للمستشرقين الذين كتبوا عن الدين الإسلامي وعلومه وسيرة النبي ﷺ وتاريخ المسلمين، سواء كانت مؤلفات أو مقالات في المجلات التي أنشأها المستشرقون في مختلفي الدول الأوربية (هولندا - روسيا - ألمانيا - بريطانيا - فرنسا - أمريكا - إيطاليا) أو في دوائر المعارف العامة.

وقد قل استخدام هذه الوسيلة في الكتابات المؤخرة، لا إنصافاً للحقيقة وإنما تغييراً في الخطة، لأن الوسيلة الأولى لم تعد صالحة ولا مقبولة حتى في المجتمعات الغربية.

ومن اطلع على كتب القوم وما تكتبه المجلات الصادرة عنهم ودوائر المعارف يجد ذلك واضحاً، وهذا مثل واحد من أخف الأمثلة (كارل بروكلمان) - المستشرق الألماني الذي يعد حجة عندهم، بل عند بعض الباحثين المسلمين، ويعدونه من المعتدلين، وقد يبالغ البعض فيعتبره من المنصفين في كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية)- ولكن إذا قرأت في هذا

الكتاب رأيت العجب العجاب، ورأيت التشويه، بل رأيت الجهل الثقيل ورأيت الكذب الصريح. يقول في (ص٣١): «الكعبة بناء ذو أربع زوايا يحتضن في إحداها الحجر الأسود، ولعله أقدم وثن عُبد في تلك الديار، وكانت الكعبة تضم تمثال الإله القمري هُبَل، بالإضافة إلى الآلهة الثلاثة المعبودة (اللات والعُزى ومناة)».

وقوله هذا إما جهل حقيقي وإما كذب وتزوير، ولا أظنه يجهل موقع العزى واللات ومناة، وهو يبحث في كتب الجغرافيا والبلدانيات الإسلامية التي تحدد مواقع تلك الأصنام.

وفي (ص٨٥) وهو يتحدث عن مسيلمة وسجاح يقول: (ففيما كان محمد لا يزال على قيد الحياة ظهر في تلك البلاد رجل اسمه (مسلمة) وقد دعاه المسلمون مسيلمة من باب التصغير الذي يقصد به التحقير، وادعى النبوة).

وهذه فرية ما سبقه إليها أحد، ولا ضير أن ينتصر للكذاب المتنبئ؛ لأن الكفر ملة واحدة، ومعلوم عناية العرب بعلم الأنساب وبالأسماء وكل ما لدينا من كتب النسب والتراجم لا تذكره إلا باسم مسيلمة، فمن أين جاء هذا الأفاك بهذا الاسم؛ وقد جاء خبره واسمه في «صحيح البخاري»[١] من قول -الذي لا ينطق عن الهوى- ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما أنا نائم رأيتُ في يديَّ سوارين من ذهبٍ، فأهمني شأنهما، فأوحي إليَّ في المنام أن أنفخهما، فنفختهما فطارا، فأوَّلتهما كذابين يخرجان بعدي أحدهما العنسي والآخر مسيلمة**».

(١) البخاري (رقم ٣٦٢١) ومسلم (رقم ٢٢٧٤).

كما أن مسيلمة قد كتب إلى النبي ﷺ كتاباً يقول فيه: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله[١]، فهو أعلم باسمه من هذا المستشرق، ثم إن الاسم -سواء كان مكبراً أو مصغراً- لا يحكي الحقيقة ولا يحكم على الشخص من خلاله، وإنما الحقائق والأحكام من المواقف والإيمان أو الكفر.

والحقيقة أن ما كتبه عن الرسول ﷺ وتشريعات الإسلام وتاريخ الخلفاء الراشدين يمثل قمة السوء والحقد، فقد رمى النبي ﷺ بكل نقيصة...[٢].

٢- استخدام المنهج العلماني (اللاديني) في البحث والنقد:

وهذا من أخطر الوسائل وأعظم المنجزات التي حققها دعاة **الغزو الفكري**، وتمكنوا من تقريرها في كثير من جامعات العالم الإسلامي ومراكز البحث العلمي، ولهذا المنهج آثار سيئة على تراث المسلمين ودينهم؛ لأنه قائم على أسس من الفلسفة الوضعية التي تنكر الوحي والنبوات، ولا تقيم وزناً للمنهج الرباني، ومن عجب أن يدعي أصحابه الموضوعية والحياد العلمي، مع كونه غير شرعي وغير علمي، أما كونه غير شرعي فأمر لا يحتاج إلى دليل، أما كونه غير علمي فقد ثبت بالاستقراء والتتبع لما يكتبونه عن التاريخ والثقافة الإسلامية أنه يقوم على الأسس الآتية:

---

(١) «البداية والنهاية» (٥/ ٥١).
(٢) ولكن أين هم من قوله ﷻ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر:٩٤-٩٥].

أ- العمل على إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها مسبقاً حسب أهوائهم، ثم التحكم فيما يرفضون من النصوص المضادة لها بمجرد الهوى، بل قد يصل الأمر ببعضهم إلى تحريف النصوص عندما يعجز عن تفسير النص على ما يريد، وانظر أمثلة هذا عند ولهاوزن، وكيتاني، ولامانس، وجولد تسيهر، وفيليب حتى، وكارل بروكلمان.

ب- الضعف العلمي وقلة الإحاطة بمصادر الثقافة والتراث الإسلامي الأساسية، لذلك تأتي آراؤهم وأحكامهم ناقصة الأدلة الصحيحة من النص أو الاستقراء.

ج- الجهل بمراتب المصادر العلمية أو تجاهل ذلك، ومن هنا يتحكمون في المصادر التي يختارونها، فتجدهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث النبوي، وينقلون من كتب التاريخ ما يحكمون به في الفقه، ويصححون ما ينقله الدميري (مثلاً) في كتاب حياة الحيوان، ويكذبون بما يرويه الإمام مالك في «الموطأ»، ويهاجمون «صحيح البخاري»، ويمجدون كتاب «الأغاني».

د - فقدان الأمانة العلمية تجاه المباحث الإسلامية...

٣- التفسير الخاطئ والفهم العجيب للنصوص:

وهذا راجع إما للجهل حقيقة -هو أمر غير مستبعد- وخاصة أن جل المستشرقين لا يكادون يدركون معاني الألفاظ العربية ودلالتها،

ولا يحيطـون بكتب العلـم والثقافة الإسـلامية، فيقعـون نتيجة لذلك في أخطـاء فاضحة، وإما تعمداً، وهذا نابع من الحنق على المسـلمين والعداء لهم، وإننا نلحظ هذا التفسـير الخاطئ في كتابات المستشرقين عن كثير من القضايا الإسـلامية مثل الجهاد والرق، ومكانة المرأة في الإسلام، والنظام السـياسي والاقتصادي والاجتماعي والمذاهب والفرق الإسلامية.. إلخ؛ لأن مثـل هـذه القضايـا لا تفسر بنـاء على الوقائـع التاريخيـة وحدها، بل لابـد للكتابـة فيها من معرفة الأحـكام الشرعية وأصول التفسـير والفقه وقواعـد الشريعة، لأن معرفة هـذه الأصول أمر لازم لمن يحلل النصوص التاريخيـة عـن هـذه القضايا ويفسرهـا، وهـذا الجانب من المعرفـة مفتقد -مع الأسـف- عند عامة من كتبوا في التاريخ الإسلامي من المعاصرين، سـواء من المستشرقين أو المتخصصين في التاريخ من أبناء المسلمين، وهذا راجـع إلى الفصـل القائم في كثـير من دور العلم بين الدراسـات الشرعية والدراسات التاريخية.

ومـن المعلـوم أن التاريـخ ليـس هو الحـدث وحده، بل هـو الحدث وتفسـيره والحدث وباعثه، ولاشك أن العقيدة تأخذ جانباً كبيراً في تحديد البواعث والأهداف..

٤ - الاعتماد على مجرد الهوى في النقد والتحليل للحوادث التاريخية:

إن نقد الأخبار يخضـع لمقاييس وضوابط علمية قررها العلماء الذين كتبوا في هذه المجالات مثل علماء الأصول وعلماء الجرح والتعديل وعلماء المنطـق، ولابـد من الالتزام بهـذه الأصول في نقد الأخبـار، إذ لا يجوز رد

الأخبـار لمجـرد عـدم قبول الإنسـان لهـا وانشراح نفسـه لما تـدل عليه أو عـدم تذوقه لمثل هذه الأخبـار، لأن الحكم بالذوق والهوى وعدم الموافقة الشخصية لا يجوز أن يدخل في ميدان العلم، وإنما هذا بميدان الأدب وما شـاكله أليق لخضوعها للعاطفة والتذوق الشخصي، أما الأخبار التاريخية فإنهـا وقائع عـن حقائق، ولابد أن تنقد على أصول نقـد الحقائق العلمية، ومن الأمثلة على هذه الوسـيلة ما نجده عند كثير من المسـتشرقين وبعض من تأثر بهم مع ادعائهم مناقشـة القضايا بمنطق العقل والعلم، ولكن إذا فتشـت في كتبهـم وجدت أن ذلـك مجرد دعوى لا دليل عليهـا بل الواقع يناقضهـا، وأن نقدهـم للنصـوص والأخبار هو بمجرد الهـوى والتذوق والميل الشخصي.

٥- عرض جانب من الحقيقة، ووضع الخبر في غير سياقه الصحيح:

وذلك أن التاريخ إذا عرض جانب منه وأخفي الجانب الآخر، فإنه لا يعطي الصورة كاملة بل يشـوهها، وخاصة إذا أخذت الصورة الضعيفة، وجمعت النقاط السـود، فمثلاً إذا ركزنا في دراسـة التاريخ الإسلامي على عـرض جانـب الأحـداث الداخليـة، والحياة السياسـية، وقيـام الحكام، وسـقوطهم، وثـورات بعضهـم على بعـض، وقلنـا: إن هذا هـو التاريخ الإسلامي فإن الصورة تكون قائمة ومشوهة، لأننا أخذنا أضعف الصور وأشدها قتامة، وقلنا: هذه هي الحقيقة كاملة.

ولو أننا عرضنا مثلاً الجانب الذي ركز عليه صاحب كتاب «الأغاني» وأبرزنـاه على أنـه التاريـخ الاجتماعي والخلقـي لأعطانا صورة مشـوهة

لمجتمع الحجاز، وأنه عاش حقبة من الخمول والانشغال بالملذات الحسية والغناء والطرب وما شابه ذلك.

وهذه النتيجة -مع الأسف- صرح بها وكررها كثير من الباحثين المعاصرين من أمثال أحمد أمين، وطه حسين، وشوقي ضيف.. وغيرهم من مؤرخي الأدب، وألمح إليها الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه «تاريخ الإسلام السياسي» وغيره من المؤرخين الذين كتبوا في تاريخ هذه الحقبة..

٦- إضعاف دراسة التاريخ الإسلامي ومزاحمته بغيره:

إن من وسائل دعاة **الغزو الفكري** إضعاف دراسة تاريخ الأمة الإسلامية في المدارس والجامعات ومراكز العلم في العالم الإسلامي، ومزاحمته من تواريخ الأمم الكافرة، سواء القديم منها والحديث، مما يضعف شأنه في نفوس الدارسين، حيث يعطى لهم بصورة مختصرة ومشوهة، بينما يفسح المجال لدراسات واسعة في التاريخ القديم، ويربط سكان كل منطقة بتواريخ الأمم الجاهلية التي عاشت فيها، ففي مصر الفرعونية، وفي العراق البابلية والسومرية، وفي بلاد الشام الفينيقية، وفي اليمن السبائية والحميرية، مما يوجد الوطنيات العرقية الضيقة ويفتت الوحدة الإسلامية، ويشتت أوصال التاريخ الإسلامي، بحيث يبدو وكأنه نقطة في بحر أو جدول صغير في نهر.

٧- جعل واقع المسلمين في العصور المتأخرة الصورة الحقيقية لتعاليم الإسلام:

في عرض التاريخ الإسلامي في مثل تلك المراكز يجعل واقع المسلمين المتخلف هو الصورة الحقيقية لتعاليم الإسلام، وهذا تشويه متعمد

ومغالطة للحقائق العلمية والواقع والغرض من ذلك تزهيد المسلمين في دينهم والفصل بينهم وبينه، حيث يصورون لهم الدين من خلال درس التاريخ بالصورة المتخلفة التي أنتجها واقع المسلمين المنحرف عن تعاليم الإسلام، ثم يجعلون المسلم بين خيارين: إما أن يصبر على التخلف إذا أراد التمسك بدينه، وإما أن يأخذ سبيل التقدم، لكن عليه أن ينبذ دينه كما نبذت أوربا دينها، ويخفون في دهاء ومكر الخيار الثالث الذي هو البديل الصحيح عن الخيارين السابقين، وهو النهوض بالأمة والرجوع بها إلى مستوى دينها الحق، وبيان أن ما وقعت فيه الأمة من التخلف والانحطاط هو نتيجة طبيعية لتخلفها في عقيدتها وإسلامها، لا نتيجة تمسكها به كما يصور ذلك أعداؤها.. ثم إن هناك فرقاً بين الدين الحق دين الإسلام؛ وبين الخرافة التي كانت عليها أوربا وتسميها ديناً، حقاً إن أوربا لم تتقدم مادياً وعسكرياً وعلمياً، إلا بعد أن نبذت الخرافة وتخلت عنها، وحررت عقلها من آثارها، فإنها لم تكن على دين بل كانت على خرافة. ولا شك أن هذا الأسلوب في عرض المسألة وتصويرها هو من التلبيس المتعمد والتشويه المقصود الذي حاول المستشرقون زرعه في قلوب الناشئة من أبناء العالم الإسلامي.

٨- إبراز دور الفرق الضالة وتضخيمه:

لقد وجد دعاة الفتنة من المستشرقين ومن لف لفهم وسلك طريقهم غايتهم المنشودة في الفرق المنحرفة والخارجة على سبيل السنة، مثل الخوارج، والرافضة، والقرامطة وإخوان الصفا، والمعتزلة، والجهمية،

وأيضاً من الشخصيات الضالة، مثل ابن سبأ، وعبيد الله بن ميمون القداح، والحاكم العبيدي، وصاحب الزنج، والحلاج، وابن عربي، وغيرهم، فنشروا تراثهم، واعتنوا بتاريخهم، وضخموا أدوارهم، وأقاموا المراكز والجمعيات لخدمة ذلك، مع تصويرهم لحركاتهم وإبرازها على أنها حركات إصلاحية ومعارضة للفساد، وهذا كله تزوير للحقائق وإخفاء للأهداف الحقيقية التي تسعى تلك الفرق وأولئك الأشخاص إلى تحقيقها وهي تحطيم الخلافة الإسلامية، وتبديل مفاهيم الدين الصحيحة بمفاهيم باطنية ووضعية، والكفر ملة واحدة والكفار بعضهم أولياء بعض..)[1].

وقد صادف هذا الغزو تشويه التاريخ الإسلامي آذناً مصغية وهوى عند تلاميذه المستشرقين من بني جلدتنا، فسارعوا إلى تبني هذه الأفكار ونشرها، كما أن من أخطر من شوهوا تاريخ هذه الأمة وأبطالها المجاهدين والمصلحين: الرافضة الباطنين الذين دسوا في التاريخ الإسلامي من الكذب والبهتان ما لم يفعله سواهم، وحرفوا القرآن الكريم ولووه؛ ليوافق تفسيراتهم الباطلة وبهتانهم المبين، ووصفوا خيار الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان بكل وصف قبيح، قاتل الله الرافضة أنى يؤفكون.

رابعًا: إثارة الشبهات حول الشريعة الإسلامية ومحاولة إقصائها عن الحكم والتحاكم

بحجة عدم كفايتها لمصالح الناس المستجدة في عصورنا، والسعي إلى إبدالها بالقوانين الوضعية المخالفة في كثير منها للشرع والعقل والفطرة،

(١) مجلة البيان العدد (٢٠، ٢١) عن مقال: (وسائل الغزو الفكري في دراسة التاريخ) (باختصار) د. محمد بن صامل السلمي.

والقيـام بنشر المذاهب العلمانية في مجتمعات المسـلمين، ومهاجمة العاملين لنشر الدين والجهاد في سـبيله والمنادين بالحكم بالشريعة الإسلامية، تارة بوصفهم بالإرهاب وأنهم أصحاب (الإسلام السياسي)، وتارة يتهمونهم عـلى ذلك بمحاولـة القفز إلى السـلطة بذريعة الدين، وتـارة يقولون: إن في الحكـم بالشريعـة نشرًا للطائفيـة بين أبناء المجتمع المكـون من طوائف ونحـل مختلفة، وتارة أخرى يرفضون الحكم بالشريعة وإدخال الإسـلام في السياسـة بذريعـة أن الديـن طهر والسياسـة تقوم على الكـذب والمكر والنفاق، ولذلك ينبغي إبعاد الدين عن هذه القبائح حتى لا يتلوث!!

ومن شـبههم أيضاً في رفض الشريعة أن الغرب الكافر لم يتمكن من هذا التقدم والحضارة، وتنظيم أموره السياسية والاجتماعية والإدارية إلا بعد أن تخلص من دين الكهنوت في الكنيسة، وانطلق حراً من قيود الدين فـكان لزامـاً على من أراد التقدم والتحضر أن لا يربط نفسـه بالدين؛ لأن الدين يقيد عـن الانطلاق ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥].

ومـع ذلـك فقـد انطلـت هذه الشـبهة عـلى بعـض ضعفـاء العقول والجهلـة من أبناء المسـلمين فراحوا يرددون مثل هذا الكلام تارة بلسـان الحال، وتارة بلسان المقال، وما علم هؤلاء الجهلة أن الذي فرت منه أوربا هو خرافة الكنيسة وكهانها، وما كانوا عليه من الدجل والشعوذة والكفر وابتـزاز الناس باسـم الديـن المحرف المبغوض عنـد الله ﷻ فكيف يقاس الإسـلام (دين الله الحق) بالكنيسـة والدين المحرف الذيـن ثارت عليهم

أوربا. وكيف يقاس الإسلام النقي الصافي القائم على توحيد الله ﷻ وعبادته وحده لا شريك له، وعلى اتباع ما جاء عن الله ﷻ في القرآن الكريم، المتضمن لمصالح العباد في الدنيا والآخرة، وما جاء به الرسول ﷺ من الشريعة الكاملة من عند الله ﷻ والأخلاق السامقة التي بهرت العدو قبل الصديق بالأديان المحرفة القائمة على الخرافة والشعوذة والكفر بالله عز وجل. إنه لا يفر من دين الإسلام إلى غيره إلا من سفه نفسه، واتبع هواه بغير هدى من الله ﷻ.

إذ كيف يقاس دين النصارى المحرف الضال القائم على الشرك وإلغاء عقول الناس بهذا الدين القويم المبرء من الهوى والجهل والظلم ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٦]. إن الحقيقة هي عكس ذلك، وهي أن ما أصاب المسلمين من التأخر والمصائب المتنوعة إنما هو بسبب إعراضهم عن دينهم الحق، وتركهم لشريعة ربهم، وتبعيتهم لأعدائهم الكفرة.

خامساً: إثارة الشبهات حول أحكام المرأة وإفساد الأسرة المسلمة

لم تتعرض شريحة من شرائح المجتمع المسلم لغزو الكفار الفكري والسلوكي، مثل ما تتعرض إليه المرأة المسلمة، والأسرة المؤمنة، لأن الأعداء الكفرة وأذنابهم من المنافقين (من بني جلدتنا) يعلمون أن نواة المجتمع هي الأسرة، والأسرة قائمة على الوالدين، ولاسيما مربية الأجيال المرأة المسلمة، فإذا أفسدوها عقدياً وأخلاقياً فسدت الأسرة، وإذا فسدت الأسرة فسد المجتمع، وسهل على العدو اختراقه، وجعله تابعاً ذليلاً لمناهجه وأفكاره وسلوكياته.

ومن أهم وأخطر ما تتعرض له المرأة والأسرة المسلمة اليوم من الأفكار والمكر الكبار ما يقوم به الكفار وأذنابهم من المنافقين من:

١- إثارة الشبهات على بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بالمرأة، سواء في حجابها ولباسها أو في عملها أو في وضعها الأسري والاجتماعي، وتصويرها وكأنها مظلومة مسلوبة الحقوق، والمناداة بما يسمى (تحرير المرأة وضمان حقوقها) ومساواتها بالرجل، وتتفاوت منطلقات المثيرين لهذه الشبهات ما بين معلنٍ عن نفسه وزندقته، وذلك بنقض أحكام الشريعة المتعلقة بالمرأة، وأنها لا تتواكب مع العصر وتطوراته ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

وآخرون لا يصرحون بهذا المنطلق الخبيث، ولكنهم يتهمون علماء الشريعة بعدم فهم النصوص المتعلقة بشئون المرأة والأسرة، ووصفهم لهم بالتشدد والتحجر، ويتعلقون في نشرهم لشبهاتهم ببعض التأويلات الفاسدة أو التعلق ببعض القواعد الشرعية التي يضعونها في غير موضعها ومن دون ضوابطها، إما جهلاً منهم بقواعد الشرع أو خبثاً وفساداً في الطوية، وسعياً منهم في جعل المرأة المسلمة محاكية للمرأة الغربية في لباسها وسلوكها واهتماماتها.

٢- غزو الأسرة المسلمة بقنوات الإفساد المختلفة التي يضمنها شياطين الإنس والجن، مواقع مختلفة وقنوات متنوعة تبث الشبهات في بيوت المسلمين لتغريبها وإبعادها عن العقيدة الصحيحة، بإثارة الشبهات حولها ونشر الرذيلة وإفساد الأخلاق والعلاقات الأسرية بالحوارات

المفسدة والفتاوى المأجورة، وتسهيل وصول هذه الأجهزة إلى يد الصغير والكبير والمرأة والرجل دون حسيب ولا رقيب.

٣- تسهيل الابتعاث لأبناء المسلمين وبعضهم في سن المراهقة إلى ديار الغرب الكافر، حيث يتم هناك غسل أدمغتهم وأفكارهم، وتغيير معتقداتهم الشرعية وثوابتهم الأصلية وأخلاقهم التي تربوا عليها، بحيث يكونوا معاول هدم لأسرهم وأبنائهم ومجتمعاتهم إذا رجعوا إليهم.

٤- تسهيل السفر والسياحة لأسر المسلمين إلى بلاد الغرب الكافر الماجن، حيث يتم ترويضهم هناك على الفساد وكسر هيبة المنكر من العري والإباحية وتهوينها في قلوبهم، حتى تتحول إلى صور مألوفة لديهم، فضلاً عما يسمعونه من الشبهات عن دينهم، وما يرجع به بعضهم من انبهار بالحياة الغربية واغترار بها، قد يؤول به إلى احتقار دينه.

٥- غزو الأسر المسلمة بسيل جارف من أنواع الترف والإسراف في المآكل والخدم والمشارب والمساكن والمراكب وأدوات للزينة، حتى تحولت في حياة كثير من الأسر إلى غاية وهدف هو شغلهم الشاغل، يتنافسون فيه، ويكدح أرباب الأسر ليوفروا لبيوتهم وأهليهم هذه المطالب، ولو أدى إلى تراكم الديون على الأسرة وأربابها. ومكمن الخطر في هذا الغزو ما نتج عنه من الترهل المشاهد في حياة أبناء المسلمين ونسائهم وركونهم للدنيا، وكأنهم يخلدون فيها، ونسيانهم للآخرة ودوام نعيمها أو عذابها، وهذا الترهل يقود إلى فتور الهمم والعزائم، وتهيئة البلاد لأي نوع من أنواع الغزو الخارجي دون ممانعة

ولا مقاومـة مع ما فيه مـن إجهاد نفسي ومالي لرب الأسرة، قد ينجم عنه مشكلات أسرية ومجتمعية.

٦- غزو الأسرة المسـلمة بشـبهات يثيرها أعداء الدين من الكفار والمنافقين حـول بعض التشريعـات الأسرية في مسـائل الطلاق والنـكاح وتعدد الزوجات والميراث والشـهادة، وقوامة الرجل، واستخدامها في شحن النسـاء الجاهـلات، ودفعهن للتمـرد على أحكام الشريعة، واسـتغلال إسـاءة بعض الأزواج في الطلاق والتعدد والتوارث والقوامة في نسـبة هذه الإساءات إلى الأحكام الشرعية نفسها. ولا يخفى ما يمارسه الإعلام الظالم في تكريس هذه الشبهات بشتى الوسائل والبرامج الإعلامية.

٧- محاولة الهيمنة على مناهج التعليم في بلدان المسلمين وغزوها وشحنها، بـما يثير الشـبهات والشـكوك في نفوس الناشـئة من أبناء المسـلمين، ولاسيما ما يتعلق بالعلوم الإنسانية في التاريخ والأدب وعلوم النفس، مع أن العلوم البحتة لم تخلو هي الأخرى من المغالطات والمعارضات، لما في الوحيين الشريفين من علوم قطعية لا يعتريها الباطل ولا الخطأ. وذلك كما في كتب الطبيعة والفلك ونشـأة الإنسان، ويبرز خطر هذه المناهج بشكل بين وواضح فيما يسمى بالمدارس العالمية.

سادسـاً: الهجـوم عـلى الاقتصـاد الإسـلامي بشـبهات يحلـون بهـا الربـا والمكاسب المحرمة

الاقتصـاد الإسـلامي ربـاني المصـدر، فلا جـرم كان كامـلاً وعادلاً وشـاملاً لمصالـح النـاس يتسـم بالإيجابيـة والواقعيـة والتوازن، وسـطاً

بين جشع الرأسمالية، التي تستخدم أي وسيلة لجمع المال وبين تطرف الاشتراكية التي تصادم فطرة الإنسان وعقله في إلغاء الملكية الفردية، ولا غرابة في كمال دين الإسلام ونظافته فهو من لدن حكيم عليم، لطيف خبير، رحيم ودود ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

ولقد دأب شياطين الإنس في دول الكفر وتابعهم أذنابهم من المنافقين في نشر شبهاتهم حول الاقتصاد الإسلامي؛ لأنه هو السد المنيع الذي يقف أمام استبدادهم وظلمهم للناس في إفساد اقتصادهم وإفقارهم، ويمنعهم من انفرادهم في تضخيم أرصدتهم المحرمة القائمة على ظلم الناس وإفساد أموالهم، ومن أهم الممارسات والشبهات التي يثيرونها حول الاقتصاد الإسلامي:

١ - زعمهم أن تطبيق الاقتصاد الإسلامي في واقعنا المعاصر المعقد متعذر، لكون الربا بزعمهم أصبح من الضرورات التي تبيح المحظورات، وكونه يعيق النمو الاقتصادي ولا غناء عنه، وهذه الشبهة أضعف من بيت العنكبوت.

أولاً: لأن الذي أحل لنا الحلال وحرم علينا الحرام هو الله ﷻ رب السموات والأرض ومن فيهن، وهو أعلم بما يصلح لخلقه، وهذا الذي يعلم ما كان وما سيكون، ويعلم أنه سيأتي زماننا الذي نعيشه اليوم، فجاء تشريعه سبحانه صالحاً لكل زمان ومكان ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب:٣٦]، ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ

﴿ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥] وقد حرم الله ﷻ الربا في جميع الديانات السماوية.

وثانياً: بالنظر إلى المجتمعات والدول الرأسمالية القائمة على الربا والمعاملات المحرمة، نرى تخبطها وانهيار اقتصادها، وانتشار الظلم والديون على شعوبها، مما حدا ببعض رموزهم إلى المناداة باقتصاد خال من الربا، كما هو الحال في الاقتصاد الإسلامي.

وثالثاً: أن القاعدة التي استدلوا بها (الضرورات تبيح المحظورات) هي قاعدة صحيحة في أصلها، لكنهم استخدموها بجهل أو خبث في غير محلها، ودون شروطها وضوابطها الشرعية التي إذا طبقت على جريمة الربا فإنها لا تنطبق لعدم توافر واحد من هذه الشروط والضوابط فيها.

٢- قولهم: إن الإسلام صلة بين العبد وربه ولا دخل للإسلام ومعاملات الناس واقتصادهم، والإنسان حر في ماله، وهذه قولة فاجرة يرددها العلمانيون والليبراليون من بني جلدتنا، ولهم في ذلك أسوة سيئة بأصحاب الأيكة من قوم شعيب، عندما كان -عليه الصلاة والسلام- يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن الشرك وأكل أموال الناس وبخسهم ونقصهم الميزان، قالوا له: ﴿يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧]، وهذا ما يقوله العلمانيون اليوم عن شرع الله ﷻ ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٣].

إن العبودية الحقة التي من أجلها خلقنا الله ﷻ تقوم على التسليم والإذعان لله تعالى في كل أحوالنا ومعاملاتنا وحركاتنا وسكناتنا ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

٣- فتح باب التأويل في تحليل كثير من المعاملات المحرمة وأكل أموال الناس بالباطل، ولاسيما المعاملات المصرفية والبيوع المحرمة، وتسميتها بغير مسمياتها الشرعية، كتسميتهم الربا بالفائدة، وتسميتهم لكثير من عقود الغرر والجهالة بالتأمين، وكثير من عقود الربا والعينة وبيع ما لا يملك الإنسان بعقود المرابحة وسحق المحتاجين من المسلمين بالرهون العقارية، وممارسة القمار الميسر باسم المتاجرة والربح في بيع الأسهم التي يصبح فيها الرجل غنياً غناءً فاحشاً ويمسي فقيراً معدماً، ولاسيما في طبقة الفقراء والمتوسطين، أما أصحاب رؤوس الأموال الفاحشة فهم المستفيدون في الغالب من هذا التلاعب في بيع الأسهم ورفع قيمتها وخفضها حسب شهواتهم، ويسمون ذلك بيعاً ومتاجرة مع ما فيه من النجش والغش للمخدوعين من المسلمين.

ومن ذلك أخذ الرشوة باسم السمسرة والأتعاب، وكل هذه المعاملات والبيوع المحرمة غريبة على مجتمعات المسلمين، ولم تعرف إلا بعد هذا الغزو الاقتصادي من بلاد الكفر، والقائم على الربا والجشع وتحصيل الأموال بأي وسيلة كانت، فالمهم كسب المال بأي طريقة

وصدق الرسول ﷺ: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِي المَرْءُ بِمَا أَخَذَ المَالَ أَمِن الحَلالِ أَمْ مِن الحَرَامِ**»(١).

٤- غزو أسواق المسلمين بأفكار وأساليب الدعاية والتسويق القائمة على الكذب والتضليل، وابتزاز أموال الناس بالباطل، وتوظيف الإعلام المقروء والمسموع أو المرئي في خداع الناس، ودفع الناس دون رغبة منهم في شراء السلع القائم ترويجها على الكذب والغش والخداع، وقد قال الرسول ﷺ: «**مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»(٢).

٥- ومن ممارسات الكفار في إضعاف الاقتصاد الإسلامي سعيهم إلى أن تكون المجتمعات المسلمة مجتمعات مستهلكة لسلع الكفار وإبعاد المسلمين من أن يكون لديهم الاكتفاء الذاتي في طعامهم وشرابهم وضرورياتهم الأخرى، وذلك ليبقوا تابعين لدول الكفر الغازية التي تتحكم في غذائهم واحتياجاتهم، ومن ثم تضمن تبعيتهم وإذلالهم وخنوعهم، وصدق من قال من علماء الاقتصاد الإسلامي: (من لم ينتج ويملك غذاءه لا يملك أمنه).

ومن ذلك أيضاً إيهام الكفار لأصحاب الأموال في بلدان المسلمين بأن بلدانهم المسلمة غير آمنة ومعرضة للتقلب ولعدم الاستقرار، فيغرونهم بهذه الشبهات والدعوات إلى هجرة المال الإسلامي إلى بنوكهم، واستثمارها في دول الكفر وحفظها فيها؛ لأنها أكثر أماناً واستقراراً،

---

(١) مسلم (٢٩٦٢).
(٢) البخاري (٢٥٦٣).

فهاجرت -وللأسف- كثير من رؤوس أموال المسلمين وأودعت في بنوك الغرب، ولا يخفى ما في ذلك من دعم لاقتصاد الكفار القائم على الربا والجشع والظلم والاستبداد.

٦- غزو أسواق المسلمين بمطاعم ومشارب مشتبهة كلحوم الميتة أو التي تحتوي على مشتقات الخنزير أو دهونها، وكذلك غزو أسواق المسلمين ببعض الملبوسات التي عليها صور، أو كتب عليها ما فيه تعظيم بعض رموز الكفار أو شعاراتهم وطقوسهم.

من وسائل الغزاة في بث شبهاتهم وأباطيلهم

قبل ذكر هذه الوسائل المختلفة أذكر أهم الوسائل التي يعتمد عليها الكفار في غزوهم الفكري وبث الشبهات، ألا وهم المنافقون من بني جلدتنا الذين يشكلون الذراع القوية لإيصال ما يريده الكفار من صرف المسلمين عن دينهم وأخلاقهم، بل إنهم البوابة التي دخلوا منها، ويدخلون إلى بلدان المسلمين في احتلالهم العسكري، والتمكن من بلدان المسلمين وأماكن التأثير فيها، ونظرة سريعة إلى الغزو الأمريكي لبلاد الأفغان والعراق، وما قام به الانقلابيون على الحكومة الشرعية في مصر ترينا هذه النظرة، وذلك الدور الخياني الكبير في تسهيل احتلال الكفار لتلك البلاد.

ونظرة إلى ما تقذف به صحف ومجلات ومواقع المنافقين من العلمانيين والليبراليين ترينا ذلك التوافق العجيب والتناغم الشديد بين ما يطرحونه

وما يدعو إليه الكفار ويطرحونه من أفكار وشبهات، وصدق الله العظيم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الحشر:١١]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤].

وبعد هذا التنبيه على خطر المنافقين ودورهم في تنفيذ ما يريده الكفار من زعزعة لعقيدة المسلمين وأفكارهم، أسوق فيما يلي وبصورة مختصرة بعض تلك الوسائل التي يعول عليها الكفار وأذنابهم المنافقون في التأثير على عقول وأفكار المسلمين بما يبثونه من الشبهات:

أولاً: وسائل الإعلام المختلفة المقروء منها من الكتب والصحف والمجلات، وما تنتجه مراكز الأبحاث من مقالات وغيرها، والمسموع من الإذاعة والأشرطة والأقراص المدمجة والمرئي من تلفاز وقنوات ومواقع إلكترونية وجوالات ذكية وغيرها. وهذا من أعظم وسائلهم وأخطرها، حيث لم يمر في تاريخ البشرية منذ أن خلق الله ﷻ هذا الإنسان مثل هذه الوسائل الإعلامية المتطورة في مخاطبة عقول الناس والتأثير عليها.

ثانياً: الحركة الاستشراقية التي بدأت منذ قرون التي ما فتأ المستشرقون المهتمون بالتراث الإسلامي من بث شبهاتهم وتشويهاتهم لعقيدة الإسلام وأحكامه وللتاريخ الإسلامي، وألفوا في ذلك الكتب، وكتبوا المقالات المسمومة.

ثالثاً: فتح المدارس الأجنبية التي تسمى بالعالمية، وتدريس طلابها مناهج ملوثة قد وضعت أهدافها المنحرفة بدقة، بل إن الأمر قد تجاوز هذه المدارس الخاصة إلى تدخل الكفار في مناهج مدارس التعليم العامة، وسعوا إلى حذف كل ما من شأنه إيغار الصدور على الكفار والبراءة منهم والكراهة لهم، ونزع ذلك من قلوب المسلمين، ومن ذلك تقليص الحديث عن الجهاد وأبطاله المسلمين.

يتحدث الأستاذ (مهيمن عبدالجبار) في مقال بعنوان (التعليم الأجنبي أخطار لا تنتهي) يقول فيه:

(ولكي نتصور القضية تصوراً صحيحاً لابد أن نضع في حسباننا أمورًا عدة:

أولها: أن التعليم الأجنبي يأتي ضمن منظومة واسعة لتغريب الأجيال وإبعادهم عن دينهم، تتضمن التعليم، والإعلام والثقافة، ويتستر خلفها التبشير والاستشراق والاستعمار، وتساندها بقية الأدوات.

وثانيها: أن الكلام حول التعليم الأجنبي يتناول المدارس الأجنبية ومدارس الإرساليات التبشيرية ومدارس الجاليات بالأصالة، كما يشير إلى مدارس اللغات والمدارس التجريبية التي تقفوا أثر المدارس الأجنبية، وإن تسمَّت بأسماء عربية بالتبعية، كما يتطرق الحديث إلى الابتعاث إلى الدول الغربية.

وثالثها: أن حديثنا عن دور وأخطار هذا النوع من التعليم يزيد من شأنه، ولا يهون ما يتم للتعليم الوطني اليوم في كثير من بلادنا الإسلامية،

تحت مسميات التطوير والتحديث، ضمن ما يعرف بالعولمة التعليمية التي ترعاها المؤسسات الدولية وتدفع إليها الدول الغربية.

ورابعها: أن التعليم في الإسلام يعني عملية إفراز وتنمية للولاء العقدي، الذي هو أعلى وأوثق أنواع الولاء، كما يرتبط بقيمة وجودية للأمة الإسلامية هي الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩].

كما يرتبط بقيمة أخرى في الآخرة هي الوقاية من عذاب الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

وهذا كما قال المفسرون يتم بالتعليم والتأديب، وفيه ملمح مهم، وهو ارتباط التعليم بالإصلاح، على عكس ما يحدث اليوم في التعليم الأجنبي.

وخامسها: أن دخول أطراف خارجية في العملية التعليمية يعني تعريض أمن الأمة للخطر؛ وذلك حين يتعرض دين الأجيال للتحريف وعقولهم لألوان الغزو الفكري.

إننا كثيراً ما نلمس آثار هذه المدارس على المتخرجين فيها، لكن ما يغيب عنا أكثر، دون أن يكون لنا أفراد أو مجتمعات دور يتفاعل مع قضية بهذه الخطورة.

وسادسها: إن الحديث عن التعليم الأجنبي اليوم لا يمكن التطرق إليه بمنأى عن الخريطة التعليمية القطرية والعولمية؛ فلم تعد المدارس

الأجنبية هي الخطر الوحيد في المجال التعليمي؛ بل ينبغي تصور خريطة الأخطار المحتفة بالتعليم اليوم؛ فهناك مدارس الإرساليات (علمانية، ودينية)، وهناك المدارس الدينية التي تخص الطوائف النصرانية التي تعيش في بلداننا الإسلامية، والمدارس الخاصة التي تقتفي أثر هذه المدارس، إلى جانب التعليم العام المنجذب مغناطيسياً نحو مجال هذه المدارس كنموذج)[1].

رابعاً: تكثيف حملات الابتعاث إلى بلاد الكفار، ولاسيما من شريحة المراهقين من الطلاب والطالبات، والزج بهم في جامعات مختلطة، وغسل أفكارهم مما يرونه ويسمعونه في دراستهم وحياتهم اليومية من شبهات وأفكار منحرفة، وافقت قلوباً خاوية من العلم الشرعي، جاهلة بحقيقة دينها، منبهرة بحضارة الغرب، فحدث ولا حرج عن هاتيك العقول المسمومة، وأثرها على توجيه أفكار المسلمين وحياتهم بعد رجوعهم إلى بلدانهم.

خامساً: إقامة المؤتمرات والندوات والحوارات التي يطرح فيها ما من شأنه تمييع عقيدة التوحيد والولاء والبراء باسم التسامح الديني والسلام والإخاء بين أصحاب الديانات السماوية والتقريب بينهم، والدعوة إلى ما يسمى بحوار الأديان.

سادساً: إقامة المؤتمرات العالمية التي تدعي الحفاظ على حقوق الإنسان وحريته، ومن ذلك حقوق المرأة، واستخدام هذه المؤتمرات في النيل من أحكام المرأة في الإسلام، والدعوة إلى تحريرها ومساواتها

---

(١) مجلة البيان عدد (١٧٤).

بالرجل، ومن ذلك وثيقة الخنا والفجور التي طرحت على جميع الدول للتوقيع عليها، مع ما تتضمنه من محادة لشريعة رب السموات والأرض، ومع ما فيها من تشريع للزنا والعهر وفساد النسل والأعراض.

سابعاً: ما يسهم به من يسمون بالعقلانيين أو العصريين من أفراخ المعتزلة، الذي يقدسون العقل ويحاكمون إليه النقل الصحيح من الكتاب والسنة، فما وافق العقل أخذوا به، وما عارضه -بزعمهم- ردوه أو تأولوه، ولقد طار المفسدون من الكفار والمنافقين بهذا المنهج، وعظموه وأعظموا رموزه وحسنوه للناس، واتكأوا عليه في غزوهم العقدي والأخلاقي للدين الإسلامي.

ثامناً: ما يقوم به بعض الطيبين من الدعاة أو طلبة العلم -بحسن نية- من فتاوى أو مقالات يستغلها المفسدون من أهل البدع والنفاق في تمرير بعض الأفكار والأخلاق المنحرفة، وذلك من عدم الوعي من هؤلاء المجتهدين بمآلات مقالاتهم أو فتاويهم، فيطلقونها بحجة التيسير على المسلمين، ويتأولون ذلك بأنهم يعملون القواعد الشرعية، كقاعدة الضرورة والمصلحة المرسلة، والمشقة تجلب التيسير، ولكن دون شروطها وضوابطها، وما علموا ما يترتب على طرحهم من مآلات فاسدة ونتائج خطيرة، وبذلك فهم يسهمون من حيث لا يشعرون في خدمة الغزاة من الكفار والمنافقين في تحقيق بعض مآربهم، ونشر أفكارهم.

إن عدم الاعتناء من بعض المفتين بقاعدة (سد الذريعة) التي تمثل ربع الشريعة التي تقوم على تحريم الوسائل التي تؤدي إلى الحرام. إن

إغفال ذلك مع فتح باب التأويل واتباع المتشابه؛ ليعد باباً خطيراً من أبواب الفساد يدخل منه أعداء هذا الدين من الكفار والمنافقين في بث الشبهات والتهوين من حرمات الله ﷻ والجرأة على انتهاكها.

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله: (وباب سد الذرائع أحد أرباع التكليف، فإنه أمر ونهي، والأمر نوعان: **أحدهما**: مقصود لنفسه. **والثاني**: وسيلة إلى المقصود. والنهي نوعان: **أحدهما**: ما يكون المنهي عنه مفسدة في نفسه. **والثاني**: ما يكون وسيلة إلى المفسدة، فصار سد الذرائع المفضية إلى الحرام أحد أرباع الدين. وتجويز الحيل يناقض سد الذرائع مناقضة ظاهرة، فإن الشارع يسد الطريق إلى المفاسد بكل ممكن والمحتال يفتح الطريق إليها بحيلة، فأين من يمنع من الجائز خشية الوقوع في المحرم إلى من يعمل الحيلة في التوصل إليه)(١).

ويتحدث رحمه الله عن خطورة فتوى المفتي دون النظر منه إلى مكر وخداع المستفتي، والمآلات التي تؤول إليها فتواه، فيقول:

(**الفائدة الرابعة والأربعون**: يحرم عليه إذا جاءته مسألة فيه تحيل على إسقاط واجب أو تحليل محرم أو مكر أو خداع أن يعين المستفتي فيها، ويرشده إلى مطلوبه أو يفتيه بالظاهر الذي يتوصل به إلى مقصوده، بل ينبغي له أن يكون بصيراً بمكر الناس وخداعهم وأحوالهم، ولا ينبغي له أن يحسن الظن بهم، بل يكون حذراً فطناً فقيهاً بأحوال الناس وأمورهم يوازره فقه في الشرع، وإن لم يكن كذلك زاغ وأزاغ، وكم من مسألة

(١) «إعلام الموقعين» (٣/ ١٥٩).

ظاهرها ظاهر جميل وباطنها مكر وخداع وظلم، فالغر ينظر إلى ظاهرها ويقضي بجوازه، وذو البصيرة ينقد مقصدها وباطنها، فالأول يروج عليه زغل المسائل كما يروج على الجاهل بالنقد زغل الدراهم، والثاني يخرج زيفها كما يخرج الناقد زيف النقود، وكم من باطل يخرجه الرجل بحسن لفظه وتنميقه وإبرازه في صورة حق، وكم من حق يخرجه بتهجينه وسوء تعبيره في صورة باطل، ومن له أدنى فطنة وخبرة لا يخفى عليه ذلك، بل هذا أغلب أحوال الناس ولكثرته وشهرته يستغنى عن الأمثلة، بل من تأمل المقالات الباطلة والبدع كلها وجدها قد أخرجها أصحابها في قوالب مستحسنة وكسوها ألفاظًا يقبلها بها من لم يعرف حقيقتها)[١].

ويتحدث في موطن آخر عن خطورة التأويلات الفاسدة التي يتوصل بها إلى البدع والمحرمات، فيقول:

(ويكفي المتأولين كلام الله ورسوله بالتأويلات التي لم يردها ولم يدل عليها كلام الله أنهم قالوا برأيهم على الله، وقدموا آراءهم على نصوص الوحي، وجعلوها عياراً على كلام الله ورسوله، ولو علموا أي باب شر فتحوا على الأمة بالتأويلات الفاسدة وأي بناء للإسلام هدموا بها، وأي معاقل وحصون استباحوها؛ لكان أحدهم أن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتعاطى شيئاً من ذلك، فكل صاحب باطل قد جعل ما تأوله المتأولون عذراً له فيما تأوله هو، وقال ما الذي حرم علي التأويل وأباحه لكم، فتأولت الطائفة المنكرة للمعاد نصوص المعاد،

---

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٢٩).

وكان تأويلهـم من جنس تأويل منكري الصفات، بـل أقوى منه لوجوه عديـدة يعرفها مـن وازن بين التأويلـين، وقالوا: كيف نحـن نعاقب على تأويلنـا وتؤجرون عـلى تأويلكـم.. وكذلك فعلت الرافضـة في أحاديث فضائـل الخلفـاء الراشـدين وغيرهـم مـن الصحابة ﭬ وكذلـك فعلت المعتزلة في تأويل أحاديث الرؤية والشـفاعة، وكذلك القدرية في نصوص القـدر، وكذلك الحرورية وغيرهم من الخوارج في النصوص التي تخالف مذاهبهـم، وكذلـك القرامطـة والباطنية طـردت الباب وطمـت الوادي عـلى القرى، وتأولت الدين كله، فأصل خـراب الدين والدنيا إنما هو من التأويـل الذي لم يرده الله ورسـوله بكلامه، ولا دل عليـه أنه مراده، وهل اختلفـت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل، وهل وقعت في الأمة فتنة كبيرة أو صغـيرة إلا بالتأويل، فمن بابه دخل إليها وهل أريقت دماء المسـلمين في الفتن إلا بالتأويل.

وليس هذا مختصاً بدين الإسـلام فقط، بل سـائر أديان الرسل لم تزل على الاسـتقامة والسداد حتى دخلها التأويل، فدخل عليها من الفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد.

وقـد توارثت البشـارات بصحة نبـوة محمد ﷺ في الكتـب المتقدمة، ولكن سـلطوا عليهـا التأويلات فأفسـدوها كـما أخبر -سـبحانه- عنهم مـن التحريف والتبديـل والكتمان، فالتحريف تحريـف المعاني بالتأويلات التي لم يردها المتكلم بها، والتبديل تبديل لفظ بلفظ آخر، والكتمان جحده وهـذه الأدواء الثلاثة منها غيرت الأديان والملل، وإذا تأملت دين المسيح

وجدت النصارى إنما تطرقوا إلى إفساده بالتأويل بما لا يكاد يوجد قط مثله في شيء من الأديان، ودخلوا إلى ذلك من باب التأويل، وكذلك زنادقة الأمم جميعهم إنما تطرقوا إلى إفساد ديانات الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- بالتأويل، ومن بابه دخلوا وعلى أساسه بنوا، وعلى نقطه خطوا.

والمتأولون أصناف عديدة بحسب الباعث لهم على التأويل، وبحسب تصور أفهامهم ووفورها وأعظمهم توغلاً في التأويل الباطل من فسد قصده وفهمه، فكلما ساء قصده وقصر فهمه كان تأويله أشد انحرافاً، فمنهم من يكون تأويله لنوع هوى من غير شبهة، بل يكون على بصيرة من الحق، ومنهم من يكون تأويله لنوع شبهة عرضت له أخفت عليه الحق، ومنهم من يجتمع له الأمران الهوى في القصد، والشبهة في العلم.

نتائج التأويل:

وبالجملة فافتراق أهل الكتابين وافتراق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إنما أوجبه التأويل، وإنما أريقت دماء المسلمين يوم الجمل وصفين والحرة، وفتنة ابن الزبير وهلم جرا بالتأويل، وإنما دخل أعداء الإسلام من المتفلسفة والقرامطة والباطنية والإسماعيلية والنصيرية من باب التأويل، فما امتحن الإسلام بمحنة قط إلا وسببها التأويل، فإن محنته إما من المتأولين، وإما أن يسلط عليهم الكفار بسبب ما ارتكبوا من التأويل، وخالفوا ظاهر التنزيل، وتعللوا بالأباطيل، فما الذي أراق دماء بني جذيمة وقد أسلموا غير التأويل، حتى رفع رسول الله ﷺ يديه، وتبرأ إلى الله من فعل المتأول بقتلهم وأخذ أموالهم..

وما الذي سفك دم أمير المؤمنين عثمان ظلماً وعدواناً، وأوقع الأمة فيما أوقعها فيه حتى الآن غير التأويل، وما الذي سفك دم علي رضي الله عنه وابنه الحسين وأهل بيته رضي الله عنهم غير التأويل، وما الذي أراق دم عمار بن ياسر وأصحابه غير التأويل، وما الذي أراق دم ابن الزبير وحجر بن عدي وسعيد بن جبير وغيرهم من سادات الأمة غير التأويل، وما الذي أريقت عليه دماء العرب في فتنة أبي مسلم غير التأويل.

وما الذي جرد الإمام أحمد بين العقابين وضرب السياط، حتى عجت الخليقة إلى ربها تعالى غير التأويل، وما الذي قتل الإمام أحمد ابن نصر الخزاعي، وخلد خلقاً من العلماء في السجون حتى ماتوا غير التأويل، وما الذي سلط سيوف التتار على دار الإسلام حتى ردوا أهلها غير التأويل، وهل دخلت طائفة الإلحاد من أهل الحلول والاتحاد إلا من باب التأويل، وهل فتح باب التأويل إلا مضادة ومناقضة لحكم الله في تعليمه عباده البيان الذي امتن الله في كتابه على الإنسان بتعليمه إياه)[1].

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ٤٤٩-٢٥٢) (باختصار شديد).

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

الغزو الإباحي والسلوكي وإثارة الشهوات لإفساد الأعراض والأخلاق

ويتمثل أغلب وسائل هذا الغزو فيما يقوم به الإعلام المعاصر بشتى صوره وتقنياته المقروء منه والمسموع والمرئي في فتح باب الشهوات على مجتمعات المسلمين والتوصل بذلك إلى إفساد أخلاق المسلمين وأعراضهم وقيمهم، وبث الرذيلة والانحلال في أوساطهم، لاسيما أوساط الشباب والفتيات، ويتولى كبر ذلك القنوات الفضائية وشبكات (النت) التي دخلت بيوت المسلمين دون استئذان، ولم يكتف المفسدون بذلك، بل وصلت تقنياتهم الشيطانية إلى أن تكون هذه الفضائيات والشبكات ووسائل الإفساد في متناول أيدي الأطفال والشباب والنساء في أي مكان، وليس البيت وحده، وذلك بما أنتجوه من الحواسب والجوالات المسماة بالذكية، ولا ندري ما بعد ذلك من التقنيات ووسائل الإفساد، ولا يعني الحديث عن الدور الإفسادي لهذه الوسائل أننا ننسى أو نتجاهل الأثر الإيجابي لبعض هذه التقنيات التي يستخدمها المصلحون في الإصلاح، فأثر ذلك واضح والحمد لله، ولكن ماذا تساوي نسبة الوسائل الإعلامية المصلحة بجانب الوسائل المدمرة للأخلاق المشيعة للفاحشة والرذيلة والركون إلى الدنيا، والإحصائيات والتقارير الآتية تثبت ذلك:

١ – في دارسة تحليلية قامت بها مؤسسة ريادة بالتعاون مع الهيئة الإسلامية للإعلام بعنوان: (خارطة الإعلام الفضائي العربي)، ذكروا فيها

جـدول توزيـع القنـوات الفضائية العربيـة للمضمـون المتخصص، يظهر لنا تصدر المضمون الفني (أغاني وموسيقى) على بقية المضامين الأخرى، كما يظهر أيضاً كثرة المواقع الإباحية.

انظر الجدول أسفله:

التصنيف الأول	مجموع القنوات	التصنيف الثاني	عدد القنوات
إخبارية وسياسية	٤٦		
إعلانات	٢٧		
اجتماعية	٣٢	طفل	١٣
		زواج	٤
		شئون مرأة	٤
		أخرى	١١
اقتصادية	٢٦	سياحة	٤
		عقار	٢
		بورصة وأسهم	٢
		أخرى	١٨
تعليمية	١٢	ما قبل الجامعي	٤
		جامعي	٤
		خاصة	٣
		محو أمية	١

التصنيف الأول	مجموع القنوات	التصنيف الثاني	عدد القنوات
ثقافية	٤٦	فكر وأدب	
	٢٧	مسابقات	
		سحر ودجل	
إباحية (جنسية)	١٨		
دينية	٣٣	إسلامية	٢٦
		نصرانية	٧
رسائل	١٧		
رياضة	٣٥		
صحية	٤		
علمية	١١		
فنية	١٤٦	أغاني وموسيقى	٧٢
		دراما	٤١
		منوعات	٣٢
		أناشيد	١
اقتصادية	٢٦	سياحة	٤
		عقار	٢
		بورصة وأسهم	٢
		أخرى	١٨
تعليمية	١٢	ما قبل الجامعي	٤
		جامعي	٤
		خاصة	٣
		محو أمية	١

تبين القراءة التحليلية للجدول السابق ما يلي:

أ- تصدر المضمون الفني قائمة المضامين التي تخصصت القنوات الفضائية العربية في بثها للشعوب العربية؛ حيث بلغ عدد القنوات الفنية (١٤٦) قناة، منها: (٧٢) قناة تخصصت في تقديم المضمون المتعلق بالأغاني والموسيقى، و(٤١) قناة تخصصت في تقديم المضمون الدرامي من أفلام ومسلسلات، و(٣٢) قناة تقدم المنوعات؛ وذلك في مقابل قناة وحيدة فقط هي قناة «شدا» الفضائية التي تخصصت في تقديم الأناشيد الدينية الإسلامية.

والنتيجة السابقة تشير بجلاء إلى حالة التردي الأخلاقي التي يعاني منها الإعلام الفضائي الموجه إلى المجتمعات العربية، وإلى تعرض هذه المجتمعات لنوع من غسيل الدماغ.

ب- ثبت بالحصر وجود عدد كبير من القنوات الإباحية بين القنوات الفضائية العربية؛ حيث بلغ عددها (١٨) قناة، يبث غالبها عبر القمر الصناعي الأوروبي Hot Bird، كما أن تقديم هذه القنوات لمضمونها الهدام باللغة العربية من شأنه توسيع القاعدة الجماهيرية لها؛ مما يعطي مؤشراً بأن هناك أيدٍ خفية تخطط لاستدراج الشباب نحو الثقافات الهدامة؛ وذلك بنشر قيم الإباحية، والتهوين من شأن المحرمات، وتسويغ العلاقات المحرمة بين الجنسين التي من أهم آثارها: تفكك العلاقات والروابط الأسرية، انتشار الجرائم في المجتمع كالاغتصاب، القتل، تجارة المخدرات، وزرع قيم مغايرة عن تلك الذي نشأ الفرد المسلم في ظلها؛ مما يشعره في

نهاية الأمر بالاغتراب عن محيطه الاجتماعي، ويفقده الشعور بالانتماء إلى هذا المجتمع مع مرور الوقت، ولقد لوحظ أن هذه القنوات كافة مجهولة الملكية، وإن قيل: إن تمويل بعضها من جيوب عربية، إلا أنه لم يثبت ذلك من مصادر موثوقة.. ومن خلال الرصد لتلك القنوات تبين أن هذا العدد المتمثل في (١٨) قناة إباحية ناطقة بالعربية (تبث على القمر الأوروبي هوت بيرد)، ليس هو كل ما تبثه الأقمار التي تغطي المنطقة العربية، بل تبث حوالي (٧٠) قناة إباحية أخرى: إما ناطقة بلغات أخرى ليست في إطار حدود الدراسة، أو مشفرة لم نتمكن من الاطلاع على محتواها، أو التعرف على مالكيها..)[١].

كما قامت مؤسسة ريادة في نفس الدراسة بتقرير عن القنوات الموجهة بالإنجليزية والعربية معاً للعالم العربي قالت فيه:

(هناك مجموعة قنوات تغلب عليها اللغة الإنجليزية، إلا أنها تقدم بعض العروض بالعربية مثل قناة (نيكل) الفنية الإنجليزية، وقناة (ديزني الشرق الأوسط (أطفال)) التي تتبع لشركة ديزني الأمريكية العالمية، وقناة (جايتكس فوكس كيدز (أطفال) التي تتبع لشركة (ستار الهندية العالمية) كل هذه القنوات متخصصة في برامج الأفلام الخاصة بالأطفال.

ولا يخفى على أحد أن ما تقدمه هذه القنوات من نماذج وقدوة يعبر عن الثقافة النصرانية الأمريكية، والإنجليزية، وغيرها من الثقافات الغربية؛ فمثلاً الخنزير حيوان مُحبّب للأطفال حسب الثقافة النصرانية

---

(١) انظر: خارطة الإعلام الفضائي العربي (مؤسسة ريادة) (ص٤٣) وما بعدها.

الغربية، وشخصية المسلم العربي شخصية إنسان غبي وشرير وخائن وجشع في مقابل شخصية الأمريكي أو الغربي التي تتسم بالكرم والشجاعة والذكاء، وتتميز بالعلم وسعة الأفق والثقافة.

ومن خلال الكوميديا وأفلام ديزني تظهر شخصية التلميذ والطالب في المرحلة الإعدادية والثانوية التي تعد نموذجاً للشاب المتحرر من كل شيء؛ فالفصول مختلطة، والعلاقات الجنسية مع الجنس الآخر مباحة، والصليب يظهر على الصدور في مشاهد ترمز إلى الرحمة والروحانية من وجهة نظرهم.

أما مجموعة قنوات المنوعات الفنية المختلفة من أفلام ومسلسلات وإعلانات؛ فإنها تعرض للنموذج الأمريكي، بقيمه ومبادئه، فهي تعرض الجنس بشكل فاضح، كما تعرض العلاقات الشاذة)[1].

٢- وفي دراسة قامت بها (مؤسسة ريادة) عن (الفيديو كليب.. مفهومه وتاريخه) قالت فيها:

(الفيديو كليب): هو فيلم قصير يقدم عمل فرقة موسيقية ويظهر بصرياً قيمة الموسيقى التي تقدمها المجموعة، وتحتوي على رقص وهدفه هو الدعاية للفرقة الموسيقية أو لاسطواناتها بوسائل متعددة من بينها التلفزيون..

(والفيديو كليب) ظاهرة أثرت سلباً في الأذواق والأخلاق وحتى في طريقة اللبس، وقد تحول لسباق من العري وعرض الأجساد، حتى

(١) المصدر نفسه.

أطلق عليه البعض (البورنو كليب) أو غناء غرف النوم!!.. وقد أصبح (الفيديو كليب) خطراً يجتاح عالمنا ويفرز آثاره السلبية التي تنعكس بسرعة غريبة على الشارع في الألفاظ والملابس، وأصبح كليب (غرف النوم) خطراً يدق أبواب أكثر البيوت، فهو طوفان من العري والإباحية.

يقول د. عبدالوهاب المسيري: (فالفيديو كليب يؤكد جانباً واحداً من الأغاني، وهو الجانب الجنسي، فالراقصات لا يتركن أي مجال لخيال المشاهد، والصورة عادة أقوى من الكلمة خاصة إذا كانت صورة حسناء نصف أو ربع عارية.. والرقص يقدم في الفيديو كليب على أنه جزء من صميم حياتنا العادية اليومية.. إن القنوات الفضائية التي تذيع الفيديو كليبات تصل إلى منازلنا وأحلامنا، وتعيد صياغة رؤانا وصورتنا للآخرين وأنفسنا. ودافعها الوحيد هو الربح المادي، وليس الاستنارة أو تعميق إدراك الناس لما حولهم، فهي مشاريع رأسمالية طفيلية تبحث عن الربح)[١].

٣- وفي دراسة أخرى قامت بها (مؤسسة ريادة) عن (التلفزيون والطفل) تحت عنوان (الفضائيات العربية.. نعمة أم نقمة؟) تحقيق: ختام محمد قالت فيه:

(نتيجة للتقدم العلمي والتكنولوجي السريع الذي اجتاح العالم؛ شهدت السنوات الأخيرة من القرن العشرين ظهور القنوات الفضائية وانتشارها على نطاق واسع؛ مما أدى إلى تحول العالم إلى قرية كونية صغيرة تربطها شبكة اتصالات واحدة عبر الأقمار الصناعية، كما تنامت قوة

(١) المصدر نفسه.

الإعلام الفضائي، وازدادت المنافسة بين القنوات الفضائية على استقطاب المشاهدين، وذلك من خلال ما تبثه من برامج علمية، وثقافية، وترفيهية، وأيديولوجيات متعددة موجهة إلى المشاهدين باختلاف مراحلهم العمرية، إلا أنها بالتأكيد أكثر تأثيراً على الأطفال والمراهقين؛ نتيجة للاستعداد السيكولوجي والتغيرات البيولوجية المرافقة لهذه الشريحة.

إن استخدام الأقمار الصناعية في المجال الإعلامي، وبث القنوات الفضائية، أحدث تغيرات جوهرية في دور الإعلام، جعلت منه محوراً أساسياً في منظومة المجتمع، فهو اليوم محور لثقافة الكبار ورافد مهم لتنشئة الصغار؛ حيث تستهدف القنوات الفضائية مستقبلي مادتها في البيوت، مكان وجود القاعدة العريضة من جمهور المشاهدين الذين يستهلكون ويمتصون ما يُعرض عليهم من الإنتاج الثقافي لتلك القنوات من الأفلام والمسلسلات والأغاني.

فأصبح يقدم «الفيديو كليب» لأبنائنا -وخاصة الشباب منهم- كل يوم ما هو جديد وعصري، ولكنه في معظمه يُقَدَّمُ لهم على أطباق مذهبة ومزخرفة بنقوش من الزيف والتزوير، يُقَدّم لهم الأفكار التافهة والمعاني الرخيصة، وما نُقُوشُه ولا زخارفه إلا تعرٍّ وكشف للمفاتن، ومحاصرة جريئة لأخلاق الأسر وعاداتها ودينها.

فقد أكدت استبانة أجرتها «مجلة ولدي» أنَّ ٩٨٪ من الأبناء يتابعون «الفيديو كليب» بشغف.

وقد أجريت استبانة مع ٥٧ من الآباء والأمهات و٦٥ من الأبناء في كل من (الكويت والسعودية والإمارات) وثبت أنَّ:

- الأبناء من سن ٣ أعوام إلى ١٨ عاماً يشاهدون «الفيديو كليب».
- ٩٢,٣٪ من الأبناء يتابعونه باستمرار.
- ٧,٧٪ هم من لا يحرصون على متابعته من الأبناء.
- ٣٩٪ من الأبناء تعجبهم كلمات الأغنية، و٣١٪ يشاهدونها لجمال المغني أو المغنية (الراقص والراقصة).
- ٢٦,٥٪ منهم يجذبهم إخراج الأغنية وعلاقة المرأة بالرجل فيها.
- ٢٥٪ يتابعونها لما تحتويه من إثارة وتشويق.

وكان من أهم الآثار التي تنعكس على الطفل نتيجة متابعته لما يعرض على الفضائيات:

- يحرم الطفل من التجربة الحياتية الفعلية التي تتطور من خلالها قدراته إذا شغل بمتابعة التلفزيون.
- يحرم الطفل من ممارسة اللعب الذي يعد ضرورياً للنمو الجسمي والنفسي، فضلاً عن حرمانه من المطالعة والحوار مع والديه.
- التلفزيون يعطل خيال الطفل؛ لأنَّه يستسلم للمناظر والأفكار التي تقدم له دون أن يشارك فيها، فيغيب حسه النقدي وقدراته على التفكير.

- تستنفد طاقات الأطفال الهائلة وقدراتهم على الحفظ في حفظ أغاني الإعلانات وترديد شعاراتها.

- يشبع التلفزيون في النشء حب المغامرة، كما ينمي المشاغبة والعدوانية، ويزرع في نفوسهم التمرد على الكبار والتحرر من القيود الأخلاقية.

- إثارة الغرائز البهيمية مبكراً عند الأطفال، وإيقاد الدوافع الجنسية قبل النضوج الطبيعي؛ مما ينتج أضراراً عقلية ونفسية وجسدية.

- يدعو الناشئين إلى الخمر والتدخين والإدمان، ويلقنهم فنون الغزل والعشق.

- إفساد اللغة العربية، لغة القرآن، وتدعيم العُجْمَة وإشاعة اللحن.

- تغيير أنماط الحياة (الإفراط في السهر)، كما يرسخ في الأذهان أنَّ الراقصات والفنانات ونجوم الكرة أهم من العلماء والشيوخ والدعاة والمبتكرين)(١).

٤- وفي دراسة أخرى عن آثار التلفزيون وأفلام الفيديو على الأطفال ولاسيما أفلام العنف والقتل.

ذكرت مؤسسة الريادة تحقيقاً قامت به د. بارعة شقير عن تأثير الأفلام والمسلسلات الأمريكية على الأطفال قالت فيه:

(من خلال هذه الدراسة تبين أنَّ معظم قيم الشباب أقرب إلى القيم المعروضة في التلفزيون، وتتفق هذه النتيجة مع نتائج الكثير

---

(١) (القنوات الفضائية العربية نعمة أم نقمة) ختام محمد (شبكة النبأ المعلوماتية) نقلًا عن مؤسسة الريادة (التلفزيون والطفل).

من الدراسات التي وجدت أنَّ القيم التقليدية التي تعمل الأسرة على إيجادها لدى الطفل، آخذة في الضمور مقابل القيم المستمدة من الأفلام والمسلسلات الأمريكية، ويتنامى هذا الدور الذي تلعبه الدراما مع تنامي الدور الذي يحتله التلفزيون داخل الأسرة، وفي عملية التربية والتنشئة الاجتماعية، فقبل اقتحام التلفزيون للبيوت كانت قاعدة التربية ثلاثية الزوايا: البيت، والمدرسة، ودور العبادة، إلا أنّه مع دخول التلفزيون إلى المنازل احتل هذا الجهاز الرسمي الأكثر أهمية، والأشد فعالية، والأعمق أثراً، والأوسع انتشاراً، والأسهل تناولاً، احتل مرتبة متقدمة في الإرشاد والتوجيه.

لم يعد التلفزيون أداة من أدوات التسلية فقط، بل أصبح من أهم العوامل التي تؤثر على تنشئة الطفل اجتماعياً في مختلف مراحل تطوره، فمشاهدة التلفزيون لا تتطلب معرفة القراءة والكتابة، وفي كثير من الأحيان يستطيع الطفل مشاهدة التلفزيون قبل أن يستطيع الكلام، هذا إضافة إلى الوقت الذي يقضيه الطفل في مشاهدة التلفزيون والذي يفوق في كثير من الأحيان الوقت المخصص للقراءة أو اللعب، وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى القول: إنَّ التلفزيون هو الوالد الثالث فهو يأتي في المرتبة الثالثة من حيث الأهمية بالنسبة للطفل، وذلك بعد الأم والأب.

ولعل الخطورة الأكبر في الأفلام والمسلسلات الأجنبية تكمن في أنها مصنوعة في بلدان مختلفة في تركيبتها الاجتماعية والثقافية عن التركيبة الاجتماعية والثقافية لبلداننا العربية المسلمة، وكذلك تكمن الخطورة

في المضمـون الـذي تُرَكِّـز عليه هـذه الأفـلام والمسلسـلات، وبالتحديد الأمريكيـة منهـا، وقد وجـد أحد الباحثـين أنَّ المائة سـاعة التي عرضت فيهـا مضامين مخصصة للطفل قـد تضمنت ١٢ جريمة قتـل، ١٦ معركة بالمسدسـات، ٢١ شـخصاً يصابـون بالرصـاص أو الـضرب، ٢١ عملاً عنيفـاً، ٣٧ منظر صراع وتضارب بالأيدي أو بـأدوات مختلفة، محاولات للخنـق وصراع تحت المياه وتقييد لليديـن، ٤٥ محاولة انتحار، ٤ حوادث سـقوط من مرتفعات عالية، حادثتين لسـيارتين تسـقطان من قمة جبل، محاولتين لدهس أشـخاص بالسـيارة عمداً، وصوراً مختلفة لأعمال عنيفة منهـا: صراع في طائـرة، وقاتـل مأجـور يتعقـب ضحيتـه، وحادثة سرقة ونشل، وامرأة تسقط من قطار، ومنظر إعدام بالمقصلة.

وقـد زادت نسـبة العنـف المقدمة في برامـج الأطفال عامـاً بعد عام حتى وصلت هذه النسبة إلى ٩٩,٩٪ في برامج الأطفال الأمريكية، وفقاً لإحصاءات عام ١٩٩٣)[١].

٥- وفي دراسـة قدمهـا د. خالـد النجـار عـن (التربيـة التلفازيـة وبـين الإيجابيات والسلبيات) قال فيها:

(أحكـم التلفزيـون قبضتـه عـلى الأسرة، واحتل صـدر المجالس في البيوت بلا منازع ولا منافس، وتربع فيها بشـموخ منقطع النظير، وتشـير أحدث الإحصاءات إلى أنَّه فيما بين ٦٠٠-٧٠٠ ساعة على الأقل من عمر

(١) تأثير الأفلام والمسلسلات الأمريكية على الأطفال (مجلة النبأ عدد ٧١) نقلًا عن مؤسسة ريادة.

الإنسـان تضيع سنوياً في مشـاهدة التلفزيون، ويشـكل الأطفال الذين لم يبلغوا سـن الدخول إلى المدرسـة أوسع شريحة من مشـاهدي التلفزيون؛ حيث تبلغ سـاعات مشاهدتهم حوالي ٩ , ٢٢ ساعة في المتوسط أسبوعياً، بينما يمضي أطفال المجموعة العمرية من ٦-١١سـنة حوالي ٤ , ٢٠ساعة مشـاهدة أسبوعياً، بل إنّ دراسات مسـحية أخرى بينت أن هناك أوقات مشـاهدة أطول تصل إلى ٥٤ سـاعة أسـبوعيًّا لأطفال لم يصلوا إلى السـن المدرسية بعد.

وتتمثـل الآثـار السـلبية للتلفـاز على النـشء الإسـلامي والعربي في اتجاهين أساسيين:

الاتجـاه الأول: يتعلـق بمادة البرامـج ودورها في نشر بعـض المفاهيم التـي تصطـدم مـع العقيدة الإسـلامية الصحيحـة والأسـس الاجتماعية والأخلاقية لمجتمعاتنا العربية.

أما الاتجاه الثاني: فيتعلق بالتأثير السيء الذي تحدثه ساعات المشاهدة الطويلة في التكوين النفسي والسلوكي للمشاهد.

ففـي الجانب العقائدي: نجد أن بعض الأفلام تفسر الكون تفسـيراً وثنيـاً؛ فتـارة تتحدث عن العقـل المركزي، وتـارة تصور الكـون على أنَّه مخلـوق بقوة شريرة وأخرى خيرة تتصارعان، كـما نجد في بعضها الإيحاء بقـدرة بعـض الخلق على مضاهـاة الله في الخلق والإحيـاء والإماتة، مثل: بعض المشـاهد المتضمنة لإحياء ميت باستخدام عصا سحرية، فضلاً عن

نشر بعض المشاهد المحتوية على الدجل والخرافة والشعوذة والسحر والكهانة المنافية للتوحيد، حتى وصل الأمر أن وجد أحد الآباء ابنه يسجد لدمية أطفال؛ لكي تحقق له ما يريد!!

أما في الجانب الاجتماعي والأخلاقي، فلقد أدى الإسراف في عرض الأفلام الغربية، وما سار على نهجها من أفلامنا المحلية إلى تسرب كثير من المفاهيم الاجتماعية والأخلاقية الخاطئة إلى المجتمع الإسلامي، كشرب الخمر والمخدرات، وعقوق الآباء، والحرية الشخصية دون قيد ولا شرط، وحب الذات، والتفكك الأسري، والاختلاط المريب بين الرجال والنساء، والحب بين الشباب، وذهاب الغيرة المحمودة من استمرار النظر إلى مشاهد الاختلاط، وكشف الزوجة على الأجانب، وسفور النساء والتأثر بالفهم الخاطئ لتحرير المرأة، هذا فضلاً عن تغير المعايير عن القدوة، حتى صارت تطلعات بعض الشباب ومنتهى آمالهم أن يكون كـ «مارادونا» أو «مايكل جاكسون».

كما لعبت أفلام العنف بعقول الصغار؛ مما أدى إلى ظهور بعض التصرفات العدوانية والشاذة بينهم، ووصلت الخيالية والمحاكاة بطفل إلى أن ألقى بنفسه من نافذة أحد الأدوار العلوية بعمارة بالقاهرة محاكياً لشخصية «فرافيرو» في الطيران.

أما عن التأثير السلبي الذي يحدثه التلفزيون في التكوين النفسي والسلوكي للمشاهد، فتعد هذه الظاهرة أكثر وضوحاً في الأطفال الذين

مـا زالوا في مرحة التكوين الـذاتي التي تتأثر تأثيراً بالغـاً بالمؤثرات البيئية المحيطة)[(١)].

٦- وهذه دراسـة أخرى خطيرة قامت بها مؤسسـة (ريـادة) عن (ألعاب الفيديو وآثارها السلبية الإفسادية) قدمت لذلك مقدمة قالت فيها:

(بمـرور الوقت صـارت ألعاب الفيديـو بمنزلة ثقافـة قائمة بذاتها، فكما أنَّ أغلب الأعمال الأدبية التي تنال شـهرة واسـعة تتحول إلى أفلام. صـار كل فيلـم ناجـح يتحـول إلى لعبة إلكترونيـة، تسـتلهم رواجها من رصيد شـهرة الفيلـم (مثل: هاري بوتـر)، وأحياناً يحـدث العكس، لعبة فيديـو تلقى رواجـاً فتتحول إلى فيلم يلقى نفس الـرواج والنجاح (مثل: لعبة الوهم الأخير، ولعبة غازية القبور).

بـل إنّ الأمـر أخطـر مـن هـذا؛ حيـث إنّ تلـك الألعاب لا تشـكل -فقط- جزءًا مهماً من ثقافة الشـباب المعاصر، بل صارت جزءاً من عالمه ومحيطه، وأصبحت تؤثر بشـكل مباشر في مكونات شـخصيته، مما جعلها تشـكل عنـصراً مهـماً من عنـاصر توازنـه النفسي، بـل ربما تلهمـه ببعض ردود الأفعـال في بعض الحالات التي يواجهـا في الواقع، كما أفاد بذلك أساتذة الطب النفسي، فالألعاب تصنع عالماً افتراضياً موازياً للواقع، عالم أكثـر إبهاراً وتشـويقاً، يتفوق على عـالم الأفلام في أنّه أكثـر تفاعلية، فعند مشـاهدتك الفيلم لا تقوم سوى بدور المتفرج، لكن عند ممارسة (البلاي

---

(١) «التربية التلفازية بين الإيجابيات والسلبيات» د. خالد سعد النجار موقع (صيد الفوائد) نقلاً عن مؤسسة ريادة.

ستيشن. Play-Station) تصبح أنت المؤلف، والمخرج وبطل الفيلم.. إذن -بشكل ما- تجد أنّ الألعاب أصبحت اختياراً هروبياً من الواقع بكل تكاليفه، ومسؤولياته إلى أحضان عالم ملون طيِّع، يوهمك باستمرار أنك تستطيع حل كل مشكلاتك بضغطة زر!!

من كل هذا تأتي خطورة الوهم الذي تبيعه شركات الألعاب العملاقة حول العالم؛ فألعاب الفيديو من أكثر البضائع رواجاً، حيث تقدر تجارتها بالملايين، بل إنَّ كل لعبة يتم تصميمها وطرحها في الأسواق لابد وأنَّ يُرفق معها الجهاز الذي تعمل عليه، وبهذه الطريقة نجد سوقين لا ينفكان: سوق الألعاب، وسوق الأجهزة التي ستمارس عليها تلك الألعاب، والمحصلة: مزيد من الأرباح الخرافية لأباطرة صناعة الوهم، ومزيد من الهروب والانحدار والتبلد الذهني يجتاح المجتمع.

ثم ذكرت الدراسة أهم الآثار السلبية لألعاب الفيديو أنقلها هنا باختصار:

- **أولاً: الآثار على العقيدة:**

هناك كثير من المخالفات العقدية في ألعاب الفيديو، وهي بلا شك تؤثر سلباً على معتقدات ممارسي هذه الألعاب، ومن ذلك:

١- اعتقاد أنَّ في الكون قوىً خارقة تستطيع فعل أي شيء:

ولا يقدر عليها شيء، كما في لعبة (ميتل جير سوليد)، وفيها أنَّ نجاة العالم كلّه من التدمير النووي متوقف على (سنيك) بطل اللعبة.

٢- نشر قيم محبة غير المسلمين، والميل إليهم، وتعظيم أعلامهم:

ويكون ذلك من خلال محبة بعض الشخصيات التي تقوم بدور البطولة في تلك الألعاب، كشخصية (إيمي)، و(سنيك)، و(كلير)، و(سكوال)، و(يوشي ميتسو)، وغيرها من الألعاب التي تحبب موالاة الكفار وتعظيمهم، وأنهم صانعو البطولات والأمجاد والقدرات وغيرها، أما غيرهم فلا.

٣- نشر فكرة التشبه بغير المسلمين

ومن يشاهد أطفال المسلمين يجد ذلك واضحاً وجليًّا، وخاصة في المظهر الخارجي، فمنهم -على سبيل المثال- من يلبس السلاسل تقليداً للعبة ما؛ لأنَّ البطل في هذه اللعبة يلبس قلادة مماثلة، وغير ذلك، والأمثلة على تقليد الأطفال لأبطال هذه الألعاب والتشبه بهم كثيرة.

٤- تعظيم شعائر النصارى وطقوسهم

فكثير من تلك الألعاب تمجد النصارى والصلبان، وتُظهر الذهاب للكنائس، وترفع الصليب، ومن ذلك أنّ إحدى الألعاب صورت أنَّ طفلاً أراد أن يحقق مجدًا عالياً في لعبة معينة، ويتمثل ذلك بالصعود على مرتفع معين، وعندما عجز قام ولبس الصليب واستطاع الصعود وتحقيق المجد، وبعض اللاعبين يقومون بالتثليث حال دخولهم الملعب أو إحراز أحدهم هدفاً، كما يقومون بالصلاة على طريقة النصارى، ولا يخفى ما لهذه المشاهد من آثار سيئة على الفتى المسلم، وأقلّ هذه الآثار أنَّه سوف يتعود على رؤية مظاهر الكفر ولا ينكرها.

٥- التعدي على الغيبيات

حيث إنَّ بعض البرامج يوجد فيها: مشاهد تجسد بعض شخصيات اللعبة، ثم يقوم مرة أخرى ثم ترجع إليه روحه، وهكذا، ولا شك أنَّه يخالف العقيدة، ويخالف الواقع في أن من مات لا يعود في هذه الحياة الدنيا؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة:٨٦-٨٧].

٦- الاعتقاد في الحظ والسَّحرة والأبراج:

حيث تعمل مثل هذه الألعاب على نشوء ثقافة الاعتقاد في أمور الحظ والسحرة وغيرها من أمور الدجل والشعوذة، فمثلاً في لعبة (ذا باونسر) توجد فتاة اسمها (دومينيك كروس) تمثل نجم الحظ للجميع، حيث يمكن لها جمع الأموال الكثيرة، وتحقيق ما تريد لكل من تقابله أو تجالسه.

٧- تغيير خلق الله:

هناك لعبة أخرى تُسمى (إلين ريزركشن) وهو اسم بطلة اللعبة التي تتعرض لعملية خلط جينات من الشخصية الآلية (ريبلي)، والنتيجة أنَّها أصبحت تملك قوى الآليين الخارقة!!

٨- نشر عشق الموسيقى:

إذ قلَّما يخلو برنامج من هذه البرامج من الموسيقى، بل إنَّ هناك ألعاباً كاملة وضعت لتعليم الموسيقى، كما في لعبة (فب ريبون)، وهي عبارة،

عن أرنب تعترضه عوائق كثيرة، فعند تشغيل موسيقى هادئة تقل العوائق، وعند تشغيل موسيقى صاخبة تزيد العوائق، وهناك ألعابٌ أخرى تعتمد الموسيقى أساساً لها، ويظهر ذلك من أسمائها مثل لعبة (سامبا)، ولعبة (روك إن ميجا)، ولا يخفى تحريم سماع الموسيقى في شريعة الإسلام.

كانت هذه نماذج لعدد من المخالفات العقدية في ألعاب الفيديو، ويوجد أمثلة أخرى كثيرة لا تخفى على أحد.

جاء في إحدى الفتاوى عن بعض الألعاب الإلكترونية التي تحمل معتقدات تتنافى مع الإسلام، مثل رجل يستطيع التنبؤ بالمستقبل، ورجل يحيي من مات من جنوده، هل اللعب بتلك الألعاب مباح؟ فكان الجواب: (.. فإنَّ الألعاب التي تحمل معتقدات تتنافى مع عقيدة الإسلام لا يجوز اللعب بها، ولا بيعها، ولا اقتناؤها، ويجب على المسلم أن يحذر منها ويبعد عنها أولاده، لأنَّ التنبؤ بالمستقبل، والإخبار بالغيب، وإحياء الموتى يتنافى مع عقيدة المسلم)(١).

• ثانياً: الآثار على العبادات والأخلاق

من الآثار السلبية لألعاب الفيديو على الجانب الديني والتعبدي ما يلي:

١- إضاعة الوقت

الذي هو رأس مال العبد في هذه الحياة. ومن ضيع وقته فقد ضيع نفسه، وهو مسؤول عن هذا الوقت الذي أضاعه غداً بين يدي رب

(١) فتاوى الشبكة الإسلامية، رقم الفتوى (٣٤٩٢٤).

العالمين، وقد قال ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ**»(١).. فأحد أبرز هذه الآثار السلبية التي ابتلينا بها من تلك الألعاب ضياع الأوقات فيما لا يفيد؛ حيث إنَّ هذه الألعاب يمكن أن تستغرق ساعات اليوم كله دون أن يمل منها اللاعب، وقد كان يمكن في هذه الساعات اكتساب الفضائل النافعة كحفظ القرآن والحديث، وسماع الأشرطة النافعة، ومزاولة الرياضة التي تفيد البدن.

٢- تضييع الصلوات:

ولا يمكن لأحد إنكار ذلك، فهذه الألعاب كالمغناطيس في جذب الأطفال والمراهقين، بل والكبار أيضاً، فاللاعب إذا رأى أنَّ الصلاة سوف تقطعه عن هذه المتعة والإثارة التي يعيشها، فستكون هذه الصلاة ثقيلة عليه، وسيؤخرها عن وقتها حتى ينتهي من لعبته، وهو بطبيعة الحال لن يصليها مع جماعة المسلمين، مما قد يؤدي إلى بغضها أو تركها بالكلية.

٣- عقوق الوالدين وقطع الأرحام:

وهذا أيضاً من الآثار السلبية لهذه الألعاب.. فالتقاعس عن القيام بالواجبات من بر الوالدين أو صلة الرحم، وزيارة الجيران، كل ذلك بحجة أنَّه ليس لديه وقت، والسبب الحقيقي لذلك هو انشغاله بتلك

---

(١) الترمذي (٢٦٠٢) باب في القيامة، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٦).

الألعـاب.. فـالأم -مثـلاً- تتحسر وهـي تشـاهد ابنها يقضي السـاعات الطـوال أمام هـذه الألعاب، فتأمره بإغلاق الجهاز والذهاب إلى المسـجد للصـلاة، أو قضـاء بعض الحاجات لها، فلا يسـمع لهـا، ولا يطيع أمرها، فيقع في العقـوق -والعياذ بالله- وعقوق الوالدين كما هو معلوم من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله تعالى.

٤ - العُرِي الفاضح والإباحية:

وهـو أحـد أخطر الآثـار السـلبية لتلك الألعـاب، ويسـعى بطريقة خبيثة إلى ترسـيخ صورة ذهنية تُسـهِّل عـلى الأطفال والناشـئة -والكبار أيضـاً- تقبل العري بوصفـه أمراً عاديًّا ومقبولاً لا تلبث النفس أن تعتاده ولا تنكـره.. فالشـكل النمطـي الغالـب على أبطـال وبطـلات الألعاب الإلكترونيـة هو الظهور بملابس تحدد الجسـم، وتكشـف بعض عوراته كنوع من اسـتعراض إمكانات البطل الجسمانية، فيسـتطيع اللاعب رؤية أجسـام المصارعـين والمحاربين العارية التي لا يسـترها سـوى زي رقيق يظهر عورة الرجل والمرأة ويحددها.

تقـول الدكتورة (أفـراح الحميضي): (تحتوي بعض أشرطة الحاسـب على ألعاب تظهر فيها الشـخصيات خاصة النسائية بملابس فاضحة جدًّا، وأحياناً يضاف إلى هذه الملابس الفاضحة قيام تلك الشـخصيات بالرقص والغناء برغم أنَّ الألعاب لا تتطلب ظهور تلك الشخصيات ولا رقصهن.

وفي حين آخر تظهر في خلفية اللعبة الموجودة فتيات لا يلبسن سوى ملابس البحر العارية برغم عدم صلتهن باللعبة. وحتى في بعض أشرطة

مسابقات السيارات تظهر في بدء كل سباق بعض الفتيات حاملات الراية وهن بلباس البحر).

٥- السبّ والشّتم:

فمعظم تلك الألعاب تتضمن عبارات سباب متكررة، يطلقها بطل اللعبة بشكل تلقائي في حال تعرضه لموقف معين حسب برمجة اللعبة، فتجده -مثلاً- حين تنفذ الذخيرة من مسدسه، يطلق سبة معينة مثل (اللعنة) أو (أيها اللعين)، وحين يقتل أحد الأعداء يطلق سبة أخرى مثل (إلى الجحيم أيها الوغد) وغيرها،.. بل إنَّ بعض الألعاب تعتمد السباب والشتم كأحد وسائل اللعب، كما في لعبة (كويك ٣ آرينا)؛ ففي هذه اللعبة يسمح للاعبين بشتم بعضهم بعضاً عن طريق نظام الرسائل والسخرية. وقد تكون هناك إشارات مخلة بالآداب والحياء يقوم بها بعض اللاعبين.. وهكذا تجد اللاعب الذي يدخل إلى تلك اللعبة بقاموس محدود الكلمات السيئة أو معدوم، يخرج وقد امتلأ قاموسه بألفاظ بذيئة وقبيحة، تصبح جزءًا لا ينفصل عن شخصيته، بل يبدأ في التعامل بها في حياته. نقلاً عن تلك التجربة الخبيثة التي مرَّ بها.

• ثالثاً: الآثار الثقافية

إن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة على مائدة النقاش حول الألعاب الإلكترونية. هو: أهذه ألعاب يقتصر الغرض منها على الترفيه فقط أم أنها تعد أيضاً وسائط ثقافية؟!

والجواب: أن الألعاب كانت قديماً تتصف بأمرين:

الأول: أننا لم نكن ننفصل في ألعابنا عن ثقافتنا وقيمنا، فثقافتنا قبل اللعب، وفي أثنائه وبعده واحدة لم تتغير، فلم نكن نعيش قيماً متناقضة، ولم نكن نعاني من صراع ثقافي تسببه تلك الألعاب، بل كانت تلك الألعاب تساهم في تنشئتنا تنشئة اجتماعية، كما يريدها البيت والمجتمع.

الثاني: كانت ألعابنا جماعية، فلم نكن ننفصل عمن حولنا، وكانت قيمة اللعب ولذته تزداد كلما كثر اللاعبون، ولا أستحضر الآن لعبة فردية من شروطها أن ينعزل فيها اللاعب عمن حوله.

وحتى الألعاب التي وفدت إلينا كلعبة كرة القدم أو الكرة الطائرة أو تنس الطاولة وغيرها، كلها تتسم بهاتين السمتين.

ولكن ومع ظهور الألعاب الإلكترونية مثل (البيكمون)، و(البلاي ستيشن)، و(الأتاري)، وغيرها تغير الأمر؛ حيث أصبح الطفل حينما يلعب ينتقل إلى ثقافة أخرى، إذ أصبح يتعامل معها وفقاً لقيمها، ويستمتع باللعب وحده، فينفصل عمن حوله، ومن ثم فهي ليست مجرد ألعاب، ولكنها وسائط ثقافية تهيمن من خلالها الثقافة الغربية على أطفالنا، ولأنها في الحقيقة وسائط ثقافية فهي تعمل على إعادة صياغة شخصية الطفل وفقاً لثقافة أخرى غير ثقافته الإسلامية، وهذه الصياغة تشمل مشاعره، وطريقة تفكيره، وقيمه، ومفهومه لذاته، مما ينعكس سلباً على سلوكه وعلاقته بنفسه وبغيره.

• **رابعا: الآثار النفسية**

هناك بعض الآثار السلبية النفسية التي تظهر على مدمني ممارسة ألعاب الفيديو أبرزها:

١- اضطراب الأعصاب وتوترها دائماً؛ بسبب الإثارة المستمرة التي يعيشها اللاعب.

٢- تنامي عقدة الخوف والفزع؛ فهناك كثير من المناظر المخيفة التي تؤذي اللاعب نفسيًّا، وقد تستمر في مخيلته وتطارده حتى في نومه، مثال ذلك: دخول اللاعب المقابر المخيفة في لعبة (فاينل فانتسي ٨)، والدخول إلى مشرحة الأموات، ورؤية الجثث كما في لعبة (هاف لاين جينريشن).

٣- تؤدي هذه الألعاب في بعض الأحيان إلى تنامي روح العزلة لدى الأطفال؛ فبينما كان اللعب قبل ألعاب الكمبيوتر يعتمد على التجمع وتعدد الأشخاص، أصبح بإمكان الطفل أو المراهق أن يجلس أمام جهاز الألعاب وحده ثمان ساعات متتابعة دون أن يحتاج إلى صديق.

٤- في مسح أكاديمي للاعبي الألعاب على شبكة (الإنترنت) وجد الدكتور (ستيفن كلاين) من جامعة (سايمون فريزر) الكندية أنَّ ٣ من كل ١٠ لاعبين يعترفون بأنهم يلعبون هذه الألعاب عوضاً عن القيام بنشاطات ضرورية أو أكثر أهمية، وفي دراسة لها وجدت الدكتورة (يونغ) أنَّ ٥٢٪ من مدمني الألعاب على الإنترنت يعانون من الاكتئاب الإكلينيكي، أو من إدمان سابق، أو من مشكلة القلق،

وتقـول: (إذا كان المـرء مصاباً بالاكتئاب، فإنه يعاني مخاوف شـديدة مـن رفض الآخرين له، ويحتاج من ثم لنوع من القبول منهم. وحينما يشارك المرء في هذه الألعاب على (الإنترنت)، فإنّه يشعر بأنّه في مكان بديع؛ لأنَّه يستطيع التخفيف من اكتئابه.

٥- تـؤدي هذه الألعاب إلى زرع العديد من الصفـات الذميمة والقبيحة مثـل الأنانيـة؛ فهي تجعـل الطفل أنانيًّـا لا يفكر إلا في إشـباع حاجته من هذه اللعبة، وكثيراً ما تُثار المشـكلات داخل الأسرة الواحدة بين الإخـوة الأشـقاء حول من يبـدأ باللعب، أو من يلعـب، على عكس الألعاب الشعبية الجماعية التي يدعو فيها الطفل صديقه للعب معه.

• **خامساً: الآثار السلوكية**

١- ظاهرة ازدياد العنف لدى الأطفال

لأنّ معظم هذه الألعاب مبني على الضرب والقتل والفتك والقسوة، بل إنَّ هناك برامج تعلم الفتيان كيفية الضرب بالأيدي، والركل بالأرجل، كما في (أوبان كيوس)؛ حيث تقوم (دي آرسي) بطلة اللعبة (وهي شرطية مبتدئة) بالاشتباك بالأيدي والأرجل مع خصومها، هذا بالإضافة إلى كثير من أشرطة ألعاب العنف كالمصارعة، والملاكمة، والكنغوفو. وغيرها.

وقـد ذكرت دراسـتان علميتـان -نشرتا في نـشرة (برسـوناليني آند سوشـال سـايكولوجي) العلميـة- أنَّ ألعـاب الفيديو العنيفـة يمكن أن تزيد من درجة العدائية لدى الأشـخاص أكثر من برامج التلفزيون؛ لأنّها

تشترط مشاركة فعلية للفرد، وتحمله في غالب الأحيان على تقمص دور المعتدي، وأعلن عالما النفس (كريج أندرسون) و(كارن ديل) اللذان أعدا الدراسة أن الشبان العدائيين بطبيعتهم يمكن أن يكونوا أكثر تأثراً بالتعرض المستمر للألعاب العنيفة.

٢- التخريب والإفساد والخروج عن الأنظمة

كما في لعبة (جيت سيت راديو)، حيث يقوم اللاعب فيها بتحطيم الجدران، وتشويه المباني بواسطة علب البخاخات الملونة، وفي هذه اللعبة يعرف اللاعب أنّه خارج على النظام ومع ذلك يتمادى في عمله، ويختبئ من رجال الأمن ويضحك منهم، وكأنهم بهذه اللعبة يقولون للمراهق: أفسد وخرب، وإذا خططت لذلك تخطيطاً سليماً فلن يكتشفك أحد.

٣- الإصابة بجنون السرعة

تؤدي ألعاب مثل (سباق السيارات) إلى إصابة المراهقين بما يسمى (جنون السرعة)، مما يؤدي إلى وقوع كثير من حوادث السيارات نتيجة التأثر بهذه الألعاب.

- **سادساً: الآثار الصحية**

لا شك أنَّ الجلوس أمام شاشات الألعاب الإلكترونية لأوقات طويلة يؤدي إلى آثار سلبية على صحة الفرد مثل: ضعف الإبصار، نتيجة الإشعاعات الضارة التي تتوجه إلى حدقة العين، واستنفاد طاقات

الأطفال والمراهقين، بحيث لا تكون لديهم قدرة على مزاولة عمل نافع، والإصابة بانحناء في الظهر، وتقوس العمود الفقري.

وقد أكدت عديد من الدراسات العلمية أنّ جلوس الأطفال أمام التلفزيون، ومشاهدة أفلام الكرتون، والأفلام المثيرة، وممارسة أنواع الألعاب الإلكترونية (البلاي ستيشن) لأوقات طويلة سبب رئيس في إصابة الأطفال بالسمنة وزيادة الوزن، إضافة إلى تناولهم الطعام المشبع بالدهون، وقلة النوم، وتأخر مواعيد ذهابهم إلى فراشهم، وتراجع المجهود البدني، وعدم ممارستهم الرياضة.

• **سابعاً: الآثار الاقتصادية**

ويتمثل هذا في إهدار الأموال على شراء تلك الأجهزة، وشراء البرامج والألعاب، ثم في صيانتها.. وهناك من لا يكتفي بجهاز واحد أو بعض الألعاب، بل يعمل على اقتناء كل جديد، وقد يتعمد إتلاف ما عنده ليشتري الجديد)[١].

مفاسد أخرى للغزو السلوكي

بالإضافة إلى ما سبق ذكره مما ينشره الإعلام بوسائله المختلفة من إفساد للأخلاق والأعراض، أذكر هنا سرداً مجملاً لأخلاق وسلوكيات أخرى فاسدة، يقوم بها أعداء الإسلام من كفرة ومنافقين في غزوهم لبلدان المسلمين سلوكياً وأخلاقياً، ومنها:

---

(١) انظر: (ألعاب الفيديو) إعداد مؤسسة ريادة الإعلامية (ص١٣-٢٨) باختصار يسير، ولمعرفة مراجع هذه الدراسة ينظر إلى الدراسة التي أجرتها المؤسسة عن هذا المبحث.

١ - الإغـراق في الترف والدعة والركـون إلى الدنيا وزينتها والإسراف في التمتع بها، وتكثيف الدعاية لذلك في وسائل الإعلام المختلفة، حتى أصبح التنافس في التوسع في المطاعم والمساكن والملابس والكماليات المختلفـة وأنواع الزينة للمرأة سـائداً بين أكثر النـاس، فصارت أكبر همهم، ومبلغ علمهم.

٢ - شـيوع الحسـد والمظالم والتناجش والتقاطع والتباغـض بين كثير من المسـلمين والقرابـات بسـبب التنافـس عـلى الدنيـا وتجارتهـا، وهذا مصداق قوله ﷺ: «**مَا الْفَقْرَ أَخْشَـى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَـى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُـمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُـمْ**»[١]. هذا إذا كان حلالاً، فكيف إذا كان أكثر كسب الدنيا بطرق محرمة كما هو شائع الآن.

٣ - تضخيـم حقوق المـرأة وكأنها مهضومة الحـق، وتحريضها على التمرد عـلى زيها وزوجها وأسرتها، واسـتهانتها بحجابها ولباسـها وتجرئتها عـلى الاختـلاط بالرجـال، فكثـرت المشـكلات الزوجيـة، وكثرت حـالات الطلاق وفسـاد الأعـراض، وضعفت الغيرة عنـد كثير من الرجال على مولايتهم.

٤ - السـعي في تغريب مجتمعات المسـلمين بتغيير أنماط الحياة الإسـلامية فيهـا والتصـورات، وتحويلهـا إلى أنـماط الحيـاة الغربيـة المنبتـة عـن العقيدة والأخلاق النبيلة والسلوك النظيف، وتسخير جميع الوسائل الإعلامية والدعائية والأسفار والسياحة، واستخدام المخدوعين من

(١) البخاري (٢٩٨٨)، مسلم (٢٩٦١).

أبناء المسلمين بالغرب وسلوكياته وأفكاره في نشر التغريب والدعاية له، واستخدام أصحاب القرار في حكومات المسلمين في تنفيذ ذلك، وإصدار القوانين والأنظمة التي تسهل العملية التغريبية في مجتمعات المسلمين.

٥- السعي في نشر المنكرات المختلفة في المجتمعات الإسلامية ومحاولة تطبيعها وفرضها بقوة السلطان، وعدم الاكتراث بإنكار المنكرين حتى يتحول المنكر مع الوقت إلى أمر مألوف غير مستنكر. ومن مكرهم في هذا الشأن اعتمادهم على بعض الأقوال الشاذة والمهجورة لبعض أهل العلم في القديم والحديث في إضفاء الشرعية على مثل هذه المنكرات.

٦- نشر الفرقة بين المسلمين وإذكائها، ولا سيما في أوساط الدعاة العاملين للإسلام، حتى لا يكونوا يداً واحدة في مواجهة الفساد والمفسدين، واستخدام بعض المنتسبين إلى العلم في تغطية هذا الخلاف بغطاء شرعي، يزعمون فيه الغيرة على الدين والوقوف في وجه أهل الغلو والبدع.

الفصل الثالث

المواقف المختلفة من غزو الأعداء

بالنظر إلى ما يدور من الأحداث الخطيرة والمتسارعة والغزو المكثف لبلدان المسلمين اليوم، وما نشأ عنه من صراع بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر والنفاق، سواء ما كان منه غزواً عسكرياً للمسلمين في عقر دارهم، كما هو الحال في بلاد العراق وفلسطين وسوريا وأفغانستان، وما صاحب ذلك من التداعيات، أو ما كان منه غزواً فكرياً أو أخلاقياً كما هو الحاصل في عامة بلدان المسلمين الذي سبق تفصيله، أقول: بالنظر لهذا الغزو والصراع في ضوء سنة الابتلاء والتمحيص نرى أن هذه السنة الربانية الثابتة تجري وتؤثر أثرها بقدر الله ﷻ وحكمته؛ ألا وهو تمحيص المؤمنين وتمييز الصفوف، حتى تتنقى من المنافقين وأصحاب القلوب المريضة؛ وحتى يتعرف المؤمنون على ما في أنفسهم من الثغرات والعوائق التي تحول بينهم وبين التمكين لهم في الأرض، فيتخلصوا منها، ويغيروا ما بأنفسهم، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، فإذا ما تميزت الصفوف وتساقط المتساقطون في أتون الابتلاء، وخرج المؤمنون الصادقون منها كالذهب الأحمر الذي تخلص من شوائبه بالحرق في النار حينها تهب رياح النصر على عباد الله المصطفين الذين يستحقون أن يمحق الله من أجلهم الكافرين، ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وقبل هذا التمحيص

والتمييز فإن سنة محق الكافرين وانتصار المسلمين التي وعدها الله ﷻ عباده المؤمنين لن تتحقق.

هكذا أراد الله ﷻ وحكم في سننه التي لا تتبدل: أن محق الكافرين لابد أن يسبقه تمحيص المؤمنين، ولذلك لما سئل الإمام الشافعي رحمه الله: أيها أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟ كان من دقيق استنباطه وفهمه لكتاب الله ﷻ أن قال: «لا يُمَكَّن حتى يبتلى»[(١)]، ولعله فهم ذلك من قوله -تعالى-: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١]. فإن الله ﷻ ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- فلما صبروا مكنهم.

وللتدليل والتأكيد على أن مجتمعات المسلمين تعيش اليوم حالة شديدة من الابتلاء والتمحيص والفتنة في هذه النوازل: أذكر بعض المواقف التي أفرزتها هذه السنة -أعني سنة الابتلاء والتمحيص- في خضم هذه الفتن المتلاطمة، ولم يكن لهذه المواقف أن تعرف ويعرف أهلها قبل حصول هذه الفتن، وقد ظهرت هذه المواقف مع أننا في أول السنة وبداية الابتلاء، فكيف يكون الحال في آخر الأمر، نعوذ بالله أن نرجع على أعقابنا أو أن نفتن، وفي ذكر هذه المواقف نصيحة وتحذير لنفسي ولإخواني المسلمين من الوقوع فيها والاستعانة بالله ﷻ في الخروج منها لمن وقع فيها.

---

(١) ذكر هذا الأثر الإمام ابن القيم في «زاد المعاد» (١/ ٢٠٨).

• **الموقف الأول: موقف المنافقين والمرجفين:**

النفـاق داء عضـال في الأمـة، ولقد عانـت الأمة في تاريخهـا الطويل مـا عانت مـن الخيانات ومظاهـرة الكافرين وكشـف عورات المسـلمين لأعدائهم، ومن عادتهم أنهم لا يظهرون إلا في أيام المحن الكبيرة والنوازل العظيمة التي تمر بالمسلمين، حيث يظهر الله عوارهم ويفضحهم ويكشف أسرارهـم، وهذا من رحمة الله ﷻ وحكمتـه في حصول الابتلاءات، ومن ذلـك مـا كان منهم يوم الأحـزاب يوم أن أحـاط المشركـون وحلفاؤهم بالمدينـة، ونقضت اليهـود عهدها مع رسـول الله ﷺ، وزلزل المسـلمون زلـزالاً شـديداً، وعنـد ذلك نجـم المنافقـون والمرجفـون والمعوقون ممن كانوا مندسـين في الصف المسلم، ويكفينا في وصف حال المنافقين في هذه الغزوة قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:١٢-١٤] إلى قوله –تعالى–: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:١٨].

وهـا نحن في هـذا الزمان نشـاهد فريقـاً منهم يقفون نفس الموقف الـذي وقفـه إخوانهم يـوم الأحـزاب؛ وذلك عندمـا رأى منافقـو زماننا ما أحاط بالمسـلمين من النـوازل، ورأوا إخوانهم مـن الصليبيين يحيطون ببلـدان المسـلمين، فظهـر نفاقهم وبـدا للناس مـا كانوا يخفـون من قبل،

وأصبحنا نسمع منهم الإرجاف وترديد ما يقوله الكفرة الغزاة عن المجاهدين والدعاة الصادقين، وراحوا يحرضون عليهم ويشمتون بما يصيبهم من المحن والمصائب، وصاروا يبثون في الأمة اليأس من مقاومة الغزاة، ويحسنون الكفرة الغزاة في عيون المسلمين، ويستبشرون بمجيئهم ويساندونهم في تنفيذ مخططاتهم لغزو العقيدة والأخلاق، قال الله -تعالى- في وصف سلفهم من المنافقين الأولين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر:١١].

وقال -سبحانه وتعالى- عن شماتتهم بالمؤمنين، وإشاعة اليأس والإرجاف، وإساءة الظن بالله ﷻ ووعده: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح:١٢].

ولم يعد خافياً على أحد ما يطرحونه في وسائل الإعلام المختلفة، وبكل وقاحة ودون حياء ولا خوف من الله ﷻ أو من الناس، وذلك فيما يتعلق بثوابت الدين، أو ما يتعلق بالمرأة وتغريبها والتحريض على خروجها ومخالطتها للرجال، والزج بها في أعمال لا تناسب طبيعتها، مما فيه مخالفة للفطرة والشريعة.

وليس المقصود هنا تتبع ما يفعله المنافقون والمرجفون في هذه السنوات الأخيرة، والمحن العصيبة التي تمر بالمسلمين، وإنما المقصود التدليل على

أن سنة الله ﷻ في الابتلاء والتمحيص أنها تكشف وتفضح المنافقين، وتبرزهم في مجتمعات المسلمين، كما فضح الله ﷻ إخوانهم وسلفهم في غزوة الأحزاب، وغزوة أحد، وغزوة تبوك التي أنزل الله ﷻ فيها سورة كاملة، هي سورة التوبة التي من أسمائها الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين وميزتهم، وهذه من الحكم العظيمة، والفوائد الجليلة لسنة الابتلاء؛ إذ لو بقي المنافقون في الصف المسلم دون معرفة لهم؛ فإنهم يشكلون خطراً وتضليلاً وتلبيساً للأمة، أما إذا عرفوا وفضحوا وتميزوا، فإن الناس يحذرونهم، وينبذونهم ويجاهدونهم بالحجة والبيان، أو بالسيف والسنان إن ظهر انحيازهم للكفار ومناصرتهم لهم، ووجدت القدرة على ذلك، وبذلك يتخلص المسلمون من سبب كبير من أسباب الهزيمة والفشل، ويتهيئون لنصر الله ﷻ وتأييده.

وها هي الأحداث في سوريا ومصر كم كان فيها من الخير في فضح المنافقين من الرافضة الباطنية أو العلمانيين والليبراليين الذين أظهروا كرههم وحقدهم للمسلمين الصادقين، وانحيازهم إلى خندق الكافرين المجرمين ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

- **الموقف الثاني: موقف اليائسين والمحبطين والمخذلين**

لما كشف أعداء هذا الدين من الكافرين وبطانتهم من المنافقين عن عدائهم الصريح وحربهم المعلنة على الإسلام وأهله، وعندما تعرض كثير من المسلمين ومؤسساتهم الدعوية والخيرية للمضايقة والأذى من الكفرة والمنافقة، شعر بعض المسلمين حينئذ بشيء من اليأس والإحباط

والخوف، وبخاصة لما قام شياطين الإنس والجن يبثون وساوسهم وشبههم في تضخيم قوة الأعداء وأنها لا تقهر، وأن المنكرات عمت وطمت، ووسائلها سيل جارف لا يمكن مقاومته عندها: سيطر على بعض النفوس اليأس من ظهور هذا الدين والتمكين لأهله؛ فكان منهم فئة ظهر ضعف يقينها ومرض قلوبها في هذه الابتلاءات فشكت في ظهور هذا الدين، واهتز يقينها بوعد الله -تعالى- بنصرة دينه، وهؤلاء على خطر يهدد إيمانهم، ويخشى أن يقعوا في فتنة المنافقين الظانين بالله ظن السوء.

وفئة أخرى لم يساورها الشك في ظهور دين الله -تعالى-: ونصره لأوليائه، وإنما أصابها اليأس من ذلك في هذا الزمان، حيث رأت أن المسلمين اليوم غير قادرين على المواجهة لعدم تكافؤهم مع عدوهم، وعليه فلا داعي للمقاومة التي لا تفيد شيئاً، وإنما هي بمثابة المحرقة التي تحرق المسلمين وبخاصة المجاهدين منهم، والحل عند هؤلاء: الاستسلام للواقع أو اعتزاله، وانتظار معجزة ربانية من الله ﷻ كانتظار المهدي أو المسيح عيسى ابن مريم -عليه الصلاة والسلام-!! ولا يخفى ما في هذا التصور من الانحراف والشطط، وكم هو مفرح للكفرة والمنافقين مثل هذا التفكير ومثل هذه المواقف المستخذية التي تبث اليأس في نفوس المسلمين، وتعيقهم عن بذل الجهد في الدعوة ومدافعة الفساد والأخذ بالأسباب الشرعية والمادية للنصر على الأعداء.

وإن مواقف الخوف واليأس والإحباط ما كانت لتعرف لولا سنة الابتلاء والتمحيص. وظهور هذه السنة وعملها اليوم في حياة المسلمين

هي التي أفرزت وأظهرت مثل هذه المواقف، وفي ظهورها فائدة لأصحابها لعلهم أن يراجعوا أنفسهم، ويقلعوا عن هذه المواقف بعد أن اكتشفوا هذا المرض الكامن في نفوسهم بفعل هذه السنة، كما أن فيه فائدة أيضاً لغيرهم ليحذروا من هذه المواقف، ويحذروا ممن ينادي بها؛ قال الله -تعالى- في تحذير عباده المؤمنين من الوهن واليأس والإحباط: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

وقال -سبحانه وتعالى- في وصف عباده الصابرين والموقنين بنصره ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨].

وقال -سبحانه وتعالى- في وصف أصحاب محمد ﷺ لما تحزبت عليهم الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

- **الموقف الثالث: موقف أهل الدنيا الراكنين إليها اللاهثين وراء حطامها، المتنافسين عليها**

وأهل هذه المواقف هم الذين لا هم لهم إلا هذه الدنيا والتمتع بلذاتها، ولا هم لهم إلا أنفسهم وأسرهم، وتوفير متاع الدنيا الزائل لهم.

أمـا مـا يتعرض له الدين وأهله من أذى وإفسـاد وابتلاءات فقد كشـفت سـنة التمحيص أن هذا ليس من همهم، بل قلوبهم باردة سـاكنة ما دامت مسـاكنهم ومطاعمهم ومشـاربهم سـالمة لهم. ودورهم في نوازل الأمة أن يسـألوا عـن أخبارهم وما حـل بهم، ولا يتجاوز الأمـر ذلك، قال الله ﷻ عن أمثـال هـؤلاء: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٠].

• **الموقف الرابع: موقف المسايرين للواقع أهل الحلول الوسط**

وهم الذين نظروا إلى شـدة ما يصيب المسـلمين في هـذه الأزمنة من الأذى والتضييـق والابتـلاءات المتنوعة، فرأوا أن الثبـات والصمود على ثوابـت هـذا الدين والصبر على أحكامـه الشرعية، ومصادمـة الواقع مما يصعب في مثل هذه الظروف؛ لأن أعداء هذا الدين لا يرضون بذلك، بل يوجهون حربهم إلى هؤلاء الثابتين الذين يطلقون عليهم تارة: الأصولية، وتارة: المتشددين، وتارة: الإرهابيين، والخطير في هذه المواقف الانهزامية أنها تغطى بشـبه شرعية، ويحاول أصحابها أن يؤصلوا ضعفهم ومواقفهم هذه بأدلة، يزعمون أنها قواعد شرعية مع أنها غير منضبطة بضوابط الشرع ولا ملتزمـة بمقاصده؛ كاسـتدلالهم مثلاً بالـضرورة وأحكامها، وقواعد التيسـير ورفـع الحـرج، وبالمصالح المرسـلة وغيرها، مما هـي صحيحة في أصلها لكنها فاسدة في تطبيقها(١).

(١) للرد على هذه الشبهات انظر كتاب «فاستقم كما أمرت» للمؤلف.

وعلامـة أصحـاب هـذا الموقف أنهـم يصفـون أنفسـهم أو يصفهم غيرهـم بالمعتدلـين أو التنويريـين، وهـذه المواقف ما كانـت لتعرف لولا سـنة الابتـلاء التـي تمحـص وتميـز الصفـوف، ويكشـف الله بهـا كوامن النفـوس التي يعلمها الله مسـبقاً، لكنه -سـبحانه- يظهرها للناس بفعل سـنة الابتلاء والتمحيص، وصدق الله العظيم: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

يقول الأستاذ إياس المزني واصفاً لهذه الحالة:

(تسربـت إلى السـاحة الإسـلامية، واعـترت الفهـم الإسـلامي في الدعـوة الاسـتعجال واسـتبطاء النتائج. ومـن أهم الأسـباب التي أدت إلى هـذا الحـال، ضغط الجاهلية، وقوة وسـائلها في الحيلولـة دون الدعوة والوصول إلى أهدافها.

فإلى ماذا أدَّى هذا الموقف؟

الملاحـظ: أنـه أدى ببعـض العاملين إلى الانسـحاب والنكوص عن طريـق الدعوة.. أما هذه النتيجة فليسـت من مقاصد الكلام، لأنها نتيجة واضحـة، والموقف منها -تبعاً لذلـك- لا يحتاج لكثير بيان، فهي -إذن- ليست محلاً للبحث في «ميزان الحكمة».

إن النتيجة الخطيرة والدقيقة لهذه العلة تتمثل فيمن يبقى مسـتمراً في طريق الدعوة، لا يُصرح بالخروج عنها، ولكنه يصاب بالملل من التمسك

بالثوابت التي قام في الأصل يدعو إليها! والغطاء المستخدم عادة في مثل هذه التحولات هو التنازل المُبرَّر!..

...ومن المهم التوضيح أن هذا الموقف يبرز عندما تمل الجاهلية من أساليب القمع والسجون، لأنها ترسخ التمسك بالدعوة، وتميل إلى ما هو أخطر، وهو محاولة الاحتواء وتمييع الطرح الإسلامي.

وتعلن الجاهلية: تفضلوا، اعملوا للإسلام من خلال مؤسسات الدولة! واعرضوا برامجكم على الناس، ولتحققوا ما تستطيعون من مكاسب.

إن دعوة الجاهلية الدعاة إلى الإصلاح من خلال مؤسساتها، تمثل إغراءً تصعب مقاومته، وتؤثر سلباً على المنهج السليم في التغيير..

لقد واجه رسول الله ﷺ مثل هذا الموقف. واقع صعب ضاغط، وعروض من الجاهلية توهم بالتنازل: كن ملكاً، كن أغنانا، كن سيدنا.. فلم ينثن ﷺ، ولم ينسحب إلى التأويل، بل بقي ثابتاً على مبادئه «النظرية» التي بدأ بها..

.. إن أمام الدعاة طريقاً طويلاً وصعباً، وإن بداية الفتنة تأويل، ووضوح الغاية المنسجمة مع القدرات المرحلية حاجز أمام الفتنة، ومانع من أن يقف لك أحدهم كالشوكة في الحلق؛ ليرد عليهم قائلاً: «هناك فرق بين التنظير والواقع.. وكلامك نظري»[1] ا.هـ.

---

(١) مجلة السنة العدد (٦٧).

وتأييداً لهذا الكلام فلتنظر إلى تجربة جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر، وتجربة حماس في غزة، وآخرها وأشدها مأساة تجربة الإخوان في مصر وانقلاب السيسي وزمرته العلمانيين على حكومة الإخوان المنتخبة، وتحويل البلاد إلى حمام دم ومعتقلات.

وقد أخبر النبي ﷺ أن المتمسك بدينه في آخر الزمان يعد غريباً بين الناس، ووصفه بأنه كالقابض على الجمر، وهذا الوصف لا يقدر عليه إلا أولوا العزم من المؤمنين الصابرين؛ قال ﷺ: «**إِنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**» قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «**الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ**»(١).

وقال ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ**»(٢).

ولا يخفى على من يراقب اليوم كثيراً من الفتاوى والحوارات التي تقوم بها بعض الصحف والمجلات والقنوات الفضائية ما تحمل من هذه المواقف المتميعة، والتي يحاول أصحابها أن يتشبثوا بأدنى شبهة أو أدنى قول شاذ، يخالفه الدليل الصحيح من الكتاب والسنة، وهذه المواقف والفتاوى لم تقتصر على الأحكام فحسب، بل وصلت إلى أصول العقيدة وأركانها والتميع في تناولها، وبخاصة ما يتعلق بمسائل الإيمان والكفر

---

(١) تحفة الأحوذي (٢٣٦١) (٦/ ٥٣٩)، وقال الترمذي: حديث غريب. وقال الأرناؤوط في «جامع الأصول»: له شواهد يرتقي بها.

(٢) الترمذي (٢/ ٤٢)، وابن بطة في «الإبانة» (١/ ١٧٣)، وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني بشواهد في «السلسلة الصحيحة» (٩٥٧).

وحدودهما، أو بمسائل الولاء والبراء، أو ما يتعلق بالجهاد وأحكامه، والمقصود أن سنة الابتلاء والتمحيص التي نعيشها هذه الأيام قد أفرزت مثل هذه المواقف، ولله ﷻ الحكمة في ذلك؛ لأن في ظهورها خيراً لأهلها، لعلهم يحاسبون أنفسهم فيتخلصون منها كما أن فيها خيراً أيضاً لغيرهم حتى يحذروها ويحذروا منها.

• **الموقف الخامس: موقف المتعجلين المغيرين بالقوة دون مراعاة لفقه الموازنات:**

وهذا الموقف يقابل الموقف السابق وإن كان يجمعهما استعجال النتائج واستبطاء النصر، فبينما ينحى الموقف السابق إلى التنازل عن بعض الثوابت والتعلق ببعض الشبهات والشذوذات الفقهية، يذهب أصحاب هذا الموقف إلى الطرف المقابل، حيث لم يصبروا على ما يرون من شدائد ومحن وابتلاءات توجه للمسلمين في دينهم وأعراضهم وعقولهم، ورأوا أن الموقف إزاء مثل هذه الابتلاءات هو المواجهة المسلحة، دون أن ينظروا إلى ما يترتب عليها من مفاسد كبيرة، ودون أن ينظروا إلى واقعية المصالح التي يسعى لتحقيقها من عدمها، فنشأ من جراء ذلك أضرار عظيمة عليهم وعلى الدعوة وأهلها في المحيط الذي تدور فيه هذه المواجهات.

وهنا أود التنبيه إلى أنه ليس المعني في هذه المواقف تلك الحركات الجهادية، التي تدافع عن المسلمين وديارهم في أفغانستان والعراق والشيشان وفلسطين وكشمير وسوريا وغيرها، ممن يقوم بجهاد الدفع عن ديار المسلمين المحتلة، وإنما المعني هنا أولئك الذي يرون المواجهة

المسـلحة في بعض بلدان المسلمين قبل وضوح راية الكفر في تلك البلدان للنـاس، ودون وضوح راية أهـل الإيمان في مقابل ذلـك، ودون قدرة مما ينشـأ عنه اللبـس والتلبيس عـلى النـاس، فتختلـط الأوراق ويجد هؤلاء المجاهـدون المتحمسـون أنفسـهم وجهـاً لوجه مـع إخوانهم المسـلمين، فحينئـذ تقع الفتنة بين المسـلمين، ويقتل بعضهم بعضـاً، كما قد حصل في بعض بلدان المسلمين.

أما تلك الحركات الجهادية التي أعلنت جهادها على الكفار في العراق وأفغانسـتان لمواجهة التحالف الصليبي، أو في كشـمير لمواجهة الهندوس والوثنيين، أو في الشيشـان لمواجهة الملاحدة الشـيوعيين، أو في فلسـطين لمواجهـة اليهـود الغاشـمين، أو في سـوريا لمواجهة النصيريـة والروافض الباطنيين، فإنها حركات مشروعة لوضوح الراية الكفرية ووجود القدرة، وزوال اللبـس عن المسـلمين في تلـك الأماكن، كما أنه جهـاد للدفاع عن الدين والعرض والمكان حتى لا ترتفع فيه راية الكفار.

والـذي حملني على هذا التنبيه ما نسـمعه -ويا للأسـف- من بعض الفتـاوى المتسرعـة التـي مفادهـا أن القتال ضـد الغزاة الكفرة في سـوريا والعراق وغيرها من بلدان المسلمين المغزوة عسكرياً هو قتال فتنة وتعجل وافتئـات على الأمة، وهذا من صور الابتلاء الذي يتعرض له علماء الأمة في هذه الأزمنة.

جـاء في إحـدى افتتاحيات مجلة البيان مقـال بعنوان ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ يلخص فيه المواقف السابقة، وقد جاء فيه:

(ليس أضر على الدعوات من أن يتسرب اليأس إلى أفرادها، أو يصيبهم الوهن والضعف بسبب محنة أو ابتلاء، فهذا مرض قاتل حذر الله المسلمين منه بعد غزوة أُحد، فخاطبهم قائلاً: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، فإن من سنة الله في الدعوات أن تنتصر وتنهزم، وتُبتلى بالمصائب ونقص الأفراد والأنفس؛ لتكون دروساً قاسية يتعلم فيها المسلم أشياء لم يكن ليتعلمها بالوعظ والكلام.

لقد ابتليت الدعوات في هذه الأيام بتسلط الظالمين المفسدين يؤُزّهم من ورائهم شياطين الإنس من كل ملة ودولة، بل إن المتتبع لما يجري على الساحة في أنحاء العالم الإسلامي ليجد تصميماً عجيباً على إقصاء الإسلام وإبعاده عن الفعل والتأثير، ويقابل ذلك دعوات مخلصة، ولكن مع تفرق في الصف الإسلامي، وضعف في الأخذ بالسياسة الشرعية المناسبة لكل حدث ومعرفة سنن الله في التغيير.

وقد علَّمتنا دروس التاريخ القديم والحديث أنه بعد الفتن والمحن يخرج أصناف من الناس إذا عرفنا توجهاتهم، فلعلنا نخرج بأقل الخسائر.

هناك صنف من الناس سيصاب بإحباط شديد وبصدمة عنيفة، فهو لم يتوقع أبداً ما يحدث ولم يُعد للأمر عدته، ولم يتعود إلا على سماع الأخبار التي يحبها، ذلك لأنه عاطفي خيالي، فهو يرى أن دولة الإسلام قاب قوسين أو أدنى لما يرى من كثرة المقبلين على هذا الدين، ولما سمع من أن الإسلام قادم (وهو قادم بإذن الله)، هذا الصنف لا ينقصه الإخلاص، ولكن تنقصه التجربة والوعي العميق بتاريخ الدعوة وتاريخ الدول، وأسباب النجاح والفشل.

فخـرج في المقابـل صنف ينقصـه الفقه بمقاصد الشريعـة، يقول: لا فائـدة من الدعوة والعمل والكلام.. ولا يحل المشـكلة إلا القوة، فهذا في الظاهر شـجاع ولكن في الحقيقية يقـوم بعملية هروب، ولكنه هروب إلى الأمام!

وصنـف ثالث مخالف تماماً للنصف السـابق، إنـه في الطرف الآخر، فهـو يـرى أنه لا داعـي إلى التضحيـات والعمـل الدعـوي والتعاون مع إخوانه في سـبيل الحق، فالقضية تحتاج إلى نفس طويل، وعودة إلى الكتب والقـراءة مـن جديـد والفكر، والحـوار، وعـدم العنف (والجهـاد -عند هـؤلاء- عنف!)، وهذا الـكلام ظاهره فيه شيء من الحق وباطنه الهروب من الاستمرار والمواجهة.

إن العـودة للنقـد الذاتي والتعمق في فهم أخطـاء الماضي شيء طيب، ولكن هذا الصنف -مثل المرجئة- إنما يريد الهدوء وراحة البال.

وظهر صنف رابع هو من أخطر هؤلاء، هذا الصنف كان يكتم حب الظهور والرئاسـة؛ لأن الوقت غير مناسب أو كان مندساً بين الصفوف، وقد لاحت الآن الفرصة ليتقرب من أصحاب الشأن، ويقدموا لهم فتات الموائد، وإن من فوائد المحن وحكم الابتلاء ظهور مثل هذا الصنف حتى تتمحص الصفوف ويُعرف الكاذب الدعي من الصادق المخلص.

سـيبقى أعداد كثيرة -بإذن الله- على الحق سـائرون، لا يضرهـم من خالفهم ولا من خذلهم)[١].

---

(١) مجلة البيان العدد (٤٢).

وفي ختام ذكر هذه المواقف المختلفة إزاء مظاهر الغزو والكيد لهذا الدين من الكفار والمنافقين يحسن التنبيه إلى سنة ثابتة من سنن الله ﷻ يناسب ذكرها في هذا المقام، ألا وهي:

سنة الإملاء والاستدراج للكفار والمنافقين:

قال -تعالى-: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران:١٧٨].

وقال -تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣].

وقال -سبحانه-: ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٤-٥٦].

وهذه السنة الإلهية تجري بقدر الله في هذه الأوقات؛ وذلك في معسكر أهل الكفر والنفاق؛ وبخاصة أولئك الذين بلغ بهم الكبر والغطرسة والظلم والجبروت مبلغاً عظيماً، ونراهم يزدادون يوماً بعد يوم في الظلم والبطش والكبرياء، ومع ذلك نراهم ممكنين ولهم الغلبة الظاهرة، كما هو الحاصل الآن من دولة الكفر والطغيان أمريكا؛ حيث ظلمت وطغت، وقالت بلسان حالها ومقالها: من أشد منا قوة، وكما هو الحاصل من دولة اليهود في فلسطين، وما يجري من مذابح مروعة في سوريا ومصر وبورما والعراق وغيرها.

وقد يحيك في قلوب بعض المسلمين شيء وهم يرون هؤلاء الكفرة يبغون ويظلمون، ومع ذلك هم متروكون لم يأخذهم الله بعذاب من عنده،

لكن المسلم الذي يعرف ربه بأسمائه وصفاته الحسنى، والذي يفقه سنن الله ﷻ ويتأملها ويرى آثارها وعملها في الأمم السابقة لا يحيك في نفسه شيء من هذا، لأنه يرى في ضوء هذه السنة أن الكفرة اليوم وعلى رأسهم أمريكا وحلفاؤها من الغرب هم الآن يعيشون سنة الإملاء والاستدراج التي تقودهم إلى مزيد من الظلم والطغيان والغرور، وهذا يقودهم إلى نهايتهم الحتمية، وهي الهلاك والقصم في الأجل الذي قد ضربه الله لهم قال -تعالى-: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف:٥٩].

يقول صاحب «الظلال» رحمه الله عند هذه الآية السابقة الذكر من سورة آل عمران:

(وفي هذه الآية يصل السياق إلى العقدة التي تحيك في بعض الصدور، والشبهة التي تجول في بعض القلوب، والعتاب التي تجيش به بعض الأرواح، وهي ترى أعداء الله وأعداء الحق، متروكين لا يأخذهم العذاب، ممتعين في ظاهر الأمر، بالقوة والسلطة والمال والجاه! مما يوقع الفتنة في قلوبهم وفي قلوب الناس من حولهم، ومما يجعل ضعاف الإيمان يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يحسبون أن الله -حاشاه- يرضى عن الباطل والشر والجحود والطغيان، فيملي له ويرخي له العنان! أو يحسبون أن الله -سبحانه- لا ينصر الحق على الباطل ويدع الباطل أن يحطم الحق، ....! أو يحسبون أن هذا الباطل حق، وإلا فلم تركه الله ينمو ويكبر ويغلب؟ أو يحسبون أن من شأن الباطل أن يغلب على الحق في هذه الأرض، وأن ليس من شأن الحق أن ينتصر! ثم يدع المبطلين الظلمة

الطغاة المفسدين، يلجون في عتوهم، ويسارعون في كفرهم، ويلجون في طغيانهم، ويظنون أن الأمر قد استقام لهم، وأن ليس هنالك من قوة تقوى على الوقوف في وجههم!!!

وهذا كله وهم باطل، وظن بالله غير الحق، والأمر ليس كذلك، فالله -سبحانه وتعالى- يحذر الذين كفروا أن يظنوا هذا الظن، إنه إذا كان الله لا يأخذهم بكفرهم الذي يسارعون فيه، وإذا كان يعطيهم حظاً في الدنيا يستمتعون به ويلهون فيه؛ إذا كان الله يأخذهم بهذا الابتلاء فإنما هي الفتنة، وإنما هو الكيد المتين، وإنما هو الاستدراج البعيد: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨].

ولو كانوا يستحقون أن يخرجهم الله من غمرة النعمة بالابتلاء الموقظ لابتلاهم، ولكنه لا يريد بهم خيراً وقد اشتروا الكفر بالإيمان، وسارعوا في الكفر واجتهدوا فيه! فلم يعودوا يستحقون أن يوقظهم الله من هذه الغمرة -غمرة النعمة والسلطان- بالابتلاء! ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

والإهانة هي المقابل لما هم فيه من مقام ومكانة ونعماء.

وهكذا يتكشف أن الابتلاء من الله نعمة للمؤمنين لا تصيب إلا من يريد له الله به الخير، فإذا أصابت أولياءه فإنما تصيبهم لخير يريده الله لهم -ولو وقع الابتلاء مترتباً على تصرفات هؤلاء الأولياء- فهناك الحكمة المغيبة والتدبير اللطيف، وفضل الله على أوليائه المؤمنين)[1].

---

(١) انظر: «تفسير في ظلال القرآن» (٢/ ٦).

ويقول في موطن آخر:

(وإنه لمما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي، أو المستهتر الفاسد، أو الملحد الكافر، ممكناً له في الأرض، غير مأخوذ من الله، ولكن الناس إنما يستعجلون؛ إنهم يرون أول الطريق أو وسطه، ولا يرون نهاية الطريق. ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء! لا ترى إلا في مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث. والقرآن الكريم يوجه إلى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون -في حياتهم الفردية القصيرة- نهاية الطريق؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة، ويحسبونه نهاية الطريق!)[1].

إذن فمن حكمة الله ﷻ في سنة الإملاء للكافرين أن يمكنهم في هذا الإملاء، ليزدادوا إثماً وطغياناً يندفعون به بعجلة متسارعة إلى نهايتهم التي فيها قصمهم ومحقهم، وقد بدت بوادر المحق في الكفار والحمد لله رب العالمين، والله ﷻ بمكره وكيده للكفار قد أغفلهم عمَّا يترتب على حماقاتهم وطغيانهم؛ لتحق عليهم سنته في محق الكافرين وهلاكهم، كما أن من حكمته -سبحانه- في إملاء الكافرين وظلمهم وتسلطهم على المسلمين تحقيقًا للسنة التي سبق الحديث عنها، ألا وهي سنة الابتلاء والتمحيص للمؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١].

فذكر الله -سبحانه- التمحيص قبل المحق ولو محق الله الكفار قبل تهيأ المؤمنين الممحصين، فمن يخلف الكفار بعد محقهم؟ إن الله ﷻ حكيم

(١) المصدر نفسه (٢/ ٤٧١).

عليم. فلله ﷻ الحكمة في وضع السنتين سنة الابتلاء وسنة الإملاء في آيتين متلاحقتين في سورة آل عمران؛ قال -تعالى-: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨].

ثم قال سبحانه بعدها: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٩].

- **الموقف السادس**: الموقف الحق الموفق إزاء غزو الأعداء، وهو موضوع الفصل الآتي (الفصل الرابع).

الفصل الرابع

بيان الموقف الحق -إن شاء الله تعالى- في مواجهة أنواع الغزو الموجهة إلى ديار المسلمين

وأصحاب هذا الموقف هم الذين وفقهم الله ﷻ للفهم الصحيح والقصد الحسن، وجنبهم تلك المواقف السابقة الذكر، فأحسنوا الظن بربهم وتحقيق وعده بالنصر للمؤمنين، فلم تساورهم الوساوس والشكوك، ولم ييأسوا ويصيبهم الإحباط والضعف والاستكانة، وكذلك لم يُهزموا أمام ضغط الواقع وشدة الابتلاء، فيتنازلوا عن أصول دينهم وثوابته، بل ثبتهم الله ﷻ وقبضوا على دينهم كالقابض على الجمر، وكذلك حماهم الله ﷻ من الاستعجال في الأمور قبل أوانها، ووفقهم لفقه الموازنات وفهم مقاصد الشريعة، كذلك برأهم الله من مواقف المنافقين والمرجفين، ومواقف أهل الدنيا الراكنين إليها الذين لا همَّ للدين وأهله في نفوسهم.

والحاصل أن الله ﷻ هداهم لصراطه المستقيم في العلم والعمل صراط المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وامتثلوا قول الله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]،

وقوله -سبحانه-: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:١١٢]، وقوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨]، وقوله -تبارك وتعالى-: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤١-٤٣].

هذه أوصافهم على الجملة إذ هم الأتقى والأنقى والأقوى، الأتقى فهم المخلصون، والأنقى فهم المتبعون، والأقوى فهم المتوكلون على الله الآخذون بالأسباب، أما على التفصيل فهم الذين تحققت فيهم صفات الناجين من الخسران الواردة في سورة العصر، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣]، حيث إنهم كملوا أنفسهم بالعلم والإيمان والعمل الصالح، وكملوا غيرهم بالتواصي معهم بالحق واجتماع الكلمة على الدعوة والجهاد والصبر على ذلك، والذي يهمنا هنا هو الحديث عن دور هؤلاء الموفقين في التواصي على الدعوة والجهاد ومدافعة غزو الكفار والمنافقين لبلاد المسلمين عسكرياً وفكرياً وسلوكياً.

وقد تبين لنا في المباحث السابقة ذلك المكر الكبار، والكيد العظيم، والغزو الخطير، الذي يقوم به أعداء الإسلام وإخوانهم من المنافقين في احتلال بلدان المسلمين، ومحاولتهم مسخ هوية المسلمين وعقيدتهم، وفرض أنماط الغرب السلوكية والتغريبية في حياتهم. ومن أجل ذلك

هب هؤلاء المجاهدون للتصدي لهذه الأنواع من الغزو كلاً بما يحسنه ويقدر عليه، هذا بسنانه وحسامه، وذاك بعلمه وبيانه، وآخر بتربيته وتحصينه واحتسابه على المنكرات، ورأوا أن لا خيار لهم في ذلك بعدما سمعوا قول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة:٣٨-٤١].

وهذه الآيات وإن كانت قد نزلت في لوم المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله ﷻ بالسنان، فأحسب أنها عامة في جميع أنواع الجهاد المتعين (الجهاد بالسنان، والجهاد بالبيان، والجهاد بالتربية والدعوة ومحاربة الفساد).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (والجهاد منه ما هو باليد، ومنه ما هو بالقلب والدعوة والحجة والبيان، والرأي والصناعة، فيجب

بغايـة ما يمكنه)[١]. وعليه فإن التقاعـس والتباطؤ أو التخذيل عن القيام بهـذه الأنواع من الجهاد يكون داخلاً تحت الوعيـد الوارد في هذه الآيات ولا يبعـد أن يكـون أيضاً ممن عناهـم الله ﷻ بقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

فاخـتر يـا عبد الله أي نوع من الجهاد تحسـنه فانفر إليـه، فإنه لا يعذر في هـذه النوازل قاعد، ولو كان عامياً لا يقـرأ ولا يكتب، يقال له: جاهد بتربيتك لأهل بيتك، وتحصينهم من الفساد، وبلغ من تستطيع من الجيران والأقارب، فهذا منك جهاد.

ولقـد أدرك الموفقون من عبـاد الله ﷻ خطورة القعود عن نصرة دين الله ﷻ فنفرت طوائف من هذه الأمة كل بحسبها، وبما تقدر عليه من أنواع الجهـاد في مدافعة الصائل على البلاد والعبـاد والعقائد والأخلاق، فكان منها طائفة تصدت للغزو العسكري بجهاد اليد والسنان، وطائفة تصدت للغـزو الفكري والعقدي بجهـاد العلم والبيان، وطائفـة أخرى تصدت للغزو السلوكي والتغريبي بجهاد التربية والتحصين والاحتساب، وذلك حسب التفصيلات الآتية:

---

(١) «الاختيارات الفقهية» (ص٤٤٧) (نشر دار العاصمة).

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

التصدي للغزو العسكري من الكفار على بلدان المسلمين

ويتم هذا بإعلان فريضة الجهاد باليد والسنان على الغزاة الكافرين، وصدهم عن بلاد المسلمين بكل ممكن، وهذا هو جهاد الدفع الذي تقرر عند أهل العلم في القديم والحديث: أنه **فرض عين** على أهل كل بلد يغزوهم الكفار في عقر دارهم، حيث يجب على كل قادر مكلف في هذه البلدان: أن ينفر لصد العدوان وقتال الكفار المعتدين، حتى يندفع العدو عن أرض المسلمين بالمال والنفس، ويجب على بقية بلدان المسلمين أن ينصروا إخوانهم في بلدانهم المغزوة، بأن يمدوهم بالمال والسلاح والرأي والمشورة والدعاء، وإذا لم يكف المقاتلون في البلد المعتدى عليه في صد العدوان وجب على من يليهم من بلدان المسلمين نصرتهم بالرجال حتى تحصل الكفاية، كما يجب عيناً على من كان من المسلمين ذا خبرة عسكرية في أي فن من فنون القتال، أو ذا خبرة إعلامية وعلمية لم تحصل بها الكفاية عند المجاهدين أن ينفروا لنصرة إخوانهم، وهذا ما قرره أهل العلم، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: (وإذا دخل العدو بلاد الإسلام فلا ريب أنه يجب دفعه على الأقرب فالأقرب، إذ بلاد الإسلام كلها بمنزلة البلدة الواحدة)[1].

(١) «الاختيارات الفقهية» (ص٤٤٨).

ويقول الإمام محمود الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مخطوطة له عن الجهاد وهي تحت الطبع: (فإن كان كذلك بأن هجموا على بلدة من بلاد المسلمين فهو **فرض عين** اتفاقاً من الجمهور وابن المسيب، سواءً كان المستنفر عدلاً أو فاسقاً، فيجب على جميع أهل تلك البلدة أن ينفروا، وكذا من يقرب منهم إذا لم يكن بأهلها كفاية، وكذا من يقرب ممن يقرب منهم إذا لم يكن بمن يقرب منهم، كفاية أو تكاسلوا أو عصوا، وهكذا حتى يجب على جميع أهل الإسلام شرقاً وغرباً، كذا قال غير واحد من العلماء الأعلام)(١).

وإن من عجائب زماننا، والعجائب جمة أن يقال عن الجهاد في تلك البلدان المحتلة ودفع الكفار عنها أنه قتال فتنة، وأن النافرين إليه دعاة فتنة وإرهاب!! سبحانك هذا بهتان عظيم. أهذا جزاء من يدافع عن المسلمين ودينهم وأعراضهم وأموالهم وديارهم؟ أهذا جزاء من يسعى لرفع الذلة والمهانة والاضطهاد عن المسلمين؟ أهذا جزاء من ترك أهله ووطنه حاملاً روحه في كفه، يبتغي مرضات الله عَزَّ وَجَلَّ وجنته بنصرة دينه ومقاتلة أعدائه.

إن الواجب علينا أن نحمد الله عَزَّ وَجَلَّ ونشكره على أن قيض من شاء من عباده للقيام بفريضة الجهاد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ وسلطهم على أعدائه، ليحولوا بينهم وبين تحقيق أهدافهم الخبيثة، فحق إخواننا المجاهدين نصرتهم، والوقوف معهم في جهادهم بكل ما يحتاجونه من مال ورأي وإعلام ودعاء والذب عن أعراضهم، فبجهادهم أخرج الله عَزَّ وَجَلَّ الغزاة الروس من بلاد الأفغان، وبجهادهم أحبط الله عَزَّ وَجَلَّ خطط الأمريكان،

---

(١) «سُفرة الزاد في سَفرة الجهاد» (للآلوسي) (ص٥).

ومن ساندهم من الغرب والعرب في تقسيم بلاد المسلمين وتغيير خارطة البلدان الإسلامية بما يسمى بالشرق الأوسط الكبير، وبجهاد المجاهدين لم يقر للغزاة قرار في البلدان التي غزوها، بل هم في رعب وعدم استقرار، وبجهاد المجاهدين أنزل الله بهم الخسائر العظيمة في الأرواح والأموال.

لقد خرجت أمريكا من ديارها بطراً وكبراً ورئاء الناس، وهم يقولون من أشد منا قوة؟ فاستباحت ديار المسلمين، واحتلت أفغانستان والعراق، وبشروا بمشروع الشرق الأوسط الكبير زاعمين أنهم سيجعلون العالم أكثر أمناً واستقراراً، فغدا أشد خوفاً ورعباً وأنهم سيضعونه أكثر رفاهاً فغدا أشد فقراً. وكانوا يظنون أن احتلال هذين البلدين سيكون نزهة سريعة يعودون بعدها بالثروات العظيمة من الغاز الطبيعي في أفغانستان وحقول النفط في العراق والخليج، وسيعودون بآلاف المليارات التي تعوض خسائرهم وها هم يتجاوزون العقد من الزمان في غزوهم، وها هي غطرستهم وقوتهم وكبريائهم تتحطم وتنهار على يد من احتقرتهم في أفغانستان وسخرت منهم في العراق، وأصبح المجاهدون على ضعفهم وقلة الناصر لهم غصة في حلوقهم، تلحقهم الهزائم يوماً بعد يوم، حتى قصمهم الله ﷻ بانهيار اقتصادهم انتصاراً منه سبحانه لعباده المؤمنين، فجزى الله المجاهدين عنا وعن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها خير الجزاء، فلقد كانوا سبباً رئيساً فيما لحق ويلحق بالأمريكان وحلفائهم من الهزائم والانهيارات المتلاحقة والحمد لله.. فهلا قدرنا للمجاهدين حقهم وعرفنا قدرهم وقمنا بنصرهم ودعمهم؟ وحتى لا يأتي آت ويستخف

بهذا الكلام، أسوق ما ذكره مكتب خدمات البحث بالكونجرس الأمريكي من إحصائيات عن خسائرهم في حرب العراق فقط، وذلك في مجلة الفورن بوليسي (نقلاً عن قناة الجزيرة).

في عام ٢٠٠٣	كانت الخسائر (٩٣٠٠٠دولار) كل دقيقة
في عام ٢٠٠٤	كانت الخسائر (١١١٠٠٠دولار) كل دقيقة
في عام ٢٠٠٥	كانت الخسائر (١٦٤٠٠٠دولار) كل دقيقة
في عام ٢٠٠٦	كانت الخسائر (١٨٨٠٠٠دولار) كل دقيقة
في عام ٢٠٠٧	كانت الخسائر (٢٤٥٠٠٠دولار) كل دقيقة
في عام ٢٠٠٨	كانت الخسائر (٣٧١٠٠٠دولار) كل دقيقة
	أي ما يقارب مجموعه (٧٠٠ مليار دولار)

مع أن الخبير الاقتصادي الأمريكي (جوزيف ستيجليتر) قدرها بأكثر من ذلك بكثير، حيث أوصلها إلى (٣ ترليون دولار).

أما إحصائيات حربهم المزعومة على الإرهاب حسب ما جاء في المجلة نفسها فهي كالآتي:

في عام ٢٠٠١	كانت ١٨ مليار دولار
في عام ٢٠٠٢	كانت ١٣ مليار دولار
في عام ٢٠٠٣	كانت ٥٤ مليار دولار
في عام ٢٠٠٤	كانت ٧٤ مليار دولار
في عام ٢٠٠٥	كانت ١٠٠ مليار دولار
في عام ٢٠٠٦	كانت ١١٦ مليار دولار

في عام ٢٠٠٧ كانت ١٦٦ مليار دولار

في عام ٢٠٠٨ كانت ١٩٥ مليار دولار

أي ما مجموعه (٧٣٦ مليار دولار)

وقد كانوا يعلمون أن هذه الأموال الهائلة ستؤثر على هيكلة الاقتصاد الأمريكي كله، وأنه سيكون على حساب الإنتاج المدني الداخلي، ولكنهم كانوا يراهنون على أن احتلال أفغانستان والعراق سيكون سريعاً، وسيعوضون خسائرهم بوقت سريع، فلم يمهلهم المجاهدون ليستردوا ذلك، وها هم يسيرون من هزيمة إلى هزيمة وهذا من رحمة الله ﷻ وفضله، ثم فضل الجهاد وما قام به المجاهدون الأبطال من مقارعة القوم والإثخان فيهم، وردهم على أعقابهم خائبين. وقد كانوا مغرورين بقوتهم ناسين قوة الله ﷻ فأنساهم سبحانه، وأغفلهم عما يترتب على حماقاتهم من الكوارث والانهيارات، فدفعهم الله ﷻ دفعاً إلى نهايتهم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:١٧].

ولقد حق عليهم قوله -سبحانه-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

والمجاهدون كغيرهم من البشر يخطئون ويصيبون وليسوا بمعصومين، وقد يبدر من بعض أفرادهم أخطاء ومخالفات، وحينئذ نحن

مأمورون وملزمـون بالمنهج الشرعي في التعامل مع الأخطاء ومرتكبيها. المنهـج الذي يقوم عـلى التثبت أولاً من وقوع الأخطـاء وتوثيقها، ويقوم ثانيـاً على التفريق بين كون المخالفة خطأً فردياً أم منهجاً عاماً، ويقوم ثالثاً عـلى العـدل والإنصاف وعدم بخس المجاهديـن حقوقهم، وذلك بأن لا تنسـينا الأخطاء ما قدموه ويقدمونه من بذل وتضحيات ونكاية بالأعداء الغزاة، مما نحسبه في سبيل الله ﷻ.

كما أن هذا المنهج يراعي فقه الموازنات وتعارض المصالح الفاسـدة؛ أي أن مناصحة الدعاة والمجاهدين بعضهم مع بعض يجب أن يراعى فيها الحـرص على اجتـماع الكلمة وتوحيد الصفوف، كما يجب أن يراعى فيها التوقيت وأسـلوب النصح وظروف الأمة وقوتها وضعفها، بحيث نقطع عـلى خصومنا من الكفرة والمنافقين من توظيف ذلك في صالحهم، كما هو الواقع اليوم فلا يصلح أن تكون المناصحة في هذه الأحوال في منابر عامة، وإنما ينبغي أن يكون بصفة خاصة بين المتناصحين بشفقة ورحمة.

ويحسن في هذا المقام أن أنقل ما كتبته منذ عدة سنوات عن هذا الشأن في مقالة بعنـوان (المنهج القرآني في التعامل مع أخطاء المجاهدين)، وكان مما جاء فيها:

(وقفـت في كتـاب الله ﷻ على آيـات كريمة عظيمة ترسـم لنا المنهج الحـق العـدل في التعامل مع أخطـاء المجاهدين، دون إفـراط ولا تفريط، ودون أن يوظفهـا العـدو في صالحه، وهذه الآيات هـي قوله -عز وجل: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ

﴿... ٱللَّهِ وَكُفْرُۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٧-٢١٨].

وقبل أن نقف عند الدروس من هذه الآية وما فيها من منهج حاسم في التعامل مع أخطاء المجاهدين وأعداء المجاهدين، يحسن بنا أن نقف على سبب نزول هذه الآيات، كما جاءت في كتب التفسير.

قد جاء في روايات متعددة أنها نزلت في سرية عبدالله بن جحش رضي الله عنه وكان رسول الله ﷺ قد بعثه مع ثمانية من المهاجرين ليس فيهم أحد من الأنصار، ومعه كتاب مغلق، وأمره ألا يفتحه حتى يمضي ليلتين، فلما فتحه وجد فيه: «**إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا، فَامْضِ حَتَّى تَنْزِلَ بَطْنِ نَخْلَةَ -بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ- ترصد لَنَا قُرَيْشًا وَتَعْلَمَ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ.. وَلا تُكْرِهَنَّ أَحَداً عَلَى المَسِيرِ مَعَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ**» - وكان هذا قبل غزوة بدر الكبرى. فلما نظر عبدالله بن جحش في الكتاب قال: سمعاً وطاعة.

ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى بطن نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منها بخبر. وقد نهى أن أستكره أحداً منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأنا ماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه،

لم يتخلف أحد منهم. فسلك الطريق على الحجاز حتى إذا كان ببعض الطريق ضل بعير لسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان رضي الله عنهما فتخلفا عن رهط عبدالله بن جحش؛ ليبحثا عن البعير ومضى الستة الباقون. حتى إذا كانت السرية ببطن نخلة مرت عير لقريش تحمل تجارة، فيها عمرو بن الحضرمي وثلاثة آخرون، فقتلت السرية عمراً ابن الحضرمي وأسرت اثنين وفر الرابع وغنمت العير. وكانت تحسب أنها في اليوم الأخير من جمادى الآخرة. فإذا هي في اليوم الأول من رجب -وقد دخلت الأشهر الحرم- التي تعظمها العرب. وقد عظمها الإسلام وأقر حرمتها. فلما قدمت السرية بالعير والأسيرين على رسول الله ﷺ قال: «**مَا أَمَرتكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ**». فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا؛ وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال)[1].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في تعليقه على قصة عبدالله بن جحش وما نزل فيها من الآيات القرآنية: (والمقصود: أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف، ولم يبرئ أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام، بل أخبر أنه كبير، وأن ما عليه أعداؤه المشركون

(١) أورد هذه القصة ابن هشام عن ابن إسحاق في «السيرة»، وقد رواه البيهقي في «سننه الكبرى» (٩/ ١٢) بسند صحيح عن الزهري عن عروة مرسلاً، وقد وصله هو وابن أبي حاتم وسنده صحيح. انظر: تخريج الألباني لأحاديث «فقه السيرة» للغزالي (ص٢٣١).

أكبر وأعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام، فهم أحق بالذم والعيب والعقوبة، ولاسيما وأولياؤه كانوا متأولين في قتالهم ذلك، أو مقصرين نوع تقصير، يغفره الله لهم في جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات، والهجرة مع رسوله، وإيثار ما عند الله، فهم كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

فكيف يقاس ببغيض عدو جاء بكل قبيح ولم يأت بشفيع واحد من المحاسن)[1].

ويقول سيد قطب رَحِمَهُ الله عند هذه الآية: (نزلت تقرر حرمة الشهر الحرام، وتقرر أن القتال فيه كبيرة، نعم! ولكن: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧] إن المسلمين لم يبدأوا القتال، ولم يبدأوا العدوان. إنما هم المشركون هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل الله، والكفر به وبالمسجد الحرام، لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله، ولقد كفروا بالله، وجعلوا الناس يكفرون، ولقد كفروا بالمسجد الحرام، انتهكوا حرمته؛ فآذوا المسلمين فيه، وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة، وأخرجوا أهله منه، وهو الحرم الذي جعله آمناً، فلم يأخذوا بحرمته ولم يحترموا قدسيته، وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام.. وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل، وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٧٠).

في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام، ووضح موقف المسلمين في دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات؛ الذين يتخذون منها ستاراً حين يريدون، وينتهكون قداستها حين يريدون! وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم، لأنهم عادون باغون أشرار، لا يرقبون حرمة، ولا يتحرجون أمام قداسة، وكان على المسلمين ألا يدعوهم يحتمون بستار زائف من المحرمات التي لا احترام لها في نفوسهم ولا قداسة! لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل، وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرد ستار يحتمون خلفه، لتشويه موقف الجماعة المسلمة، وإظهارها بمظهر المعتدي.. وهم المعتدون ابتداء، وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء.

هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون، لا يقيمون للمقدسات وزناً، ولا يتحرجون أمام الحرمات، ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة، يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه، ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء، ويخرجونهم من البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام!.. ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام، ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات، ويرفعون أصواتهم: انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام!)[1].

وفي ختام هذه الفقرة أوصي إخواني المجاهدين بأن يتقوا الله ﷻ وأن لا يزكوا أنفسهم فهم بشر يخطئون ويصيبون، وأن يبذلوا الوسع في توقي الذنوب وما يسخط الله ﷻ، فإن الذنوب أخطر على المجاهدين

(١) «في ظلال القرآن» (١/ ٢٠٦).

مـن عدوهـم، وهي سـبب الهزائـم والخـذلان، ويكفينا تذكـر ما حصل للمسـلمين في غزوة أحد، وإن من أخطر وأكبر الذنوب التي تهدم الجهاد وأهله التنازع والتفرق، المؤديان إلى الفشل والهزيمة وتسلط الأعداء.

كما أوصي إخواني الدعاة أن يعدلوا في نقدهم لإخوانهم المجاهدين، وأن يتجنبـوا المنابـر العامة في ذكـر الأخطاء، كما أوصيهـم وهم يذكرون أخطـاء المجاهدين أن ينهجوا ذلك المنهج الرباني الآنف الذكر فيصدرون حديثهـم ونقدهم لأخطاء المجاهدين بذكر ما هو أكبر من ذلك وأشـنع، وذلك بما يقوم به اليوم الكفرة الغزاة وأولياؤهم المنافقون من قتل وتشريد وسجن وتجويع وحصار خانق على المسلمين وصد عن سبيل الله ﷻ وقبل ذلـك كفرهـم بالله ومحادتهم للإسـلام وأهله في بلاد العراق وأفغانسـتان والشيشان وفلسطين وغيرها من بلدان المسلمين.

المبحث الثاني

التصدي للغزو الفكري وبث الشبهات

وهذا النوع من الغزو من أشد أنواع الغزو الموجه للمسلمين، والتصدي له وكشف شبهاته من أفضل أنواع الجهاد وأحبه إلى الله ﷻ ، ووسيلة التصدي له تكون بجهاد البيان والحجة: بيان سبيل المؤمنين وبيان سبيل المجرمين، وهذه مهمة العلماء الربانيين والدعاة الصادقين، بل هي من أبرز صفات الصديقين في هذه الأمة، الذين علموا وعملوا وبينوا الحق للناس، وصبروا على ذلك كله، وقد يستهين بعض الناس بهذا الضرب من الجهاد، ويظن أن جهاد الكفار الغزاة باليد والسنان أفضل منه وأولى.

والحق أن الأمر ليس كذلك، فإن جهاد البيان إذا قام به أهله حق القيام فإنه قد يفوق جهاد السنان، ويحتاج إلى صبر عظيم لأن بيان الحق ومقارعة الباطل وكشف زيفه وتلبيسه أعظم أنواع الجهاد، وما يتعرض له القائمون به من البلاء والمحن أشد مما يتعرض له المجاهدون في ساحات الوغى، ولأن جهاد السنان يكون في وقت محدد ومعدود، أما جهاد البيان فهو مستمر في حياة العلماء والدعاة طول الحياة. يضاف إلى ذلك أن جهاد اليد والسنان يحسنه كل أحد يجيد حمل السلاح والرمي به، أو أي خدمة تقدم للمجاهدين من حراسة، أو تجهيز طعام، أو مداواة

جرحى، وهذه المهمات لا تحتاج إلى علم وفقه، بل يقوم بها العامي ولو لم يكن من أهل العلم. بينما جهاد البيان وكشف الشبهات ومصاولة الباطل وبيان زيفه، لا يحسنه إلا أهل العلم الربانيين، وقلما تحصل بهم الكفاية، ولاسيما في مثل أزمنتنا اليوم الذي أجلب فيه أهل الكفر والنفاق على ديار المسلمين محاولين مسخ هوية المسلمين وتشويه عقيدتهم وزعزعة أفكارهم وأخلاقهم، مستخدمين في ذلك ما قدروا عليه من وسائل الإعلام المختلفة ووسائل التنصير والاستشراق والتعليم.

وللتدليل على أهمية جهاد الدعوة والبيان وأن ما يواجه أهله من البلاء والمصائب والمصاعب أكثر وأشد ممَّا يواجه المجاهدين باليد والسنان. أسوق الرواية الآتية التي يخبر فيها النبي ﷺ أن ما أصابه من الشدائد في مكة وهو يدعو الناس إلى التوحيد، ويبين لهم حقيقة دين الإسلام أكبر وأشد عليه مما أصابه في غزوة أحد والأحزاب، وأصاب أصحابه من الشدة والقرح والابتلاء.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم**»، قال:

«فناداني ملك الجبال وسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»، فقال له رسول الله ﷺ: **«بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»**[(١)].

ويحسن بهذه المناسبة إيراد ما ذكره الإمام ابن تيمية رحمه الله في أهمية وفضل جهاد البيان، وأنه من أعظم أنواع الجهاد، وذلك في كتابه العظيم (منهاج السنة)، وذلك في معرض رده على شبهة الرافضي في أن علياً رضي الله عنه قد سبق الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في الشجاعة والجهاد بالسنان في سبيل الله عز وجل فكان مما قال رحمه الله: (ومما ينبغي أن يعلم أن الشجاعة إنما فضيلتها في الدين لأجل الجهاد في سبيل الله، وإلا فالشجاعة إذا لم يستعن بها صاحبها على الجهاد في سبيل الله، كانت: إما وبالاً عليه إن استعان بها صاحبها على طاعة الشيطان، وإما غير نافعةٍ له إن استعملها فيما لا يقربه إلى الله تعالى.

فشجاعة علي والزبير، وخالد وأبي دجانة، والبراء بن مالك وأبي طلحة، وغيرهم من شجعان الصحابة - إنما صارت من فضائلهم لاستعانتهم بها على الجهاد في سبيل الله؛ فإنهم بذلك استحقوا ما حمد الله به المجاهدين.

وإذا كان كذلك، فمعلوم أن الجهاد منه ما يكون بالقتال باليد، ومنه ما يكون بالحجة والبيان والدعوة.

---

(١) مسلم (١٧٩٥).

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١-٥٢]، فأمره الله -سبحانه وتعالى- أن يجاهد الكفار بالقرآن جهاداً كبيراً، وهذه السورة مكية نزلت بمكة، قبل أن يهاجر النبي ﷺ وقبل أن يؤمر بالقتال، ولم يؤذن له، وإنما كان هذا الجهاد بالعلم والقلب والبيان والدعوة لا بالقتال، وأما القتال فيحتاج إلى التدبير والرأي،ويحتاج إلى شجاعة القلب، وإلى القتال باليد. وهو إلى الرأي والشجاعة في القلب في الرأس المطاع أحوج منه إلى قوة البدن، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما مقدمان في أنواع الجهاد غير قتال البدن.

قال أبو محمد بن حزم: وجدناهم يحتجون بأن عليًّا كان أكثر الصحابة جهاداً وطعناً في الكفار وضرباً، والجهاد أفضل الأعمال. قال: وهذا خطأ؛ لأن الجهاد ينقسم أقساماً ثلاثة:

أحدها: الدعاء إلى الله تعالى باللسان. **والثاني**: الجهاد عند الحرب بالرأي والتدبير. **والثالث**: الجهاد باليد في الطعن والضرب. فوجدنا الجهاد باللسان لا يلحق فيه أحد بعد النبي ﷺ أبا بكر ولا عمر. أما أبو بكر: فإن أكابر الصحاب أسلموا على يديه، فهذا أفضل عمل، وليس لعلي من هذا كثير حظ، وأما عمر: فإنه من يوم أسلم عز الإسلام، وعبد الله علانية، وهذا أعظم الجهاد. وقد انفرد هذان الرجلان بهذين الجهادين اللذين لا نظير لهما، ولا حظ لعلي في هذا.

وبقي القسم الثاني، وهو الرأي والمشورة، فوجدناه خالصاً لأبي بكر ثم لعمر. بقي القسم الثالث، وهو الطعن والضرب والمبارزة، فوجدناه

أقل مراتب الجهاد ببرهان ضروري، وهو أن رسول الله ﷺ لا شك عند كل مسلم في أنه المخصوص بكل فضيلة، فوجدنا جهاده ﷺ إنما كان في أكثر أعماله وأحواله بالقسمين الأولين من الدعاء إلى الله ﷻ والتدبير والإرادة، وكان أقل عمله الطعن والضرب والمبارزة، لا عن جبن، بل كان أشجع أهل الأرض قاطبةً نفساً ويداً، وأتمهم نجدةً، ولكنه كان يؤثر الأفضل فالأفضل من الأعمال، فيقدمه ويشتغل به، ووجدناه يوم بدرٍ -وغيره- كان أبو بكرٍ معه لا يفارقه، إيثاراً من النبي ﷺ له بذلك، واستظهاراً برأيه في الحرب، وأنساً بمكانه، ثم كان عمر ربما شورك في ذلك، وقد انفرد بهذا المحل دون علي، ودون سائر الصحابة، إلا في الندرة.

ثم نظرنا مع ذلك في هذا القسم من الجهاد، الذي هو الطعن والضرب والمبارزة، فوجدنا عليًّا لم ينفرد بالسيوف فيه، بل قد شاركه فيه غيره شركة العيان، كطلحة والزبير وسعد، ومن قتل في صدر الإسلام، كحمزة وعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب ومصعب بن عمير، ومن الأنصار سعد بن معاذ وسماك بن خرشة -يعني أبا دجانة- وغيرهما، ووجدنا أبا بكر وعمر قد شاركاه في ذلك بحظ حسن، وإن لم يلحقا بحظوظ هؤلاء، وإنما ذلك لشغلهما بالأفضل من ملازمة رسول الله ﷺ ومؤازرته في حين الحرب، وقد بعثهما على البعوث أكثر مما بعث عليًّا، وقد بعث أبا بكر إلى بني فزارة وغيرهم، وبعث [عمر] إلى بني فلان، وما نعلم لعلي بعثاً إلا إلى بعض حصون خيبر ففتحه. فحصل أرفع أنواع الجهاد لأبي بكر وعمر، وقد شاركا عليًّا في أقل أنواع الجهاد، مع جماعة غيرهم»[(١)] ا.هـ.

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٨/ ٨٦).

ويقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(كان الجهادُ في أول الإسـلام بتبليغ الحجـة، وأمره الله تعالى بالجهاد من حـين بعثـه، وقـال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥١-٥٢]. فهـذه سورةٌ مكيّةٌ أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام قال تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣]، فجهـاد المنافقـين أصعـبُ من جهاد الكفـار، وهو جهـاد خواص الأمة وورثة الرسـل، والقائمون به أفرادٌ في العالم والمشـاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانـوا هم الأقلين عدداً، فهو الأعظمـون عند الله قـدراً. ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شـدة المعـارض، مثـل أن تتكلم بـه عند من تخاف سـطوته وأذاه، كان للرسـل -صلـوات الله عليهـم وسـلامه- مـن ذلـك الحـظ الأوفـر، وكان لنبينا -صلوات الله وسلامه عليه- من ذلك أكمل الجهاد وأتمه)[١].

وبهـذا يتبين لنا أهمية جهاد البيـان وفضله، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ قد فرضه على علـماء الأمـة لبيـان الحق للناس، ولكشـف شـبهات الأعداء مـن الكفار والمنافقـين، وبيان باطلهم ودحض حجتهم، فـما أعظم الأمانة الملقاة على كاهـل العلـماء والدعـاة، وما أعظم أجرهـم إن هم قالـوا الحق وفضحوا الباطـل للناس، وقامـوا في ذلك مخلصين لله تعالى، ومـا أعظم وزرهم إن

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥).

هم كتموا الحق أو لبسوا الحق بالباطل، وما أحوج الأمة اليوم إلى علمائها ليقودوها في وسط هذه الأمواج المتلاطمة، ويوصلوها إلى بر الأمان، ويخرجوها من هذا التيه، ويخلصوها بما آتاهم الله ﷻ من العلم من شبهات المشبهين وانتحال المبطلين. قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧].

وإن أمانة القيام بجهاد البيان لتعظم في زماننا اليوم الذي بلغ فيه غزو الأعداء لعقيدة المسلمين ذروته، ولا سيما بعد انتشار وسائل الإعلام المتنوعة ووسائل التواصل بالجوال والحاسوب الذي يخترق عقول المسلمين ويدخل إليها بلا استئذان محملة بآلاف المواقع التي تبث الشبهات وتفتك في العقول والأفكار، ومشاركة مع مشائخي العلماء وإخواني من طلبة العلم في جهاد البيان وكشف الشبهات.

أتناول في المباحث القادمة بعض صور الغزو الفكري والعقدي من قبل أعداء المسلمين من الكفار المنافقين والتي سبق ذكرها، وسبل تفنيدها وبيان باطلها، وبيان الحق الدامغ لها، ولكن يحسن بنا التقديم لذلك بمقدمتين مهمتين:

- **الأولى**: عن الشبهات تعريفها، وبيان خطرها، والتحذير من الوقوع فيها.
- **الثانية**: عن التأويل وخطره وتأثيره وكونه سبباً في التعلق بالشبهات وما ينجم عن ذلك من فساد.

المقدمة الأولى: الشبهات تعريفها، وبيان خطرها والتحذير من الوقوع فيها:

تعريف الشبهة: قال في «اللسان»: الشبهة: (الالتباس، والمشتبهات من الأمور: المشكلات، وشبه عليه: خلط عليه الأمر حتى اختلط بغيره)(١).

وعرفها الجرجاني في «التعريفات» بأنه: (هو ما لم يتيقن كونه حراماً أو حلالاً)(٢). ولعل هذا التعريف أخذ من قوله ﷺ: «**الحلالُ بينٌ والحرامُ بيّنٌ، وبينهما أمورٌ مشتبهةٌ**»(٣).

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (وإنما سميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها)(٤).

وقال أيضًا: «الشبهة وارد يرد على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له»(٥).

التحذير منها: وقد حذرنا الله ﷻ، وحذرنا رسوله ﷺ والسلف من بعده من سماع الشبهات وتتبعها أو الجلوس مع الخائضين فيها. وهذا من باب اتخاذ الوسائل الواقية من الوقوع في الشبهات، قال الله ﷻ في وصف أهل الزيغ المتبعين للشبهات، ووصف أهل العلم والإيمان الرافضين لها:

---

(١) «لسان العرب» (١٣/ ٥٠٣).
(٢) «التعريفات» (باب الشين) (١/ ١٦٥).
(٣) البخاري (٥٢) (١٩٤٦)، مسلم (١٥٩٩).
(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٤٠)، ط دار الكتب العلمية.
(٥) المصدر نفسه (١/ ١٠٤).

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٧-٨].

وحذرنا -سبحانه- من مجالس أهل الزيغ الخائضين في آيات الله ﷻ بقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام:٦٨]، وهذا النهي يشمل القعود معهم مباشرة ومشافهة، أو القراءة في كتبهم، أو سماع مناظراتهم في أجهزة الإعلام، أو الدخول على مواقعهم، فالعلة في النهي واحدة في الجميع.

كما حذرنا الرسول ﷺ من اتباع المتشابهات والمناظرة فيها، وذلك في الأثر الذي رواه اللالكائي في «أصول أهل السنة» بسنده عن عمرو ابن شعيب عن أبيه، عن جده: أن نفراً كانوا جلوساً بباب النبي ﷺ فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ قال: فسمعهم رسول الله ﷺ فخرج فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان، فقال: «**بِهَذَا أُمِرْتُمْ أَوْ بِهَذَا بُعِثْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ إِنَّمَا هَلَكَتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هَذَا، فَانْظُرُوا الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَانْظُرُوا الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا عَنْهُ**»(١).

---

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٢٩) وسنده حسن.

فهـذا نبي الله ﷺ غضب غضباً شـديداً عندمـا رأى بعض الصحابة يتجادلـون في القـرآن، وأمرهـم بالكـف وذلـك لرحمته ﷺ بهـم وبأمته، وخوفه عليهم، مما قد يكون سبباً في زيغهم وضلالهم.

وأمـا ما جاء عن السـلف رضي الله عنهم من التنفير من أهـل البدع والنهي عن مجالستهم والسماع منهم، فالروايات في ذلك كثيرة ومن أشهرها:

* موقـف عمـر بـن الخطـاب رضي الله عنه مـن صبيـغ بن عسـل فقـد روى اللالكائي بسنده قال: أخبرنا أحمد بن علي بن العلاء قال: ثنا أبو الأشعث قال: حدثنا حماد بن زيد، عن يزيد بن حازم، عن سليمان بن يسار أن رجلاً مـن بنـي تميم يقـال له: صبيغ بن عسـل قـدم المدينة وكانت عنـده كتب، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فبعث إليه وقد أعد لـه عراجين النخل، فلما دخل عليه جلس قال: من أنت؟ قال: أنا عبدالله صبيـغ، قـال عمر: وأنـا عبدالله عمـر، وأومأ عليـه فجعل يضربـه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجه، وجعل الدم يسيل عن وجهه، قال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي أجد في رأسي[1].

فهذا فعل عمر رضي الله عنه مع الخائضين في الباطل المتبعين للشبهات حيث لم يمكنهم من قول الباطل بحجة النقاش الحر وحرية الرأي والتفكير.

وقـد ضربـه عمر رضي الله عنه؛ لأنه سـأله عن المتشـابه ابتغـاء الفتنة، وليس سؤال استرشاد.

---

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول السنة» (٤/ ٧٠٣) والدارمي في «سننه» (١٤٦).

* وكان الحسن رحمه الله يقول: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم[١].

* وكان ابن طاوس جالساً فجاء رجل من المعتزلة قال: فجعل يتكلم فأدخل ابن طاوس أصبعيه في أذنيه. قال: وقال لابنه: أي بني! أدخل أصبعيك في أذنيك واشدد، لا تسمع من كلامه شيئا. قال معمر: يعني أن القلب ضعيف[٢].

ومثل هذه المواقف كثيرة، فكيف ممن جعل سمعه وبصره وقفاً على سماع المناظرات الفكرية المنحرفة في وسائل الإعلام المختلفة، وكيف بمن جل وقته تتبع مواقع أهل الشبهات والزيغ وطروحاتهم ومناظراتهم في القنوات، ومواقع الإنترنت؟!

ومن خطورة الشبهات أن أصحابها يعرضونها في ثوب مزخرف يصبغونه بصبغة شرعية قد تنطلي على الجهلة من المسلمين، وفي حقيقته خداع وتتبع للمتشابه من الأدلة وإعراضهم عن المحكم منها، وهذا شأن أهل الأهواء والبدع، وهو من أبرز سماتهم في الاستدلال، حيث يقفون عند المتشابه ولا يردونه إلى المحكم ليتبين وجه الحق من الباطل فيه، وصدق الله العظيم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ الآية [آل عمران:٧]. وما أحسن ما سطرته يد ابن القيم رحمه الله وهو يحذر من الشبهات وأهلها، وما يقومون به من خداع وتلبيس في نشرها، يقول رحمه الله:

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(والقلب يتوارده جيشـان من الباطل: جيش شـهوات الغي وجيش شـبهات الباطـل فأيـما قلب صغـا إليها، وركـن إليها تشربهـا وامتلأ بها، فينضح لسـانه وجوارحه بموجبها، فإن أُشرب شـبهات الباطل تفجرت على لسـانه الشكوك والشبهات والإيرادات، فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه، وقال لي شـيخ الإسـلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد: (لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا فـإذا أشربت قلبك كل شـبهة تمر عليها صار مقراً للشـبهات، أو كما قـال)، فـما أعلم أني انتفعـت بوصية في دفـع الشـبهات كانتفاعي بذلك. وإنما سـميت الشبهة شـبهة لاشـتباه الحق بالباطل فيها، فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل، وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر فينظر الناظر فيـما ألبسـته من اللباس فيعتقد صحتها، وأما صاحـب العلم واليقين فإنه لا يغـتر بذلك، بل يجاوز نظره إلى باطنها، وما تحت لباسـها فينكشـف له حقيقتهـا، ومثال هذا الدرهم الزائف، فإنه يغتر به الجاهل بالنقد نظراً إلى مـا عليـه من لباس الفضـة، والناقد البصير يجاوز نظـره إلى ما وراء ذلك، فيطلـع على زيفه، فاللفظ الحسـن الفصيح هو للشـبهة بمنزلة اللباس من الفضـة عـلى الدرهم الزائف، والمعنى كالنحاس الـذي تحته، وكم قد قتل هـذا الاعتـذار من خلق لا يحصيهـم إلا الله، وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القـدر وتدبره رأى أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ، ويردها بعينها بلفـظ آخـر، وقد رأيت أنا من هذا في كتب الناس ما شـاء الله وكم رد من

الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح وفي مثل هذا قال أئمة السنة منهم الإمام أحمد وغيره: لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة شنعت، فهؤلاء الجهمية يسمون إثبات صفات الكمال لله من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وسائر ما وصف به نفسه تشبيهاً وتجسيماً ومن أثبت ذلك مشبهاً فلا ينفر من هذا المعنى الحق لأجل هذه التسمية الباطلة، إلا العقول الصغيرة القاصرة خفافيش البصائر، وكل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومن رزقه الله بصيرة، فهو يكشف به حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل ولا تغتر باللفظ كما قيل في هذا المعنى:

تقول هذا جنى النحل تمدحه وإن تشأ قلت ذا قيء الزنابير

مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير

فإذا أردت الاطلاع على كنه المعنى: هل هو حق أو باطل؟ فجرده من لباس العبارة، وجرد قلبك عن النفرة والميل، ثم أعط النظر حقه ناظراً بعين الإنصاف، ولا تكن ممن ينظر في مقالة أصحابه، ومن يحسن ظنه نظراً تاماً بكل قلبه ثم ينظر في مقالة خصومه، وممن يسيء ظنه به كنظر الشزر والملاحظة، فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ، والناظر بعين المحبة عكسه، وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق، وقد قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

وقال آخر:

نظروا بعين عداوة لو أنها عين الرضا لاستحسنوا ما استقبحوا

فإذا كان هذا في نظر العين الذي يدرك المحسوسات، ولا يتمكن من المكابرة فيها، فما الظن بنظر القلب الذي يدرك المعاني التي هي عرضة المكابرة، والله المستعان على معرفة الحق وقبوله، ورد الباطل وعدم الاغترار به)(١).

ويتحدث رحمه الله عن خطر الخوض بالشبهات الباطلة، وذلك عند قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة:٦٩].

فيقول: (فذكر تعالى الأصلين وهما داء الأولين والآخرين. **أحدهما**: الاستمتاع بالخلاق وهو النصيب من الدنيا، والاستمتاع به متضمن لنيل الشهوات المانعة من متابعة الأمر بخلاف المؤمن، فإنه وإن نال من الدنيا وشهواتها، فإنه لا يستمتع بنصيبه كله، ولا يذهب طيباته في حياته الدنيا، بل ينال منها ما ينال ليتقوى به على التزود لمعاده.

والثاني: الخوض بالشبهات الباطلة، وهو قوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ وهذا شأن النفوس الباطلة التي لم تخلق للآخرة، لا تزال

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤١)، دار الكتب العلمية.

ساعية في نيل شهواتها، فإذا نالتها فإنما هي في خوض بالباطل الذي لا يجدي عليها إلا الضرر العاجل والآجل، ومن تمام حكمة الله تعالى أنه يبتلى هذه النفوس بالشقاء والتعب في تحصيل مراداتها وشهواتها، فلا تتفرغ للخوض بالباطل إلا قليلاً، ولو تفرغت هذه النفوس الباطولية لكانت أئمة تدعوا إلى النار...

... والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله هو القلب الذي قد سلم من هذا، وهذا فهو القلب الذي قد سلم لربه وسلم لأمره، ولم تبق فيه منازعة لأمره ولا معارضة لخبره، فهو سليم مما سوى الله وأمره لا يريد إلا الله، ولا يفعل إلا ما أمره الله، فالله وحده غايته، وأمره وشرعه وسيلته وطريقته، لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره، لكن لا تمر عليه إلا وهي مجتازة تعلم أنه لا قرار لها فيه، ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه، ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك وسليم من البدع وسليم من الغي وسليم من الباطل وكل الأقوال التي قيلت في تفسيره فذلك يتضمنها، وحقيقته أنه القلب الذي قد سلم لعبودية ربه: حياءً وخوفاً وطمعاً ورجاءً، ففنى بحبه عن حب ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وسلم لأمره ولرسوله تصديقاً وطاعة كما تقدم، واستسلم لقضائه وقدره فلم يتهمه ولم ينازعه ولم يتسخط لأقداره فأسلم لربه انقياداً وخضوعاً وذلاً وعبودية، وسلم جميع أحواله وأقواله وأعماله وأذواقه ومواجيده ظاهراً وباطناً من مشكاة رسوله، وعرض ما جاء من سواها عليها فما وافقها قبله وما خالفها رده،

وما لم يتبين له فيه موافقة ولا مخالفة وقف أمره وأرجأه إلى أن يتبين له، وسالم أولياءه وحزبه المفلحين الذابين عن دينه وسنة نبيه القائمين بها، وعادى أعداءه المخالفين لكتابه وسنة نبيه الخارجين عنهما الداعين الى خلافهما)[(١)].

ويعلق الشيخ عبدالرحمن المحمود -حفظه الله تعالى- على وصية شيخ الإسلام ابن تيمية لتلميذه ابن القيم التي جاء فيها: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة» فيقول:

(والشبهات من أشدِّ الأشياء على القلوب وأثقلها، حتى تكاد الشبهة أن تكون جبلاً، وأنى للقلب الرقيق تحمّله.

والمؤمن المستبصر يدرك مدى خطورة الأمر، خاصة إذا علم أنه لا أحد بمأمن من ذلك، مهما علا شأنه في العلم أو العبادة والطاعة، أو في المجاهدة والدعوة، أو فيها جميعاً.

والمتتبع لواقع المسلمين المعاصر، وخاصة طلاب العلم ورجال الدعوة وشباب الصحوة منهم، يرى كيف تسللت شبه كثيرة إلى بعض القلوب.

واللافت للنظر أن كافة هذه الشبهات ليست جديدة، بل هي مما سبق أن عُرِض ودُوِّن في كتبهم، وردَّها العلماء والدعاة وكشفوا زيفها؛ فما الجديد؟ الذي استجد إنما هي حرب مركَّزة على الإسلام وعلى منهاج

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٢) دار الكتب العلمية.

السلف خاصة، ودعمت هذه الحرب قوىً مختلفة معروفة، وقابل ذلك ضَعْف الإيمان وخلل في الثقة بالمنهج، وهو ما جعل هذه الشبهات تلج القلوب، فتُغَيِّر الكثير منها، فصارت هذه القلوب كالإسفنجة تمتص هذه الشبهات، كما تمتص الماء العَفن، فجاءت هذه الوصية الغالية من شيخ الإسلام التي تقول خلاصتها: لا تجعل قلبك للشبهات مثل الإسفنجة، فيتشربها ولا ينضح إلا بها.

فما وجه تشبيه هذا النوع من القلوب بالإسفنجة؟

١ - يُلاحظ الشبه بينهما من ناحية التكوين؛ فكلٌّ منهما رقيق ليِّن، ليس في داخله صلابة من عظام ونحوها.

٢ - أن الإسفنجة معروفة بطبعها؛ فهي تمتص كل سائل؛ فإن أدخلتها طيِّباً: من ماء عذب أو لبن أو شراب، فإنها تمتصه، كما أنك إن أدخلتها في ماء عفن، أو بول أو نجس: كخمر ونحوه، فإنها تمتصه أيضاً.

٣ - أن الإسفنجة إذا امتصت السائل، فلابد أن تنضح بما فيها؛ حيث يخرج منها القطرات، بل أكثر من ذلك إذا ضُغط عليها ولو بقليل من القوة.

وقلَّما تحتفظ بما فيها حتى ينشف، ولو نشفت فما أقبح ما فيها؛ إن كان ما امتصته من المجاري وأشباهها!

٤ - أن الإسفنجة متى ما اعتادت امتصاص العفن، تحولت هي إلى عفن؛ فلا ينفع معها تنظيف ولا غسل.

وكذلك القلوب فهي:

أولاً: رقيقة لأنها موطن الإرادة والحب والبغض والمحبة والكره، وهي موطن أعمال القلوب من خوف ورجاء وإنابة وإخلاص، وصدق، وتوبة، وتوحيد، وتوكل وغيرها؛ ولذا فهي تابعة لمن خضعت له:

فإن انقادت لمولاها وسيدها ومالكها بتوحيده والتوكل عليه، وحده لا شريك له وبمحبته ورجائه، وخوفه وسائر أعمال القلوب، فقد اتصفت بصفتين عظيمتين:

إحداهما: كمال الافتقار لمولاها؛ فهي لا تستغني عنه لحظة من ليل أو نهار، مع كمال الانقياد والطاعة، فهي تقود أبدانها إلى مولاها بالاستجابة التامة بفعل الأوامر واجتناب النواهي؛ فإن أذنب العبد، فهي لرقَّتها تُبادر إلى التوبة والاستغفار والحسنات الماحيات.

والأخرى: كمال القوة في الحق، والنفور من الباطل، (شبهات وشهوات). وسبب ذلك أن قوَّتها بالله (عبادةً واستعانةً وتوكلاً)، وهذا من عجيب أحوال قلوب المؤمنين الصادقين؛ حيث تجدها أعظم ما تكون رقة ورحمة، وأقوى ما تكون صلابة في الحق ونفوراً من الباطل، وشجاعة في الدفاع عن الدين الحق وأهله، والموالاة لهم، وردَّ الباطل وأهله والبراءة منهم ومن أعمالهم؛ فهي في الإيمان لا تخاف لومة لائم.

وإن انقادت القلوب -عياذاً بالله- إلى غير الله: من نَفْس أَمَّارة أو هوىً أو شيطان، وتمثَّل ذلك في معبود غير الله، أو تعلَّق بجاه أو دنيا أو

شهوة قُدِّمت على عبادة الله وطاعته، تحولت القلوب إلى محبة وخضوع لذلك المعبود من دون الله، فصارت على الضد من صفات المؤمنين، فهي: قاسية في عبادة الله وطاعته والانقياد له، حتى تكون كالحجارة أو أشد قسوة.

وهي ذليلة رقيقة خاضعة لمن مالت إليه، فيها من الضعة والاستكانة والحقارة والعبودية لذلك المعبود من دون الله، ما لا يكاد يصدقه العاقل السوي.

ثانياً: هي (أي: القلوب) بحسب ما تحمل وتربّى عليه؛ فإن حُمِلت على حب الحق والاستجابة له والنفور من الباطل والنكارة له، حُفِظت بعون من الله وتوفيقه من فتن الشهوات والشبهات.

أما إن تُركت مرتعاً لكل عارض مما يعرض لها، تتقبله من غير تمييز، فإنها تكون عرضة للخطرات والوساوس التي يلقيها شياطين الإنس والجن؛ فتصبح مرتعاً للشبهات فتصير كالسفنجة التي حذر منها شيخ الإسلام؛ تمتص الشبهات وبها تنضح، وتصبح مريضة بذلك.

ولتشخيص هذه الحالة في واقعنا المعاصر نلاحظ ما يلي:

١ - بروز هذه الظاهرة الإسفنجية لدى بعض طلاب العلم والشباب المستقيم ونحوهم ممن لهم اهتمامات بالعلم الشرعي، أو بالقراءة بمعناها العام الشامل لما يُشاهَد أو يُسمَع أو يُقرَأ، أو بحب سماع الحوارات التي تدور بين الأطياف المختلفة في عقائدها، أو في مشاربها أو في مناهجها؛ فتجد بعض هؤلاء -هدانا الله وإياهم وثبّتنا على الحق جميعاً- يتشرب شبهات أهل الباطل، فتستقر في نفسه.

وإذا علمنا أن للشبهات بريقاً ولمعاناً محرقاً، خاصة إن عُرضت بأسلوب ماكر تصحبه سخرية وهزء بأهل الحق المتمسكين به؛ عندها يتبيَّن مدى أثر هذه الشبهات على القلوب الإسفنجية الضعيفة؛ حيث تتحول القلوب إلى نوع من القلق، وشيء من الحيرة والشك؛ حيث يتصارع في قلبه ثقته بمنهجه وعقيدته الصافية، وقوة الشبهة وشدة جَذْبها وقوة حَرْقها.

وفي هذه الحالة المَرَضية العارضة المقلقة يكون للقلب أحد مسارين:

أ- **مسار يؤوب فيه القلب إلى سكينة الإيمان وبرد اليقين**، والتسليم لأمر الله وأمر رسوله ﷺ؛ بحيث تكون له خبيئة من عبادة وطاعة يتقرب بها إلى الله، تعالى؛ فتُجدِّد له هذه العبادة ثوب الإيمان والتعلق بمقلِّب القلوب -تبارك وتعالى- فيتوجَّه إليه منيباً مخبتاً متوكلاً، أو يكون له صاحب أو أصحاب، مثل شيخ يثق به ويباحثه أو يسائله عما عرض له من شبهات، فيتلقى الجواب وهو على حالته السابقة من التسليم والعبادة؛ فهذا غالباً ما يعود إليه اليقين ويَسْلم من غوائل ما عرض لقلبه من الشبهات؛ فينتبه لنفسه لاحقاً.

ب- **مسار لا يوفَّق فيه لتسليمٍ ولا لمزيد طاعة**، ولا لمعالجة صحيحة لهذا العارض؛ فهذا قد تشتد عنده حالة الشك والقلق، ويبقى حبيس نفسه وهواه وهواجسه ووساوسه، فينتج عن ذلك مرضان:

- **رسوخ الشبهة أو الشبهات**: لأن القلب تَشرَّبها واختلطت به، كالإسفنجة التي امتصت الماء العفن.

- **نَقْل الشبهة إلى غيره**: حيث تجده ينشرها بين أصحابه، ويعرضها في كل مناسبة، ويكرر عرضها؛ وكأنه لم يبقَ معه من القول والهمِّ في دينه ودنياه إلا ما أُشرِب قلبه من ذلك؛ فهو لا يكتفي بمرض قلبه، وإنما ينقل عدواه إلى الآخرين السالمين الأصحاء.

والطامة الكبرى تكون حين يخص بهذه البوائق أحبابه وأصحابه المقربين منه أو طلابه المتأثرين به؛ فما أعظمها من مصيبة وقعت على الطرفين!

وهذا معنى تشبيه القلب بالإسفنجة؛ لأنها إذا امتصت العفن صارت تنضح وتقطر بما فيها من ذلك، كما هو مشاهد، وكذا القلب الشبيه بذلك.

إذن ما المخرج من هذه الحالة الإسفنجية؟ إن العلاج والوقاية من ذلك تكون بأمور منها:

- **أولاً: العبادة والطاعة والتضرع بين يدي الله ﷻ وسؤاله الثبات والهداية إلى الحق**

وهذا أمر قد لا ينتبه له المشغولون بالقراءة والثقافة والفكر وسعة الاطلاع؛ حيث يظنون أن سَعة العلم كافية وأن كثرة القراءة وحدها محصِّنة للإنسان في حياته من الزيغ والانحراف، حتى إنهم يستعيضون بها عن الدعاء والعبادة وأفعال القرب؛ فقد يؤخر أحدهم الصلاة أو

يتأخر عن صلاة الجماعة أو بعضها؛ لانشغاله بالقراءة، وقد يرى التسبيح والأذكار مشغلة عما هو أهم (وهو القراءة).

وقد لا يجد في صلة رحمه من الأقربين جداً واجتهاداً، كالذي يقدِّمه في ساعات يقضيها على الشبكة المعلوماتية، (وأنا أتكلم عن الجاد منها وليس عن سخافاتها)، وقد لا يحرص على النوافل؛ لأنها تأخذ منه وقتاً، بل قد لا يجد ما يفرِّغ به نفسه لقراءة القرآن الكريم أو حفظه أو تدبُّر معانيه عُشر معشار ما يقضيه في القراءة المبعثرة الهائمة.

إن هذه حالة يجب أن يبادر أصحابها إلى علاج قلوبهم تجاهها؛ وذلك بحمل النفس على تحمُّل العبادة بأنواعها مع تهيئة البال والنفس والقلب؛ لكي يطيب بالعبادة ويأنس بها؛ فيكون ممن يرتاح بالعبادة وليس ممن يرتاح منها.

والنصيحة بالعبادة عند ورود الفتن؛ حيث تضطرب القلوب، وتصاب البصيرة بالغبش، خير دليل على أهمية العبادة والطاعة والقربى إلى الله -تعالى- وعلى كونها تنير البصائر عند ورود الشبهات.

• **ثانياً: الابتعاد عما يقسي القلب ويضعفه**، خاصة ما عظمت الفتنة فيه في السنوات الأخيرة، مثل:

١ - **مجالس المنكر ومنتدياته التي تقوم -في غالبها- على نشر الإلحاد والزندقة ونشر البدعة** والاستهزاء بالله ورسوله ﷺ وشريعته ودينه وعباده المؤمنين.

وهي تقوم على فكر منحرف وثقافة مستورَدة، وتسعى إلى التشكيك ونَشْر الشُّبه بين أهل الإسلام.

وكفى بذلك مرضاً للقلوب؛ فهذه فيها السم الزعاف، ولا يجوز لأحد دخولها إلا المتمكن يريد إنكار المنكر، ومع هذا؛ فهو حكيم يمر بها لغاية يريد تحقيقها، يخدم بها دينه ويردُّ صَوَلان هذه المنكرات.

ثم هو يمر مسرعاً لا يقيم معها ولا يطيل بحجة معرفة المنكر، بل في قلبه من حرارة الولاء والبراء ما يصرفه عنها إلى برد الإيمان والعلم والطاعة.

٢- مجالس ومواقع قاذورات الإعلام، وفتنها وخاصة فتنة الصور وما يتبعها من مجون يُقرأ أو يُسمع أو يُشاهد.

وهذا يقسي القلب، ويُضعِف العبادة؛ فيمرض صاحبه، ويكون عرضة للشبهات التي قد يقوده إليها من تساهل فيه من الولوغ في الشهوات.

- **ثالثاً: أن تجعل قلبك كالزجاجة الصافية المصمتة** كما أوصى شيخ الإسلام؛ فيكون لقلبك بصر نافذ عند ورود الشبهات، فيعرف أنها شبهة وليست عِلماً، فيتعامل معها على هذا الوضع)[1] ا.هـ.
- **رابعاً**: ومما يحمي من الوقوع في الشبهات والانخداع بها قوة اليقين والإيمان بالله ﷻ وأسمائه الحسنى وقوة اليقين باليوم الآخر، قال الله ﷻ:

---

(١) مجلة البيان عدد (٢٧٠).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١١٢-١١٣].

يقول العلامة محمد أمين الشنقيطي رحمه الله: (في هذه الآية ترتيب غريب عجيب بالغ في الحسن؛ لأن السبب الأول -أي في قبول الباطل- هو الغرور والخديعة، فتسبب عن الغرور والخديعة أن صغت إليه قلوبهم ومالت، ثم تسبب عن صوغ القلوب وميلها أنهم أحبوه ورضوه، ثم تسبب عن كونهم أحبوه ورضوه أن اقترفوه.. والمؤمنون يعرفون زخارف الشيطان ورجسه فيتباعدون منه ويجتنبونه)[١].

ومفهوم الآية أن اليقين باليوم الآخر يحقق مجانبة الإصغاء إلى هذا الخداع والفرار منه، فالمؤمنون بالله واليوم الآخر قد استنارت بصائرهم فنظروا في حقائق الأمور فلم يهولهم زخرف الباطل وغروره)[٢].

وأختم هذا المبحث بالتنبيه على أمور ينبغي مراعاتها في مدافعة الشبهات، وذلك فيما يلي:

١ - إذا كانت الشبهة واضحة البطلان ظاهرة العوار لا يلتفت إليها، فإن الخوض في إبطالها تضييع للزمان وإشهار لها. إنما المدافعة للشبهات

(١) العذب النمير تحقيق خالد السبت (٢/ ٥٨١).
(٢) انظر: (مدافعة الشبهات) د. عبدالعزيز آل عبداللطيف، مجلة البيان العدد (٢٦٩).

التي يضل بها بعض الناس[(١)]، إذ لا يشتبه على الناس الباطل المحض، بل لابد أن يشاب بشيء من الحق[(٢)].

٢- ينبغي في مدافعة الشبهات أن لا تذكر الشبهة ابتداءً واستقلالاً بل الأولى أن يبدأ بتقرير الحق، وتبيين الهدى بأدلته وبراهينه النقلية والعقلية، ثم يتلوه الجواب عن الشبهات الواردة عقب هذا التقرير والتأصيل[(٣)].

٣- ينبغي أن يكون مدافعة الشبهات للضرورة، وأن لا يتصدى لها إلا أولو العلم الراسخين العالمين بسبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، لأن مدافعة أهل الشبهات والأهواء معركة سلاحها العلم والبصيرة في الدين. يقول العلامة ابن الوزير رحمه الله: (المحامي عن السنة الذاب عن حماها: كالمجاهد في سبيل الله تعالى. يعد للجهاد ما استطاع من الآلات والعدة والقوة، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠][(٤)].

٤- التوسط مع الشبهات أثناء سماعها من الآخرين أو ورودها من المخاطبين، فلا يزجر كل سائل تعرض له شبهة، ولا يهمل كل من وقع في حيرة أو اشتباه؛ فهذا الإعراض والإهمال قد يفضي ببعضهم إلى الزندقة أو الخروج عن السنة. أما من تقصد الشبهات أو دعوة

(١) انظر: «التدمرية» (ص١٠٦).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٧).
(٣) انظر: (مدافعة الشبهات) د. عبدالعزيز آل عبداللطيف (المصدر السابق).
(٤) «إيثار الحق على الخلق» (ص٢٠).

الناشئة إلى إثارتها، كما يفعله بعض أهل الزيغ في القديم وفي واقعنا المعاصر، فهذا قد ينفع في حقه الزجر أو الإهمال، والأولى في حق مثل هؤلاء أن يردون إلى الأصول الكبار فقد يكون الاختلاف فيها. وشبهته التي يثيرها إن هي إلا نتيجة لفساد الأصول الكبيرة التي تتعلق بأصول الإيمان والتوحيد.

٥- سبب الوقوع في الشبهات: إما جهل بالشريعة أو هوى وشهوة ومرض في القلب، يغطيها صاحبها بشبهة دليل فيلبس الحق بالباطل، وعلى القائم بدفع الشبهات أن يسبر أحوال المثيرين للشبهات أو الواقعين فيها، فإن كان السبب جهلاً بمحكمات هذا الدين، فيكون الدفع بتعليم الجاهل وإزالة شبهته القائمة على الجهل بالأدلة المحكمة. أما إذا كان السبب شهوة يغطيها بشبهة، فينبغي أن يذكر أمثال هؤلاء بالإخلاص والصدق مع الله ﷻ وتقواه في السر والعلن، وتذكيره بأن شجرة الإيمان لا تقوم إلا على ساق التسليم لخبر الله ﷻ وأمره القدري والشرعي وتذكيره بالآخرة والحساب والجزاء؛ مع السعي لبيان تهافت شبهته بالدليل.

٦- على المتصدي لبيان الحق ودفع الشبهات عنه أن يجرد نيته لله ﷻ وأن يستعين بالله تعالى في قومته، وأن يكثر من الدعاء وسؤال الله ﷻ التثبيت والسداد والهداية للحق له وللمدعو.

• المقدمة الثانية: التأويل خطره، وأثره في فساد الاعتقاد والأعمال ونشر الشبهات

ومن باب التأويلات الفاسدة يدخل أهل الشبهات والزيغ والانحراف ليفسدوا على المسلمين عقيدتهم وأخلاقهم. بل إن باب الشبهات الذي سبق الحديث عنه في المقدمة السابقة لا يدخل منه إلا بمفاتيح التأويل الفاسد والتحريف ولي أعناق الأدلة والنصوص. وأصل التأويل الفاسد مبني عند أهله على تقديس العقل وتقديمه على النقل، بحيث ما ظهر في عقولهم من النصوص متعارضاً مع أفهامهم، فإن كان حديثاً نبوياً ردوه، ولو كان صحيحاً بحجة أنه حديث آحاد، وإن كان من القرآن أولوه إلى ما يوافق عقولهم وأهواءهم، وزعموا أن الظاهر غير مراد.

ولبيان خطر التأويل وما أحدث في هذه الأمة من الفساد في الدين والدنيا على مدار التاريخ الإسلامي، أنقل ما كتبه الإمام ابن القيم رحمه الله عن هذه الجنايات والمفاسد التي نجمت بسبب فتح باب التأويل. يقول رحمه الله:

(إذا تأمل المتأمل فساد العالم وما وقع فيه من التفرق والاختلاف، وما دفع إليه أهل الإسلام وجده ناشئاً من جهة التأويلات المختلفة المستعملة في آيات القرآن وأخبار الرسول التي تعلق بها المختلفون على اختلاف أصنافهم في أصول الدين وفروعه، فإنها أوجبت ما أوجبت من التباين والتحارب وتفرق الكلمة وتشتت الأهواء وتصدع الشمل وانقطاع الحبل وفساد ذات البين، حتى صار يكفر ويلعن بعضهم بعضاً، وترى طوائف منهم تسفك دماء الآخرين، وتستحل منهم أنفسهم وحرمهم وأموالهم، ما هو أعظم مما يرصدهم به أهل دار الحرب من المنابذين لهم...

ومن أعظم آفات التأويل وجناياته أنه إذا سلط على أصول الإيمان والإسلام اجتثها وقلعها، فإن أصول الإيمان خمسة، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر(١)، وأصول الإسلام خمسة وهي كلمة الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، فعمد أرباب التأويل إلى أصول الإيمان والإسلام فهدموها بالتأويل، وذلك أن معقد هذه الأصول العشرة تصديق الرسول فيما أخبر وطاعته فيما أمر، فعمدوا إلى أجل الأخبار وهو ما أخبر به عن الله من أسمائه وصفاته ونعوت كماله، فأخرجوه عن حقيقته وما وضع له...

ومن جنايات التأويل ما وقع في الإسلام من الحوادث بعد موت رسول الله وإلى يومنا هذا، بل في حياته -صلوات الله وسلامه عليه- فإن خالد بن الوليد قتل بني جذيمة بالتأويل، ولهذا برأ رسول الله من صنعه، وقال: «**اللَّهمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِد**»(٢)، ومنع الزكاة من منعها من العرب بعد موت رسول الله بالتأويل، وقالوا: إنما قال الله لرسوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣]، وهذا لا يكون لغيره، فجرى بسبب هذا التأويل الباطل على الإسلام وأهله ما جرى ثم جرت الفتنة التي جرت قتل عثمان، بالتأويل، ولم يزل التأويل يأخذ مأخذه حتى قتل به عثمان فأخذ بالزيادة والتولد حتى قتل به بين علي ومعاوية بصفين سبعون ألفا أو أكثر من المسلمين،

(١) الوارد في حديث جبريل: أن أركان الإيمان ستة.. وسادسها: الإيمان بالقدر خيره وشره.

(٢) البخاري (٤٠٨٤)، باب بعث النبي ﷺ خالد.

وقتـل أهـل الحرة بالتأويل وقتل يوم الجمـل بالتأويل من قتل، ثم كان قتل ابن الزبير ونصب المنجنيق على البيت بالتأويل، ثم كانت فتنة ابن الأشعث وقتل من قتل من المسـلمين بدير الجماجم بالتأويل، ثم كانت فتنة الخوارج ومـا لقي المسـلمون مـن حروبهم وأذاهـم بالتأويل، ثم خروج أبي مسـلم وقتله بني أمية.

وتلك الحروب العظام بالتأويل، ثم خروج العلويين وقتلهم وحبسهم ونفيهـم بالتأويل إلى أضعاف أضعاف ما ذكرنا من حوادث الإسـلام التي جرهـا التأويل... وما ضرب مالك بالسياط وطيف بـه إلا بالتأويل، ولا ضرب الإمـام أحمـد بالسـياط وطلب قتلـه إلا بالتأويـل، ولا قتل أحمد بن نـصر الخزاعي إلا بالتأويل، ولا جرى على نعيم بن حماد الخزاعي ما جرى وتوجع أهل الإسلام لمصابه إلا بالتأويل، ولا جرى على محمد بن إسماعيل البخـاري مـا جرى ونفى وأخـرج من بلده إلا بالتأويـل، ولا قتل من قتل مـن خلفـاء الإسـلام وملوكه إلا بالتأويل، ولا جرى على شـيخ الإسـلام عبدالله أبي إسـماعيل الأنصاري ما جرى وطلـب قتله بضعة وعشرين مرة إلا بالتأويـل، ولا جـرى على أئمة السـنة والحديث ما جرى حين حبسـوا وشردوا وأخرجوا من ديارهم إلا بالتأويل، ولا جرى على شـيخ الإسلام ابن تيمية ما جرى من خصومه بالسـجن وطلب قتله أكثر من عشرين مرة إلا بالتأويل.

فقاتـل الله التأويـل الباطل وأخـذ حق دينه وكتابه ورسـوله وأنصاره منهـم، فـماذا هدموا من معاقل الإسـلام، وهـدوا من أركانـه، وقلعوا من

قواعـده، ولقـد تركـوه أرق من الثوب الخلـق البالي الـذي تطاولت عليه السنون، وتوالت عليه الأهوية والرياح، ولو بسطنا هذا الفصل وحده ما جنـاه التأويل على الأديان والشرائع وخراب العالم، لقام منه عدة أسـفار، وإنما نبهنا تنبيهاً يعلم به العاقل ما وراءه، وبالله التوفيق)[١]ا.هـ.

وقد يقول قائل: وهل التأويل مذموم بإطلاق؟ وهل جميع صوره مردودة وفاسـدة؟ والجواب على هذا أن أغلب وأكثر صور التأويل فاسـدة ومردودة، لأنها في حقيقتها تحريف للكلم عن مواضعه بلا دليل من كتاب وسنة.

يقـول شـيخ الإسـلام رحمه الله: (هـذا التأويـل في كثير مـن المواضع -أو أكثرهـا وعامتها- مـن باب تحريف الكلم عن مواضعـه من جنس تأويلات القرامطـة والباطنية، وهـذا هو التأويل الذي اتفق سـلف الأمة وأئمتها على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض ورموا في أثرهم بالشهب، وقد صنف الإمام أحمد كتاباً في الرد على هؤلاء وسماه: «الرد على الجهمية والزنادقة»)[٢].

أما التأويل المراد به في الكتاب والسـنة فهو مشتق من معناه اللغوي الـذي هـو من قولـك: آل الشيء يؤول ومـآلاً: رجـع[٣]. ولذلك جاءت استعمالات (التأويل) في الكتاب والسنة على عدة معانٍ:

الأول: بمعنـى التفسـير، وقد اسـتخدمه القدماء من علماء التفسـير كابـن جرير الطـبري رحمه الله فإنه كثيراً ما يقول: وتأويـل هذه الآية كذا أي

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٦٥، ٣٧٦ وما بعدها (باختصار).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٦٩).
(٣) «لسان العرب» (١/ ١٣٠).

تفسيرها. ذلك أن المفسر يراجع نفسه عند الشرح، ويبين معنى الآية وما تؤول إليه من المقاصد والمعاني، ومن ذلك دعاؤه ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما وقوله: «**اللَّهمَّ فَقههُ في الدينِ وعلّمه التأويل**»[1].

الثاني: ما يؤول إليه الأمر وما ورد في الكلام، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿**هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ...**﴾ الآية [الأعراف:٥٣]. أي هل ينظرون إلا تحقيق ما أخبر الله ﷻ عنه من وقوع العذاب بهم يوم القيامة. عندئذ يقر الذين كذبوا به في الدنيا، ويقولون: ﴿**قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ**﴾.

الثالث: تحقيق ما أمر الله ﷻ به، ومن ذلك ما صح في السنة عن عائشة رضي الله عنها أن قالت: (كان ﷺ يقول في ركوعه: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي يتأول القرآن**»)[2] أي يحقق ما أمره الله به في كتابه وذلك بعد نزول سورة النصر، وفيها قوله تعالى: ﴿ **فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ** ﴾ [النصر:٣].

هذه هي المعاني الشرعية للتأويل، وليس كما يفهمه أهل التحريف، ولكن قد يقال: إن بعض معاجم اللغة العربية وبعض كتب الأصول تذكر أن معنى التأويل: هو صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به.

أشار إلى ذلك ابن منظور وابن الأثير وغيرهما، فكيف تزعمون أن العرب لا تفقه من كلامها هذا المعنى.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٩٧) وقال الأرناؤط: إسناده قوي على شرط مسلم.
(٢) البخاري تفسير سورة النصر (٤٦٨٤)، مسلم (٤٨٤).

والجـواب: أن هـذا المعنى دخل إلى معاجـم اللغة العربيـة المتأخرة، نقلاً عن اسـتعمالات الفقهاء والأصوليين، لا نقلاً عن كلام العرب الذي يحتـج به، يـدل على صحة هـذا القول: إن معاجـم اللغة العربيـة المتقدمة أمثال: «تهذيب اللغة» للأزهري، و«مقاييس اللغة» لابن فارس، وهما مما دون في القرن الرابع الهجري لم يشـيرا إلى هـذا المعنى، الذي ذكره الفقهاء والأصوليون، مما يدل على أنه معنى اصطلاحي خاص بهم، فلا يجوز حمل ألفاظ القرآن عليه.

وعلى فرض أن هذا التأويل في لغة العرب هو هذا المعنى الذي أورده الأصوليـون، فـإن المؤولين للنصـوص لم يلتزموا بالـشروط التي وضعها الأصوليـون لجـواز التأويـل، ومـن أهمهـا أن يكـون معـه دليـل صحيح وصريـح يوجـب صرف اللفظ عـن ظاهره، وأن يسـلم هـذا الدليل عن المعـارض، فـإذا قام دليل مـن القرآن والسـنة الصحيحة عـلى أن الحقيقة مراده امتنع تركها[١].

ولذلـك فـإن صنيعهـم هـذا لا ينفـي عنهـم التحريف لعـدم توفر الـشروط. ومـن أخطـر مـا يوقـع بعـض المتأولـة في تأويلاتهم الفاسـدة اعتمادهم على ما يسـمى بتحقيق المصالح ودفع المفاسـد، فيعارضون بهذه القواعد نصوص الكتاب والسـنة، وينزلونها بتأويلهم الفاسـد على وقائع وحـوادث بأهوائهـم، دون اعتبـار لقواعـد الترجيـح ودون النظر في فقه الموازنات، وهذا يكثر في المظالم والعدوان على الناس في دمائهم وأموالهم،

---

(١) انظر: «التأويل خطورته وآثاره» د. عمر الأشقر في موقع (شبكة الدفاع عن السنة).

كما هو الحال عند أرباب السياسة الذين يقدمون السياسة على الشرع عند التعارض، وذلك كما قدم أهل الكلام عقولهم وأهواءهم على نصوص الكتاب والسنة.

أسباب الوقوع في التأويل الفاسد:

إذا تبين فساد التأويل وجنايته على الدين والنفوس والأموال والعقول والأعراض، فلماذا وقع فيه من وقع من بعض أهل العلم أو بعض الولاة، وما الذي سهل على النفوس قبوله مع مخالفته للبيان والعقل والفطرة والنقل؟

يذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أسباباً لقبوله قد وضعها أرباب التأويل الفاسد ومهدوا له بذلك، فمن هذه الأسباب التي ذكرها رَحِمَهُ اللهُ:

السبب الأول: أن يأتي به صاحبه مموهاً مزخرف الألفاظ ملفق المعاني مكسواً حلة الفصاحة والعبارة الرشيقة، فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه، وتبادر إلى اعتقاده وتقليده، ويكون حاله في ذلك حال من يعرض سلعة مموهة مغشوشة على من لا بصيرة له بباطنها وحقيقتها، فيحسنها في عينه ويحببها إلى نفسه، وهذا الذي يعتمده كل من أراد ترويج باطل، فإنه لا يتم له ذلك إلا بتمويهه وزخرفته وإلقائه إلى جاهل بحقيقته. قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴾ [الأنعام:١١٢]، فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، فيغتر به

الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل، ثم ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به بصغوها وميلها إليه ورضاها به، لما كسي من الزخرف الذي يغر السامع، فلما أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولاً وعملاً، فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر الذي فيه بيان أصول الباطل والتنبيه على مواقع الحذر منها وعدم الاغترار بها، وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، وأكثر الخلق كذلك.

السبب الثاني: أن يخرج المعنى الذي يريد إبطاله بالتأويل في صورة مستهجنة، تنفر عنها القلوب، وتنبو عنها الأسماع، فيتخير له من الألفاظ أكرهها وأبعدها وصولاً إلى القلوب وأشدها نفرة عنها، فيتوهم السامع أن معناها هو الذي دلت عليه تلك الألفاظ فيسمى التدين ثقالة، وعدم الانبساط إلى السفهاء والفساق والبطالين سوء خلق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والغضب لله والحمية لدينه فتنة وشرًا وفضولاً، فكذلك أهل البدع والضلال من جميع الطوائف هذا معظم ما ينفرون به عن الحق ويدعون به إلى الباطل، فيسمون إثبات صفات الكمال لله تجسيماً وتشبيهاً وتمثيلاً، ويسمون إثبات الوجه واليدين له تركيباً، ويسمون إثبات استوائه على عرشه وعلوه على خلقه فوق سمواته تحيزاً وتجسيماً، ويسمون العرش حيزاً وجهة، ويسمون الصفات أعراضاً، والأفعال حوادث، والوجه واليدين أبعاضاً، والحكم والغايات التي يفعل لأجلها أغراضاً. فلما وضعوا لهذه المعاني الصحيحة الثابتة تلك الألفاظ المستنكرة

الشـنيعة، تم لهم من نفيها وتعطيلها ما أرادوه، فقالوا للأغمار والأغفال: اعلمـوا أن ربكم منزه عـن الأعراض والأغـراض والأبعاض والجهات والتركيب والتجسـيم والتشـبيه، فلم يشـك أحد الله في قلبه وقار وعظمة في تنزيه الرب تعالى عن ذلك... فلما صرحوا لهم بنفي ذلك: بقي السامع متحـيرًا أعظم حيرة بين نفي هذه الحقائق التي أثبتها الله لنفسـه وأثبتها له جميع رسله وسلف الأمة بعدهم، وبين إثباتها وقد قام معه شاهد نفيها بما تلقـاه عنهم، فمـن الناس من فر إلى التخييل، ومنهم مـن فر إلى التعطيل، ومنهم من فر إلى التجهيل، ومنهم من فر إلى التمثيل، ومنهم من فر إلى الله ورسوله، وكشـف زيف هذه الألفاظ وبين زخرفها وزغلها، وأنها ألفاظ مموهـة بمنزلـة طعام طيـب الرائحة في إناء حسـن اللون والشـكل ولكن الطعـام مسـموم، فقالوا مـا قاله إمام أهل السـنة باتفاق أهل السـنة أحمد بـن حنبـل: لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شـناعة المشـنعين. ولما أراد المتأولـون المعطلون تمام هذا الغرض، اخترعوا لأهل السـنة الألقاب القبيحة، فسـموهم حشـوية ونوابت ونواصب ومجبرة ومجسـمة ومشبهة ونحـو ذلك، فتولد من تسـميتهم لصفـات الرب تعـالى وأفعاله ووجهه ويديـه وحكمتـه بتلك الأسـماء، وتلقيب من أثبتها له بهـذه الألقاب لعنة أهل الإثبات والسـنة وتبديعهم وتضليلهم وتكفيرهم وعقوبتهم، ولقوا منهم ما لقي الأنبياء وأتباعهم من أعدائهم، وهذا الأمر لا يزال في الأرض إلى أن يرثها الله ومن عليها[١].

(١) ما أشبه الليلة بالبارحة، فها هم سلف هؤلاء المبتدعة في واقعنا المعاصر من ليبراليين وعلمانيين ومرجئة وصوفية يرمون الدعاة والمجاهدين من أهل السنة بالمتحجرين والظلاميين والإرهابيين ودعاة فتنة وخوارج.

السبب الثالث: أن يعزو المتأول تأويله وبدعته إلى جليل القدر نبيه الذكر من العقلاء، أو من آل البيت النبوي، أو من حل له في الأمة ثناء جميل ولسان صدق؛ ليحليه بذلك في قلوب الأغمار والجهال، فإن من شأن الناس تعظيم كلام من يعظم قدره في نفوسهم، وأن يتلقوه بالقبول والميل إليه، وكلما كان ذلك القائل أعظم في نفوسهم كان قبولهم لكلامه أتم، حتى إنهم ليقدمونه على كلام الله ورسوله، ويقولون هو أعلم بالله ورسوله منا.. وهذا ميراث بالتعصب من الذين عارضوا دين الرسل بما كان عليه الآباء والأسلاف، فإنهم لحسن ظنهم بهم وتعظيمهم لهم آثروا ما كانوا عليه على ما جاءتهم به الرسل، وكانوا أعظم في صدورهم من أن يخالفوهم، ويشهدوا عليهم بالكفر والضلال، وأنهم كانوا على الباطل، وهذا شأن كل مقلد لمن يعظمه فيما خالف فيه الحق إلى يوم القيامة.

السبب الرابع: أن يكون ذلك التأويل قد قبله ورضيه مبرز في صناعة من الصناعات أو علم من العلوم الدقيقة أو الجليلة، فيعلو له بما برز به ذكر في الناس ويشتهر له به صيت، فإذا سمع الغمر الجاهل بقبوله لذلك التأويل وتلك البدعة واختياره له أحسن الظن به، وارتضاه مذهباً لنفسه، ورضي من قبله إماماً له، وقال: إنه لم يكن ليختار مع جودة قريحته وذكائه وصحة ذهنه ومهارته بصناعته وتبريزه فيها على بني جنسه، إلا الأصوب والأفضل من الاعتقادات والأرشد والأمثل من التأويلات وأين يقع اختياري من اختياره، فرضيت لنفسي ما رضيه لنفسه، فإن عقله وذهنه وقريحته إنما تدله على الصواب، كما دلته على ما خفي عن غيره من صناعته وعلمه.

وهـذه الآفة قد هلك بهـا أمم لا يحصيهم إلا الله، رأوا الفلاسـفة قد بـرزوا في العلوم الرياضية والطبية، واسـتنبطوا بعقولهم وجودة قرائحهم ما عجـز أكثر الناس عن تعلمه، فقالوا: للعلـوم الإلهية والمعارف الربانية أسـوة بذلك... وما عرف أصحاب هذه الشـبهة أن الله سبحانه قد يعطي أجهل الناس به وبأسـمائه وصفاته وشرعه من الحذق في العلوم الرياضية والصنائع العجيبة ما تعجز عنه عقول أعلم الناس به ومعارفهم، وقد قال النبي ﷺ: «**أنتم أعلم بدنياكم**»(١).

السبب الخامس: الإغراب على النفوس بما لم تكن عارفة به من المعاني الغريبة، التي إذا ظفر الذهن بإدراكها ناله لذة من جنس لذة الظفر بالصيد الوحـشي الـذي لم يكن يطمع فيه، وهذا شـأن النفوس فإنهـا موكلة بكل غريب تستحسـنه وتؤثـره وتنافس فيه.. ثم اختاروا لتلـك المعاني الغريبة ألفاظا أغرب منها، وألقوها في مسامع الناس، وقالوا: إن المعارف العقلية والعلـوم اليقينيـة تحتهـا، فتحركـت النفـوس لطلـب فهم تلـك الألفاظ الغريبـة، وإدراك تلك المعاني. واتفـق أن صادفت قلوباً خاوية من حقائق الإيـمان ومـا بعـث الله به رسـوله، فتمكنت منهـا فعز على أطبـاء الأديان استنقاذها منها، وقد تحكمت فيها..

السبب السادس: تقديـم مقدمات قبـل التأويل تكـون كالأطناب والأوتـاد لفسـطاطه، **فمنهـا**: ذم أصحـاب الظواهـر وعيبهـم والإزراء بهم، وأنهم قوم جهال، لا عقول لهم، وإنما هم أصحاب ظواهر سـمعية، وينقلون من مثالبهم وبلههم ما بعضه صدق وأكثره كذب.

---

(١) مسلم بلفظ: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**» (٢٣٦٣).

ومنها: قولهم: إن الخطاب بالمجاز والاستعارة أعذب وأوفق وألطف، وقد قال بعض أئمة النحاة: أكثر اللغة مجاز، فإذا كان أكثر اللغة مجازاً سهل على النفوس أنواع التأويلات، فقل ما شئت، وأوِّل ما شئت، وأنزل عن الحقيقة ولا يضرك أي مجاز ركبته.

ومنها: قولهم: إن أدلة القرآن والسنة أدلة لفظية، وهي لا تفيد علماً ولا يقيناً، والعلم إنما يستفاد من أدلة المعقول وقواعد المنطق.

ومنها: قولهم: إذا تعارض العقل والنقل قدم العقل على النقل، فهذه المقدمات ونحوها هي أساس التأويل، فإذا انضمت هذه الأسباب بعضها إلى بعض، وتقاربت فيا محنة القرآن والسنة، وقد سلكا في قلوب قد تمكنت منها هذه الأسباب، فهنالك التأويل والتحريف والتبديل والإضمار والإجمال)(١).

وبعد أن بين الإمام ابن القيم رحمه الله هذه الأسباب التي أدت إلى الوقوع في التأويل، ذكر الأسباب الجالبة له التي ساعدت على انتشاره، فقال رحمه الله:

(وهي أربعة أسباب: اثنان من المتكلم، واثنان من السامع.

فالسببان اللذان من المتكلم:

- إما من نقصان بيانه، وإما سوء قصده.

واللذان من السامع:

- إما سوء فهمه، وإما سوء قصده.

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٣٦-٤٥١) (باختصار).

فـإذا انتفت هذه الأمور الأربعـة انتفى التأويل الباطل، وإذا وجدت أو بعضهـا وقـع التأويل.. فـإذا كان المتكلم قـد وفى البيـان حقه، وقصد إفهام المخاطب وإيضاح المعنى له وإحضاره في ذهنه، فوافق من المخاطب معرفـة بلغة المتكلـم وعرفه المطرد في خطابه، وعلم من كمال نصحه أنه لا يقصد بخطابه التعمية والإلغاز، لم يخف عليه معنى كلامه، ولم يقع في قلبه شك في معرفة مراده.

وإن كان المتكلـم قـد قـصر في بيانه وخاطـب السـامع بألفاظ مجملة تحتمـل عدة معـان، ولم يتبين له ما أراده منها، فإن كان عاجزاً أتي السـامع مـن عجزه لا من قصده، وإن كان قـادراً عليه ولم يفعله حيث ينبغي فعله أتي السامع من سوء قصده..

ولهـذا كان ما فهمه الصحابة من القـرآن أولى أن يصار إليه، مما فهمه مـن بعدهم، فانضاف حسـن قصدهم إلى حسـن فهمهـم، فلم يختلفوا في التأويـل في بـاب معرفة الله وصفاته وأسـمائه وأفعاله واليـوم الآخر، ولا يحفظ عنهم في ذلك خلاف لا مشـهور ولا شـاذ، فلما حدث بعد انقضاء عصرهم **من سـاء فهمه وساء قصده**، وقعوا في أنواع من التأويل بحسب سـوء الفهم وفساد القصد، وقد يجتمعان وقد ينفردان، وإذا اجتمعا تولد من بينهما جهل بالحق ومعاداة لأهله واستحلال ما حرم الله منهم.

وإذا تأملـت أصول المذاهب الفاسـدة رأيت أربابها قد اشـتقوها من بـين هذين الأصلين، وحملهم عليها منافسـة في رياسـة أو مـال أو توصل إلى عـرض من أعـراض الدنيا تخطبه الآمـال وتتبعه الهمـم وتشرئب إليه

النفوس، فيتفق للعبد شبهة وشهوة، وهما أصل كل فساد ومنشأ كل تأويل باطل، وقد ذم الله -سبحانه- من اتبع الظن وما تهوى الأنفس، فالظن الشبهات، وما تهوى الأنفس الشهوات)[١].

* * *

بعد هاتين المقدمتين عن الشبهات والتأويل الفاسد وآثارهما الخطيرة في لبس الحق بالباطل والتشويش على إيمان الناس وأخلاقهم، نعود إلى أصل الموضوع، ألا وهو دور أهل العلم والدعاة إلى المنهج الحق في التصدي لهذه الشبهات والتأويلات الفاسدة، وأن هذا ضرب من ضروب الجهاد في سبيل الله ﷻ لا يقل إن لم يفق جهاد الكفار باليد والسنان، لأن الجهاد بالسنان يكفي فيه النية الصادقة والدربة على فنون القتال؛ ليكون صالحاً وفاعلاً في هذا النوع من الجهاد، أما الجهاد بالبيان والحجة ورد تأويلات المبطلين والمشبهين فلا يصلح له إلا من آتاه الله العلم والبصيرة النافذة في الدين مع التقوى واليقين.

وقد سبق في أول المبحث السابق ذكر بعض مظاهر الغزو الفكري، وإثارة الغبش حول العقيدة الصحيحة، عقيدة أهل السنة والجماعة، وأساليب هذا الغزو في التشويش على أصول الدين وأحكامه وعلى تاريخ المسلمين. ويحسن هنا ذكر بعض الردود على هذه المظاهر مشاركة في جهاد البيان، وهي على سبيل المثال في جهاد المبطلين لا على سبيل الحصر.

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٥٠٠-٥١٠) (باختصار).

أولاً: التصدي للهجوم على عقيدة الولاء والبراء وإزالة الشبهات المثارة حولها

وقد سبق الإشارة إلى أهم هذه الصور التي يسعى فيها أعداء الدين بتسليط معاولهم لهدم هذا السور المنيع الذي حفظ الله ﷻ به هوية المسلمين وولاء بعضهم لبعض، وتميزهم عن الكفار طيلة التاريخ الإسلامي، ألا وهو سور الولاء والبراء، ومن أهم هذه الصور:

أ- **قولهم: إن الولاء والبراء يتعارض مع التسامح الديني والإخاء،** وعليه ينبغي أن نلغي مصطلح (المسلم والكافر)، ونستبدله (بنحن والآخر)!! وعلينا أن نبدي تسامحنا مع الآخر. ولا يخفى تهافت هذه الشبهة وسرعان ما تذوب وتضمحل عند الرجوع إلى كتاب الله ﷻ الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢] ويكفينا في ذلك قول الله ﷻ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ الآية [المجادلة:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ...﴾ الآية [الممتحنة:٤]، وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ...﴾ الآية [المائدة:٧٢]، وقوله سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ...﴾

الآية [الحشر:٢]، وختاماً قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦].

فهل بعد هذه الآيات البيّنات الواضحات عذر لمن ينادي بمحبة الكافر والتسامح الديني معه، وعدم تسميته بالكافر؟ ولمزيد من التفصيل أذكر فيما يلي بعض المؤاخذات العقدية في هذا الطرح:

أولاً: العدول عن الأسماء والمصطلحات الشرعية التي جاءت في كتاب الله ﷻ وفي سنة نبيه ﷺ إلى أسماء ومصطلحات بشرية غامضة، ونحاتات أفكار واهية، أفرزتها عقول مهزومة، فاستبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتركت ما أسماه الله ﷻ من الأسماء المنطبقة على مسمياتها في كتابه -سبحانه وتعالى-، حيث قسم الناس إلى حزبين: حزب الله المؤمنين وحزب الشيطان الكافرين، قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

فليس هناك (نحن والآخر) وإنما هناك (المسلمون والكافرون)، قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، والآيات في ذكر الكفر والكافرين كثيرة جداً، جاء ذكرها في ما يزيد على ٣٥٢ موضعاً، فلماذا التحرج من كلام الله ﷻ الذي هو أحسن الحديث وأصدقه وأفصحه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾.

إن من يتحرج من كلام الله ﷻ وتسمياته، ويرتاح لكلام البشر ومصطلحاتهم ومسمياتهم يخشى عليه أن يكون تحت طائلة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥].

لقد نهى الله ﷻ نبيه ﷺ وأتباعه من بعده من أن يكون في الصدور حرج من الصدع بكل ما جاء في القرآن من أسماء وأحكام، وعقائد وقصص وأخبار، بل الواجب اتباعه، فقال تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٢].

وعند هذه الآية يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (والله تعالى رفع الحرج عن الصدور بكتابه، وكانت قبل إنزال الكتاب في أعظم الحرج والضيق، فلما أنزل كتابه؛ ارتفع به عنها ذلك الحرج، وبقي الحرج والضيق على من لم يؤمنوا به، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥])[١] ا.هـ.

ويقول أيضاً في موطن آخر: (ولا تجد مبتدعاً في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته، كما أنك لا تجد ظالماً فاجراً إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنى، ثم ارض لنفسك بما تشاء)[٢] ا.هـ.

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٥١٨) (باختصار).
(٢) «الفوائد» (ص٩٠).

ثانياً: لو أن الأمر في استبدال (الآخر) بالكافر توقف عند الاستبدال اللفظي لكان الأمر أهون مع مخالفته لكلام الله ﷻ كما تبين، ولكن الخطورة في هذا الاستبدال يتجاوز اللفظ إلى الهزيمة النفسية أمام الآخر الكافر، وذلك بالدعوة إلى عدم الكراهية له، وإخفاء ظلمه، وعدوانه، وإرهابه، وكأنه مظلوم قد سلبت حقوقه!! ويشعر السامع من الذين يطرحون مصطلح (الآخر) بأنهم يعيشون تحت ظرف سياسي داخلي أو خارجي صور لهم الآخر، وكأنه مظلوم يريد من ينصره ممن ظلمه!

واعتمدوا في ذلك على نصوص في الكتاب والسنة تدعو إلى التسامح والبر والقسط مع الكفار، وحرفوها عن معانيها، وفصلوها عن مناسباتها التي نزلت فيها، ونسوا أو تناسوا الآيات التي فيها وجوب عداوة الكافر والبراءة منه، وجهاده حتى يكون الدين كله لله، فالبر والقسط شيء، والموالاة والنصرة شيءٌ آخر.

(إن رفع شعار التسامح والصفح مع الكفار اليوم ليوضع في غير موضعه، لأن في ذلك خلط وتلبيس وتضليل، حيث تسمى الموالاة والمداهنة للكفار تسامحاً ومداراة، وفرق كبير بين المداراة والمداهنة التي فيها تصحيح مذاهب الكفار أو السكوت عليها، وإظهار المحبة لهم ونسيان عداوتهم وحربهم للمسلمين في القديم والحديث، إن الذين كفروا من أهل الكتاب هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعاً ورداءاً، وأهل الكتاب، هؤلاء هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم

الذين شردوا المسلمين في فلسطين، وأحلوا اليهود محلهم متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية، وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان، في الحبشة والصومال وأرتيرية، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند، وفي كل مكان، وهم الذين قتلوا أهلنا ونساءنا وأطفالنا في أفغانستان والعراق، ثم يظهر بيننا من يظن أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر، ندفع به الإلحاد والإرهاب، إن هؤلاء لا يتدبرون القرآن الكريم، وإلا لما اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام بدعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن.

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية يخطئون في فهم معنى الأديان، كما يخطئون في فهم معنى التسامح، فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله، والتسامح يكون في المعاملات الشخصية، لا في التصور الاعتقادي، ولا في النظام الاجتماعي، إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم، بأن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام، وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام، ولا يقبل دونه بديلاً، ولا يقبل فيه تعديلاً -ولو طفيفاً- هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم، وهو يقرر ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥]، ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٤٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم

مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة:٥١]، وفي القرآن كلمة الفصل ولا على المسلم من تميع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين)[١].

ب- الدعوة إلى وحدة الأديان والتقارب بينها والتواد بين أهلها:

إن من الفتن الخطيرة التي ترقق ما قبلها، والتي كانت تطرح ما بين الفينة والأخرى، ولكنها اليوم تطرح بقوة وكثافة أكثر من أي وقت مضى، فتنة الدعوة إلى الحوار بين الأديان والتقارب بينها، حيث تعقد لها الندوات والمؤتمرات، ويشعر المراقب لهذه الفتنة ومن يتولى كبرها أنها تطرح بصورة تتسم بالكيد والمكر والتلبيس، ويتولى الإعلام بشتى وسائله الدعوة لها وتزيينها للناس بشبهات باطلة، يخشى أن تنطلي على كثير من جهلة المسلمين إن لم يجدوا من يبين لهم حقيقة هذه الدعوة الخبيثة، ويكشف عوارها وزيفها وضلالها.

ومع خطورة هذه الدعوة ومساسها بثوابت هذا الدين وأصوله، إلا أن من انبرى لكشف حقيقة هذه الدعوة في هذه الأيام هم قلة من الدعاة والعلماء من أمثال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالته القيمة «الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان»، والشيخ عبدالعزيز آل عبد اللطيف في كتابه «نواقض الإيمان القولية والعملية». و الحوار الذي أجراه موقع شبكة نور الإسلام مع الشيخ عبدالعزيز الطريفي، والرسالة العلمية التي كتبها الشيخ أحمد القاضي بعنوان: «دعوة التقريب بين الأديان». فجزاهم الله خيراً وبارك في جهودهم.

---

(١) انظر: (طريق الدعوة) أحمد فايز (بشيء من التصرف والاختصار).

ومع ما في ردودهم من القوة والشمول، إلا أن الأمر من الخطورة بحيث يحتاج إلى مزيد من الطرح والفضح والتكثيف في الوسائل المتاحة المتنوعة التي تصل إلى جميع شرائح الناس، لعلهم يفقهون حقيقة هذه الدعوة وخطرها وضلالها وبطلانها.

وإسهاماً في مدافعة هذه الدعوة الباطلة أكتب هذه الوقفات السريعة، مستفيداً ممن سبقني من المشايخ الكرام، أسأل الله ﷻ في ذلك الهدى والسداد:

الوقفة الأولى: (دين الله الحق واحد وليس عدة أديان)

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقال سبحانه عن أهل الكتاب: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٢٠]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

وقال -سبحانه-: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦]. هذا كلام الله، ومن

أصدق من الله حديثاً: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥]. فهل بعد هذا البيان من بيان في أن دين الله الحق واحد، وهو الإسلام وليس عدة أديان، وهل يجوز للمسلم وهو يقرأ ويسمع هذه الآيات البينات المحكمات أن يقبل فكرة التقارب بين الأديان أو التحاور معها على أساس الندية والاعتراف بها؟!

إن دين الله الحق واحد، وليس هناك شيء اسمه الأديان السماوية أو الإبراهيمية؛ لأن دين الأنبياء جميعاً واحد هو الإسلام، قال ﷺ: «**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ**» قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، فَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ**»(١). فدين إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد -عليهم الصلاة والسلام- هو الإسلام لا غير: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤]، وقال سبحانه عن عيسى -عليه السلام- وحوارييه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢].

واللافت في جل الآيات السابقة أنها في سورة آل عمران، وقد نزلت في الحوار مع نصارى نجران، حيث كان الحوار صريحاً حاسماً، وذلك بإعلان البراءة من دين النصارى الوثني المحرف، ودعوتهم إلى ترك

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم (٢٣٧٥).

كفرهم وشركهم، ودعوتهم إلى الدخول في دين الإسلام القائم على عبادة الله وحده وتوحيده والبراءة من الشرك وأهله.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (والمقصود أن كل من رغب عن ملة إبراهيم فهو سفيه. قال أبو العالية: رغبت اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم، وابتدعوا اليهودية والنصرانية وليست من الله، وتركوا دين إبراهيم)(١). فأين هذا من الدعوة الباطلة التي تطرح اليوم بقبول دين اليهود والنصارى أو عدم التعرض له بالنقد والتضليل والبراءة، بل والتقارب معه بحجة محاربة الإلحاد، وفي نشر السلام والتسامح والعدل!!

وسبحان الله العظيم كيف يقترب فضلاً عن أن يتحد شيئان متضادان. كيف يجتمع التوحيد القائم على عبادة الله وحده لا شريك له مع الشرك القائم على عبادة غير الله، وكيف يجتمع من يقول: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢] مع من يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، ومع من يقول: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ ومع من يقول ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾، تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً، كيف يجتمع الموحد ويتقارب مع من يقول الله عَزَّ وَجَلَّ عنه وعن شناعة معتقده: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٧٢).

﴿٩٤﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:٨٨-٩٥]، إن المتضادين لا يجتمعان أبداً لا في عالم الجمادات ولا في عالم الحيوانات إلا على وجه المغالبة، حتى يذوب أحد المتضادين في الآخر، وإلا فإنهما حسب السنن الكونية سيبقيان متنافرين، لا يلتقي أحدهما بالآخر، إلا أن يلتقي الضب بالحوت.

الوقفة الثانية: (متى يكون الحوار مع الكفار مقبولاً؟)

إذا تبين أن فكرة الوحدة أو التقارب بين الإسلام والكفر مستحيلة عقلاً وشرعاً، وإن وجد من يقبلها فإما أن يكون جاهلاً لا يدري ما معنى التوحيد، ولا ما هو الشرك؟ أو يكون عالماً بذلك لكنه ماكر مغرض يريد هدم الإسلام ونشر الكفر.

إذا تبين لنا ذلك فسيبقى أمامنا سؤال مفاده: متى يكون الحوار مع الكفار مقبولاً؟

والجواب -والحمد لله- واضح وجلي، قد بينه الله عز وجل في كتابه الكريم، وذلك أن الصورة المقبولة من الحوار مع أهل الكتاب وغيرهم من الكفار، هو دعوتهم إلى التوحيد ودخولهم في الإسلام واتباعهم لمحمد صلى الله عليه وسلم، وترك ما هم عليه، وإن رفضوا، فهم كفار نتبرأ منهم ومن كفرهم ونحذرهم ولا نظلمهم. وقد سبق في الوقفة السابقة سرد بعض الآيات التي فيها محاورة أهل الكتاب في بيان شركهم ودعوتهم إلى التوحيد، وأخص منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤]، وصورة أخرى للحوار مع الكفار في حالة القتال معهم، سواء في جهاد الطلب ودعوتهم قبل القتال إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، أو كان في جهاد الدفع في حالة ضعف المسلمين في التفاوض معهم في دفعهم عن ديار المسلمين بهدنة، أو صلح أو نحو ذلك، وكل هذه المحاورات تتم دون التنازل عن عقيدة التوحيد أو الاستحياء من طرحها، ودون تحسين دين الكفار أو قبوله. وهذه الصورة من الحوار مرفوضة أصلاً عند الكفار ولا يقبلون بها. أما الصورة المرفوضة من الحوار مع الكفار في دين الإسلام التي يدعو إليها الكفار، فهي التي تطرح هذه الأيام، وتعقد لها الندوات والمؤتمرات. والتي يراد منها أن تكون طريقاً إلى التقارب مع أديانهم الباطلة والسكوت عن كفرهم وإبطال عقيدة الولاء والبراء من ديننا، فلا براءة من المشركين ولا عداوة ولا كره للكافرين. كل ذلك باسم الحوار والدعوة إلى زمالة الأديان، ونشر السلام وبث التسامح معهم.

الوقفة الثالثة: (أهداف هذه الدعوة)

الجدير بالذكر أن الغرب اليهودي الصليبي هو من وراء هذه الأطروحات الماكرة، وقد تشربها بعض المسلمين إما جاهلاً بحقيقتها أو خبثاً ومكراً ونفاقاً. ويمكن ذكر بعض أهداف الحوار بين الأديان التي يسعى إليها الغرب الكافر وذلك فيما يلي:

١ - باعث الصد عن سبيل الله ﷻ وبخاصة دين الإسلام الذي رأى الغرب أن أبناءه يدخلون في الإسلام زرافات ووحداناً، فأرادوا التلبيس على شعوبهم بأن الفروق بين الأديان فروق شكلية، كلها تؤدي إلى عبادة رب واحد، فلا حاجة للتغيير.

٢ - باعث هدم أصول الدين الإسلامي وثوابته، وخاصة أصل الولاء والبراء الذي يقتضي تكفير الكافر وبغضه والبراءة منه ومن كفره وهذا غاية ما يسعون إليه في هذه الدعوات الماكرة، وبخاصة في هذه الأزمنة المتأخرة التي استيقظ فيها المسلمون، ورأوا صوراً صارخة من عداء الكفار وعدوانهم وحقدهم على الإسلام وأهله. ومن الشعائر التي أقضت مضاجع الكفار ووقفت شوكة في حلوقهم شعيرة الجهاد التي انبعثت في هذه الأمة قولاً وعملاً وذاق العدو الكافر الأمرين من ضربات المجاهدين. فجاءت هذه الدعوات الخبيثة لتدجن المسلمين وتبعدهم عن مقومات حياتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وجاءت لتجنيد كثير من حكام المسلمين وبعض المهزومين من المسلمين في مواجهة المجاهدين والمنادين بالبراءة من الكفار وبغضهم وعداوتهم.

٣ - باعث التنصير حيث طرح مجلس الكنائس العالمي أن الحوار وسيلة مفيدة للتنصير، لأنه وسيلة لكشف معتقدات وحاجيات الآخر، وهي نقطة البداية الشرعية للتنصير.

٤ - إسقاط جوهر الإسلام واستعلائه وظهوره وتميزه بجعل دين الإسلام المحكم المحفوظ من التحريف والتبديل في مرتبة متساوية مع غيره من كل دين محرف ممسوخ، بل مع العقائد الوثنية الأخرى.

٥- الاعتراف بأديانهم واحترام عقائدهم، وتجنب البحث في المسائل العقدية الفاصلة للحفاظ على استمرار الحوار.

٦- الدعوة إلى نسيان الماضي التاريخي والتخلص من آثاره، كالذي حصل من الصليبيين في حروبهم الصليبية، وما قاموا به من ظلم وتقتيل وتشريد للمسلمين. والدعوة إلى فتح صفحة جديدة بين الأديان يسودها السلام والعدل والتسامح بزعمهم. ولا يخفى على اللبيب خبث هذه الدعوة وما وراءها، ولكنها لا تنطلي على المسلم الواعي لعقيدته، الواعي لتاريخه، الواعي لواقعه المعاصر، الذي يمارس فيه هؤلاء الكفار الذين يدعوننا إلى الحوار شتى صور القتل والتعذيب والتشريد في بلدان المسلمين، ويكفينا ما يدور الآن في العراق وأفغانستان وفلسطين والصومال من الغرب الصليبي اليهودي، الذي تتولى كبره أمريكا الطاغية الكافرة.

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة بين المسلمين والكفار بحجة التسامح والتقريب والحوار بين أهل الأديان يخطئون في فهم دين الله الحق، وفهم الأديان المخالفة كما يخطئون فهم معنى التسامح وفهم الواقع الأليم، فالغرب الكافر يريد من المسلمين أن يتسامحوا من طرف واحد، ويتقبلوا العدوان عليهم، والتقتيل والاحتلال، ويستسلموا للأعداء، أما هو فلا حسيب على عدوانه وحقده، لأنه جاء ينشر الحرية والعدل والديمقراطية بزعمه، ومع ذلك نجد من بني جلدتنا من يحسن الظن بعدونا الكافر، ولا ندري هل هذا جهلاً منه أو خبثاً ومكراً!؟

الوقفة الرابعة: (المخرج من هذه الفتنة)

يقول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، ويقول الرسول ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِه**»(١).

وقوله ﷺ في حديث الفتن التي يرقق بعضها بعضاً قوله: «**فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**».

هذا هو المنقذ من هذه الفتنة ومن غيرها: الاعتصام بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ والسير على هديهما، وفي كتاب الله ﷻ وسنة رسول الله ﷺ من الأدلة التي تدحض هذه الفتن وغيرها، وذلك في بيان حقيقة الإيمان بالله ﷻ وتوحيده وبيان سبيل الكافرين، وتفنيد عقائدهم الباطلة ما يكفي ويشفي لمن تدبرهما، وجعلهما المصدر الوحيد لفهمه وحكمه وتحاكمه وفي ولائه وفي برائه.

والإيمان الحق بالله ﷻ واليوم الآخر هما ثمرة من ثمار الاعتصام بالكتاب والسنة، والإيمان بالله الحق واليوم الآخر هما العاصمان بإذن الله ﷻ من الوقوع في فتن الاعتقادات والأقوال والأعمال، كما جاء في حديث الفتن

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» وذكره الأرناؤوط في «جامع الأصول» (١/ ٢٧٧) وقال: رواه الحاكم (١/ ٩٣) بسند حسن فيقوى به.

السالف الذكر: «**فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**»(١).

هذا هو المتعين على كل مسلم يريد لنفسه النجاة. كما أن المتعين على علماء السنة في ديار المسلمين بيان الحق للناس، وربطهم بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وفهم السلف الصالح رضي الله عنهم، وبيان ما يضاد ذلك من سبيل الكافرين والمنافقين والمبتدعين. ويتأكد هذا الواجب في زماننا اليوم الذي كثرت فيه الفتن، وأجلب فيه المضلون والملبسون الصادون عن سبيل الله بخيلهم ورجلهم، يريدون تبديل الدين وزعزعة التوحيد في قلوب أهله، فإن لم ينفر العلماء وطلاب العلم في رد هذه الفتن المستطيرة تكن فتنة في الأرض وفساد كبير على الناس في دينهم وإثم كبير على الساكت من أهل العلم قال الله -عز وجل: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ [آل عمران:١٨٧]، وقال سبحانه: ﴿**لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**﴾ [المائدة:٦٣]، أي لبئس ما يصنعه أهل العلم من الربانيين والأحبار بسكوتهم وعدم نهيهم الناس عن الإثم، إن بيان سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين للناس هو ضرب من الجهاد في سبيل الله فما أعظمه من جهاد.

---

(١) مسلم (١٨٤٤).

ج- الغلو في رابطة الوطنية وتقديمها على رابطة الدين:

إن من أخطر المعاول التي تستخدم اليوم لهدم عقيدة الولاء والبراء معول (الوطنية) الذي يراد منه إحلال رابطة الوطن محل رابطة التوحيد، وذلك في عقد الولاء والبراء بين أبناء المجتمع المسلم على أساسها.

إن حب الوطن ومكان المنشأ والحنين إليه طبع جبلي فطري مغروس في النفوس، ولشدة مفارقة الأوطان على النفوس رتب الله ﷻ عليه الثواب العظيم للمهاجرين في سبيله المفارقين لأوطانهم من أجله.

يقول الله ﷻ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر:٨].

وها هو بلال رضي الله عنه يحن إلى وطنه الأصلي مكة بعد أن هاجر منها، ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة... بوادٍ وحولي إذخر وجليل

فهذا الحب والحنين لا ضير فيه ولا لوم، وليس نزاعنا مع دعاة الوطنية في هذه المسألة.

إنما اللوم والانحراف والنزاع في جعل الانتماء إلى الوطن الواحد هو معيار الولاء والمحبة والنصرة لكل من يعيش تحت مظلة الوطن الواحد، ولو كان مشركاً أو منافقاً، وجعله هو المقدم والمكرم على من ليس من أبناء الوطن ولو كان مسلماً صالحاً تقياً، إن هذا هو الانحراف والعودة

إلى موازين الجاهلية ومعاييرها في الولاء والنصرة، وفي العداوة والبراء، نعم إذا كان المواطن موحداً صالحاً خيراً فهذا نور على نور، ولا تثريب على من وجد ميلاً أكثر إلى الموحد الصالح من قرابته أو قبيلته أو من أبناء وطنه. أما أن يجد ميلاً ومحبة وتآخياً مع أهل الشرك والنفاق، ويجعله يسكت عن شركهم ونفاقهم؛ لأنهم من أبناء وطنه، فهذا هو المرفوض في ميزان الله ﷻ. قال الله ﷻ عن نوح -عليه السلام- حينما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ قال الله ﷻ له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود:٤٦].

إنه لا يخفى ما في (**الوطنية**) بالمفهوم الجاهلي من هدم لعقيدة الولاء والبراء في هذا الدين، فكم في الوطن الواحد من العقائد الباطلة الكفرية التي يخرج صاحبها من الإسلام، كمن يعبد غير الله ﷻ ويستغيث به ويدعي أن غير الله تعالى يعلم الغيب كغلاة الشيعة والصوفية، وكم في الوطن الواحد من يكفر أصحاب محمد ﷺ ويعاديهم، ويقذف نساء النبي ﷺ العفيفات الطاهرات، وكم في الوطن الواحد من المنافقين الذين يبطنون العداء للإسلام وأهله، ويوالون الغرب وأهله، فهل هؤلاء هم منا ونحن منهم؛ لأننا وإياهم نعيش في وطن واحد؟ إننا بهذا الفهم نعود إلى صورة من صور الجاهلية الأولى، التي جاء هذا الدين للقضاء عليها، وجعل رابطة العقيدة والإيمان فوق كل رابطة، يعادى من أجلها، ويوالى من أجلها، ويحب من أجلها، ويبغض من أجلها.

قال ﷺ: «**مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الجَاهِلِيَّةِ؛ فَأَعْضُوهُ بِهَنِ أَبِيهِ وَلَا تَكْنُوا**».

فسمع أبي بن كعب رجلاً يقول: يا لفلان! فقال: اعضض أَيْرَ أبيك، فقال: يا أبا المنذر! ما كنت فاحشاً، فقال: بهذا أمرنا رسول الله ﷺ[١].

ويشرح شيخ الإسلام هذا الحديث، فيقول: (ومعنى قوله: «**مَنْ تَعَـزَّى بِعَـزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ**» يعني يتعزى بعزائهم، وهي الانتساب إليهم في الدعوة، مثل قوله: يا لقيس! يا ليمن! ويا لهلال! ويا لأسد، فمن تعصب لأهل بلدته، أو مذهبه، أو طريقته، أو لأصدقائه دون غيرهم كانت فيه شعبة من الجاهلية، حتى يكون المؤمنون كما أمرهم الله معتصمين بحبله وكتابه وسنة رسوله)[٢].

وقد وقفت على دراسة مهمة يتحدث فيها كاتبها د. أحمد محمود السيد عن فقه المواطنة وأصولها الغربية في الجاهلية المعاصرة، ونظراً لأهميتها وعلاقتها بموضوعنا أنقل بعض ما ورد فيها، حيث يقول وفقه الله تعالى: (في هذه الأيام يتردد لفظ المواطنة على ألسنة المهتمين بالعمل السياسي ودعاة العلمانية وأنصار المنهج العلماني بوجه عام، ولا غضاضة في هذا ولا عجب، حتى وإن ادعى هؤلاء أنه لا يتعارض مع الإسلام، أو أن الإسلام قد عمل به وأسسه، بل العجب كل العجب أن ينبري بعض الشيوخ وعلماء الشريعة لإثبات أنه مبدأ إسلامي أصيل، وأنه مضمون هذا المفهوم مماثل لما جاء به الشرع الحنيف!

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٠٧٢٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٩).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٢٢).

والأدهى من ذلك أن السيناريو نفسه يتكرر كما حدث في الستينيات مع الاشتراكية، هناك من كتب عن «المواطنة في الإسلام»، و«المواطنة عند رسول الله»، و«المواطنة في الشريعة الإسلامية»، و«المواطنة مبدأ إسلامي أصيل»، و«مبدأ المواطنة أهم دروس الهجرة»، وهناك من استدل بآيات قرآنية وتفسيرات، حاول أن يلوي فيها أعناق الآيات، لكي تعبر عن مفهوم المواطنة الغربي، مؤكداً تطابقها مع تفسيرات القرآن!

تعالوا نتفهم معنى المواطنة في دولة المنشأ؛ لنعرف إن كانت تصلح كمبدأ إسلامي أم لا..

يعرف قاموس المصطلحات السياسية «المواطنة» بأنها: مكانة أو علاقة اجتماعية، تقوم بين شخص طبيعي، وبين مجتمع سياسي (الدولة)، ومن خلال هذه العلاقة يقدم الطرف الأول الولاء، ويتولى الطرف الثاني الحماية، وتتحدد هذه العلاقة بين الشخص والدولة بالمساواة أمام القانون «الوضعي» في ظل هيمنة الدولة القومية.

ويعبر مفهوم المواطنة بمعناه الحديث عن تطور شديد التعقيد صاغته أوربا الغربية في القرن التاسع عشر، خلال عمليات تاريخية واجتماعية وسياسية، تم فيها الانتقال من الحق الإلهي المقدس إلى حق المواطن، ومن هيمنة الكنيسة إلى هيمنة الدولة..

فالمواطنة كمبدأ سياسي لا تعمل بعيداً عن النظرية السياسية الغربية التي صاغتها، ولا يمكن أن تقطع من سياقها ليتم تفعيلها في نظام آخر

مختلف عقائدياً واجتماعياً وتاريخياً، فالنظام السياسي الإسلامي يقوم على مجموعة مبادئ تعمل معاً لتحقيق مبادئ الإسلام وهديه من خلال منظومة من الآليات مثل: الإمامة - أهل الحل والعقد - الشورى - الخلافة - الخ.. والتمييز فيها يكون للمسلم، فلا يستوي المؤمنون والكافرون، وإذا كان معيار التفضيل هو التقوى، كما في الحديث «**لاَ فَرْقَ بَيْنَ عَرَبِيٍّ وَلا عَجَمِيٍّ إلاَّ بِالتَّقْوَى**»[١]، فإن هذه التقوى معناها الإسلام والإيمان الخالص، وهذا ليس معناه ظلم المخالفين في العقيدة، لكنهم في ظل الدولة الإسلامية يتعاملون من خلال العهود والمواثيق، التي تحفظ لهم حقوقهم، وتحفظ للدولة الإسلامية ما تفرضه عليهم من واجبات...

ولكن تأبى نفوس الذين تشربوا فكر الغرب ورضعوا من علمانيته، إلا أن يستبعدوا الإسلام من طريق سياسة الدنيا، ويستكثروا على أتباعه أن يحكموا بهديه ومبادئه، فتحاول هذه الفئة أن تلوي أعناق الآيات، وتغير في مضمون التفسير؛ لتوافق هواهم، وتوظف من منحهم صفة (المفكر الإسلامي)، كي يؤكدوا: أن الإسلام لا يتعارض مع تلك المصطلحات، بل يؤسس لها ويطبقها، وتباركها شهادات لبعض الشيوخ والعلماء، متصورة أنها بهذا التلبيس على الناس تكون قد ضمنت غسيل عقولهم وتحويل انتمائهم لهذا الفكر.. ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:٤-٦][٢] ا.هـ.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٤٨٩).
(٢) انظر: موقع أنا المسلم.

هـذه هي حقيقة الوطنية وملابسـات نشـأتها، وخطرهـا العظيم على عقيدة التوحيد والموالاة والمعادة فيه، فهل يسـوغ بعد ذلك لأحد أن يرفع سـيف الوطنية في وجه كل من يرفض أن يكون الوطن هو الأساس الذي يعقد عليه الولاء والبراء، بغض النظر عن عقائد هؤلاء المواطنين ونحلهم؟ هل يجوز أن تكون رابطة الوطن فوق رابطة التوحيد؟ وهل يجوز أن يتآخى ويتحاب الموحدون مع المشركين والكفار والمنافقين، ويسكت عن كفرهم ونفاقهم بحجة أنهم أبناء وطن واحد؟! وبحجة أن الانطلاق من التوحيد في الولاء والبراء يفرق الأمة ويذكي الفتن الطائفية فيها؟

إن هـذا هـو ما يدعو إليـه العلمانيـون والباطنيون ومـن تأثر بهم من المخدوعين من أبناء المسلمين.

ومن شـبهاتهم في تكريـس الوطنية والترويج لهـا زعمهم أنها تقضي عـلى أشـكال الطائفية التـي تفرق الناس على أسـاس الديـن أو العرق أو اللون، ولدحض هذه الشبهة أقول وبالله التوفيق:

إن لفـظ الطائفـة ورد في كتاب الله ﷻ وفي السـنة الصحيحة، وذلك في مواطن كثيرة، والـذي يهمنا من ذلك: المعنيان الكبيران لمفهوم الطائفة الوارد ذكرها في الكتاب والسنة.

المعنـى الأول: إن الله ﷻ أطلـق عـلى المؤمنين اسـم الطائفة كما أطلق في مقابلهـا اسـم الطائفة عـلى الكافرين أو المنافقين، وذلـك في قوله تعالى عن من آمن من قوم شـعيب -عليه السلام- ومن كفر منهم: ﴿ **وَإِن كَانَ**

طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ [الصف:١٤]، فسمى المؤمنين طائفة ويقابلهم طائفة الكفار الذين لم يؤمنوا، وليس بين هاتين الطائفتين التقاء ولا ولاء ولا محبة ولا نصرة، بل المتعين على طائفة المؤمنين البراءة من طوائف الكفر والنفاق، وبذل البغض والعداوة لهم، وجهادهم بالبيان والسنان كلاً بحسبه حتى يكون الدين كله لله وحده، فطائفة المؤمنين في شق، وطائفة الكفار والمنافقين في شق آخر. ولا يجوز للمسلم أن يستحيي من استخدام هذا المصطلح (الطائفية)، بل عليه أن يغتبط ويعتز بأنه من طائفة المؤمنين، وأنه مفاصل ومتبرئ من طوائف الكفر والنفاق.

إن الذين يتذرعون برفض الطائفية منطلقاً باسم الوحدة الوطنية أو القومية أو الإنسانية يريدون التوصل بذلك إلى ما يسمونه بالتسامح ورفض عقيدة الولاء والبراء وشريعة الجهاد وتقديس الوطن، وجعل أبناء الوطن الواحد أو الإقليم الواحد إخواناً ولو كان منهم اليهود والنصارى والمشركين والروافض الباطنيين والمنافقين. ويصفون الحروب التي تنشأ بين المؤمنين والكفار في بلد أو إقليم واحد بأنها فتنة طائفية وحروب أهلية، أما إنها طائفية فحق ونعتز بذلك، وأما أنها أهلية فلا، لأن الكفار ليسوا من أهلنا. وقد تأثر بهذه الشبهات بعض أبناء المسلمين فراحوا يدافعون عن أنفسهم، وينفون أن يكونوا طائفيين، وما علموا أن حربنا مع الكفار والمنافقين جهادية طائفية، وليست حروباً أهلية، لأن

الحروب الأهلية هي ما يحصل بين طوائف المؤمنين، كما سيتبين في الفقرة القادمة -إن شاء الله تعالى-.

أما الحروب التي تكون بين المؤمنين والكفار فإنها ليست أهلية، بل جهادية، لأن الكفار ليسوا أهلنا ولا من فئتنا، قال الله -عز وجل لنوح -عليه السلام- في ابنه من صلبه بعد أن أغرقه الله مع الكافرين: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود:٤٦].

المعنى الثاني: ورد ذكر الطائفة أيضاً في القرآن ويراد منها طوائف المؤمنين حسب مهماتهم أو أوصافهم، لكنهم كلهم يشملهم وصف الإيمان، كما في قوله ﷻ: ﴿**إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ**﴾ [آل عمران:١٢٢]، ومن ذلك قوله ﷺ: «**لَا تَزَال طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ**»(١). وكل طوائف المسلمين يجب بذل الولاء والنصرة لهم كل بحسبه، فكل مسلم من أهل القبلة يجب بذل الولاء العام له، ولا ينتفي عنه مطلق الولاء إلا بخروجه عن الإسلام، ولكن الولاء يكون بحسب ما يكون عليه المسلم، فإذا كمَّل صفات المسلمين والمؤمنين والتزم بعقيدة أهل السنة والجماعة، فله بذلك الولاء المطلق، وإن أخل بشيء من ذلك كما هو الحال في طوائف البدع غير المكفرة، فله مطلق الولاء، يوالى بما فيه من الخير والاتباع، ويتبرأ مما يتلبس به من الفسق والبدعة، ولا يتبرأ منه من جميع الوجوه إلا إذا خرج عن ملة الإسلام.

(١) البخاري (٣٦٤٠).

وإذا كان الولاء يبذل لكل طوائف المسلمين، فإن القتال بينهم يكون محرماً، لأنه قتال فتنة (إلا مع أهل البغاة). ويصدق على الحروب التي تكون بين المسلمين أنها أهلية يجب اجتنابها، والسعي في إخمادها، إلا في حالة قتال الصالحين من المسلمين كالبغاة والمحاربين.

وفي الختام نقول لمن يرفع سيف الوطنية ليسكت به أهل العلم الذين ينصحون للأمة، ويكشفون اللبس والتضليل عنها: كفى بكم يا أدعياء الوطنية ابتزازاً وتنطعاً واستهلاكاً لمصطلح الوطنية، فهي شنشنة نعرفها منكم، حيث تركبون هذا المصطلح؛ لتمرروا من خلاله أفكاركم ومخططاتكم، ولتستعدوا بها على أهل التوحيد الذين ينصحون للأمة والذين لا تنطلي عليهم مثل هذه الشعارات البراقة، لأنهم لا يرون شيئاً فوق عقيدة التوحيد والولاء لها ولأهلها، ويرفضون دعوة تهميش التوحيد والولاء والبراء فيه، ويقدمون الولاء لله تعالى على كل اعتبار من وطن وقبيلة وطائفة، ويرون أن توحيد الأمة لا يكون إلا بالتوحيد وتطهيرها من الشرك، وإلا فهو الفشل والفرقة والفتن، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧]. أي أن فتنة الشرك أكبر من فتنة الاقتتال.

د- المغالطة بمصطلح الإنسانية

إن من الواجب على المسلم أن يزن كل شئونه ومواقفه بميزان الكتاب والسنة المبرء من الخلل والشطط؛ لأنه هو الذي يؤهله ليكون

أبعد الناس عن الانسياق وراء الشعارات والمصطلحات المضللة، مهما كان بريقها، ومهما كان مكر الأعداء في التلاعب بها وعرضها في قوالب مزخرفة، وفي واقعنا المعاصر يظهر لنا خبث أعداء هذا الدين من الكفار والمنافقين، وذلك في التلاعب بالمصطلحات والتلبيس على الناس بها، واستخدموا في ذلك وسائل الإعلام المختلفة التي يتحكمون بها، والتي ما تفتأ تبدئ وتعيد في طرح المصطلحات الغامضة والتلاعب بها في إضلال الناس وغسل أدمغتهم، وجعلها مع الوقت والتكرار أمراً مسلماً ومقبولاً لا يحتمل النقاش. ومن هذه المصطلحات المضللة مصطلح (الإنسانية) والدعوة إليه والترويج له، فما حقيقة هذه الدعوة المضللة وما أهدافها؟! وقد كشف حقيقة هذه الدعوة الخبيثة وأهدافها الأستاذ محمد قطب -رحمه الله تعالى- ومنذ ما يزيد على ثلاث عقود من الزمن، وكأنه يتحدث عن واقعنا المعاصر. أنقل منها بعض المقتطفات لتتضح حقيقة هذه الدعوة، ثم تفنيدها.

قال رحمه الله تعالى:

(الإنسانية -أو العالمية كما يدعونها أحيانا- دعوى براقة، تظهر بين الحين والحين، ثم تختفي لتعود من جديد، يا أخي! كن إنساني النزعة، وجه قلبك ومشاعرك للإنسانية جمعاء.. دع الدين جانباً فهو أمر شخصي، علاقة خاصة بين العبد والرب محلها القلب، لكن لا تجعلها تشكل مشاعرك وسلوكك نحو الآخرين الذين يخالفونك في الدين.. فإنه لا ينبغي للدين أن يفرق بين البشر.. بين الأخوة في الإنسانية، تعال نصنع الخير لكل البشرية، غير ناظرين إلى جنس أو لون أو وطن أو دين!

فلنصدق -مؤقتا- أنها دعوى مخلصة للارتفاع بالإنسان عن كل عصبية تلون فكره أو سلوكه، فلنأخذ مثالاً واحداً من العالم المعاصر.. من المعاملة التي يلقاها المسلمون في كل مكان في الأرض، يقعون فيه في حوزة غير المسلمين، أو في دائرة نفوذهم من قريب أو من بعيد...

فلننظر إلى «الإنسانية» التي يعاملون بها، «والسماحة» التي يقابلون بها، «وسعة الصدر»، و«حب الخير» الذي ينهال عليهم من كل مكان!

هذه فلسطين ظلت أربعة عشر قرناً من الزمان أرضاً إسلامية... ثم جاء اليهود ليقيموا عليها دولة يهودية.. ولم يستنكر أحد من «الإنسانيين» طرد السكان الأصليين وإجلاءهم عن أرضهم بالقنابل والمدافع، بل بشق بطون الحوامل والتلهي بالتراهن على نوع الجنين، كما فعلت العصابات اليهودية التي كان رأس إحداها مناحم بيجن... وإنما استنكرت من المسلمين أن يطالبوا بأرضهم، وألا يخلوها عن طيب خاطر للغاصبين!

ويطول الأمر بنا لو رحنا نستعرض أحوال المسلمين الواقعين في قبضة غير المسلمين، أو الذين يتعرضون لعدوان غير المسلمين في كل مكان في الأرض... في روسيا الشيوعية التي قتلت ما يقرب من أربعة ملايين من المسلمين، وفي يوغسلافيا التي قتلت ثلاثة أرباع مليون منهم، وفي أفغانستان التي تستخدم فيها الأسلحة المحرمة «دولياً» و«قانونياً» و«إنسانيا»! -ومثل ذلك في العراق والصومال- وفي أوغندا، وفي تنزانيا، وفي.. وفي.. وفي.. وفي.

فما بال «الإنسانيين»؟ ما بالهم لا يتحركون؟! ما بالهم لا يصرخون في وجه الظلم الكافر، الذي لا قلب له ولا ضمير؟!

إنما توجه دعوى «الإنسانية» فقط ضد أصحاب الدين!

فمن كان متمسكاً بدينه فهو «المتعصب»، «ضيق الأفق» الذي يفرق بين البشر على أساس الدين، ولا يتسع قلبه «للإنسانية»، فيتعامل معها بلا حواجز في القلب أو في الفكر أو في السلوك!

أو قل على وجه التحديد: إن الذين يحاربون اليوم بدعوى «الإنسانية» هم المسلمون! يحاربون بها من طريقين، أو من أجل هدفين:

الهدف الأول: هو إزالة استعلاء المسلم الحق بإيمانه الناشئ من إحساسه بالتميز عن الجاهلية المحيطة به في كل الأرض، وهدم عقيدة الولاء والبراء، لكي تنبهم شخصيته وتتميع.

والهدف الثاني: هو إزالة روح الجهاد من قلبه.. ليطمئن الأعداء ويستريحوا!!

فباسم الإنسانية يقال للمسلم الحق: يا أخي لا تعتزل الناس! إن الإنسانية كلها أسرة واحدة، فتعامل مع الأسرة كفرد منها، ولا تميز نفسك عنها! وشارك في النشاط «الإنساني» ومظاهر الحضارة الإنسانية.. تلك هي القضية! إن تمسك المسلم بإسلامه شيء يغيظ أعداء الإسلام بصورة جنونية.. ولا يهدأ لهم بال حتى يذهبوا عنه ذلك التمسك ويميعوه

ومن وسائل ذلك كما أسلفنا دعوى الإنسانية والعالمية فإذا تميع بالفعل، ولم تعد له سمته المميزة لـه، احتقروه كما احتقرت أوربا الأتراك بعد أن أزال أتاتورك إسلامهم و«فرنجهم» و«غربهم»! بينما يقول أحد المبشرين في كتاب «الغارة في العالم الإسلامي»: إن أوربا كانت تفزع من «الرجل المريض» (وهو مريض) لأن وراءه ثلاثمائة مليون من البشر مستعدون أن يقاتلوا بإشارة من يده، وهذا النص الأخير يدخل بنا إلى النقطة الثانية أو الهدف الثاني من استخدام دعوى «الإنسانية» في محاربة المسلمين.

إن أشد ما يخشاه أعداء الإسلام من الإسلام هو روح الجهاد الكامنة فيه!.. (ودعوى الإنسانية) من أسلحة الحرب الموجهة ضد روح الجهاد عند المسلمين....

إن الإسلام صريح في توجيه أتباعه إلى التميز عن أحوال الجاهلية، التميز بنظافة السمت ونظافة الأخلاق ونظافة السلوك، والاستعلاء بالإيمان على كل مصدر ليس إسلامياً أو متعارض مع الإسلام، حتى لو لحقت بهم هزيمة مؤقتة أو ضعف طارئ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

ومصدر التميز هو الإحساس بأنهم على الهدى وغيرهم على الضلال، وأن المنهج الذي يعيشون به هو المنهج الأعلى؛ لأنه المنهج الرباني، والذي يعيش عليه غيرهم هو المنهج الأدنى؛ لأنه منهج جاهلي، فهو ليس تميزاً مبنياً على الجنس ولا اللون ولا الجاه ولا الغنى ولا القوة، ولا أي معنى

مـن المعاني الأرضية التي تعتز بها الجاهلية، وتسـتعلي بهـا على الناس، إنما التميز المستمد من معرفة المنهج الرباني واتباعه)[١]ا.هـ.

ومن شـبه الداعين إلى الإنسانية كهدف لحوار الحضارات قولهم: إن حـوار المسـلمين مع أهل الديانـات الأخرى ليس حـوار عقائد، وإنما هو حوار على القواسـم المشـتركة المتفق عليهـا بين الجميع؛ كخلق التسـامح والعدل ومحاربة الظلم ونشر السلام والقيم الفاضلة، ولا يخفى ما في هذا الكلام من غباء ومغالطة ومخالفة لبديهيات العقل والشريعة.

أي عـدل، وأي أخـلاق فاضلـة يُطمع فيهـا من الكفـار الذين كفروا بربهم، فهم بين ملحد دهري أو مشرك مؤمن بعقيدة التثليث وتأليه عيسى -عليه السـلام- أي عدل وخلق يطلب من الكفار الصليبيين، الذين قتلوا الملايين من المسلمين وشردوهم وسجنوهم، وحاصروا بلدانهم حتى مات مليون طفل من حصارهم في العراق وغزة وغيرهما. إن من كفر بالله ﷻ قد وقع في الظلم الأعظم، وعليه فلا يتوقع من هذه حاله إلا الظلم والأخلاق الرذيلـة والاسـتبداد والطغيـان، قـال الله ﷻ: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:٧١]، والواقع شاهد بذلك: إن من يرجوا سلاماً أو عدلاً أو أخلاقاً طيبة من الكفار كمن يستنبت بذوراً في الهواء أو يحرث في البحر.

---

(١) «مذاهب فكرية معاصرة» (ص٥١٠-٥٢٤) باختصار وتصرف يسير.
ولمزيد من الرد على هذه النحلة الخبيثة انظر الردود في الصفحات السابقة على دعاة التسامح مع الكفار والتقارب معهم.

إنه لا شيء يضبط السلوك الإنساني ويزكي النفوس ويأطرها على محاسن الأخلاق وترك سيئها غير توحيد الله ﷻ والخوف منه سبحانه، ورجاء ثوابه، ومراقبته في السر والعلن، والشعور باطلاعه ﷻ على خفايا القلوب ومنحنيات الدروب، وهذا كله لا يأتي إلا بالتربية على التوحيد ومعرفة أسماء الله ﷻ وصفاته ومقتضياتها والتعبد له سبحانه بها، مما يكون له الأثر في ظهور آثارها على أخلاق الناس وسلوكياتهم، وإذا لم يوجد هذا الشعور وهذه التربية على العقيدة، فإنه لا تنفع أي محاولة مهما كانت في تهذيب سلوك الناس، مهما وضع من النظم والقوانين والعقوبات، فغاية ما فيها ضبط سلوك الفرد أمام الناس والقانون، فإذا غاب عن أعينهم ضاعت الأخلاق واضطربت القيم، وهذا هو الفرق في علاج انحراف النفس البشرية والمجتمع الإنساني بين منهج الله ﷻ القائم على تربية الناس على العقيدة وبين المناهج الجاهلية البعيدة عن منهج الله ﷻ، إن عقيدة التوحيد هي الأصل في إصلاح النفوس والأخلاق، وبدونها تفسد الأخلاق والقيم ولو صلحت بعض الأخلاق بدوافع أخرى غير العقيدة؛ كالعادات ورقابة القانون أو المصالح النفعية، فإنها لا تدوم بل تزول بزوال المصلحة أو الرقيب.

ويحسن بنا في هذه الوقفة تنبيه المخدوعين من أبناء المسلمين الذين انخدعوا ببعض الأخلاق النفعية التي يجدونها عند الكفار في ديارهم كالصدق في المواعيد والأمانة والوفاء بالعقود، إلى أن هذه الأخلاق لم يكن دافعها الخوف من الله ﷻ ورجاء ثوابه في الدنيا والآخرة، وإنما هي أخلاق

نفعية مؤقتة يريدون منها مصالحهم الخاصة والدعاية لهم ولشركاتهم، ولذلك فإنها لا تدوم معهم، وإنما تدور معهم حسب مصالحهم بدليل أن هذه الأخلاق تنعدم ويحل محلها الأخلاق السيئة من الكذب والخداع والظلم والطغيان إذا كانت مصالحهم تقتضي ذلك. ومراجعة سريعة للحروب الصليبية لبلدان المسلمين القديم منها والحديث يشهد على ذلك.

إذن فهم في تربيتهم الجاهلية يسعون لإنشاء المواطن الصالح الذي يسعى لمصلحته ومصلحة وطنه فحسب، ولو كان بالعدوان على دماء الآخرين وأموالهم والكذب عليهم وخداعهم، أما الإسلام فإنه ينشئ الإنسان الصالح، ذلك المسلم الرباني الذي تكون أخلاقه ثابتة معه في ليله ونهاره، في سره وعلانيته، في سرائه وضرائه، في داخل وطنه وخارجه.

ثانياً: التصدي لكشف تلبيس الملبسين حول شعيرة الجهاد:

إنه لمن المؤسف أن يضع بعض الدعاة والمفكرين من المسلمين أنفسهم موضع المتهم المنهزم، الذي يريد أن يبرئ نفسه من تهمه، ويحسن وضعه عند خصمه. إن هذا المنهج الأعوج هو ما يتبناه اليوم بعض من قام بالرد على الملبسين من الكفار والمنافقين في قولهم: إن الإسلام انتشر بالسيف وسفك الدماء، فبادر هؤلاء بالرد عليه بقولهم: إن الإسلام لم ينتشر بالسيف، ولكن بالدعوة والبيان، وإنما كان السيف للدفاع عن النفس وعن الديار فقط!! ولا يخفى ما في هذا الكلام من مخالفة لما ذكره الله ﷻ في كتابه الكريم عن غاية الجهاد وما فيه أيضاً من مخالفة لسيرة الرسول ﷺ والخلفاء وأمراء المسلمين من بعده في تسيير الجيوش لفتح

الدنيا وإزالة الطواغيت الذين يصدون عن الدين الحق، وحتى لا تكون فتنة؛ أي شرك. ويكون الدين كله لله، يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والسيف إنما جاء منفذاً للحجة مقوماً للمعاند، وحداً للجاحد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥]. دين الإسلام قام بالكتاب الهادي ونفذه السيف الماضي:

فما هو إلا الوحي أو حد مرهف ... يقيم ضباه أخدعي كل مائل

فهذا شفاء الداء من كل عاقل ... وهذا دواء الداء من كل جاهل(١)

ويناقش صاحب «الظلال» هذه المسألة بكل عزة، فيقول: (إن الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر، وتحت الهجوم الإستشراقي الماكر، يتحرجون من تقرير تلك الحقيقة؛ لأن المستشرقين صوروا الإسلام حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة. والمستشرقون الخبثاء يعرفون جيداً أن هذه ليست هي الحقيقة، ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الإسلامي بهذه الطريقة.. ومن ثم يقوم المنافحون -المهزومون- عن سمعة الإسلام، بنفي هذا الاتهام! فيلجأون إلى تلمس المبررات الدفاعية! ويغفلون عن طبيعة الإسلام ووظيفته، وحقه في «تحرير الإنسان» ابتداء...

---

(١) «هداية الحيارى» مقدمة الكتاب.

والمهزومون روحياً وعقليا حين يكتبون عن (الجهاد في الإسلام) ليدفعوا عن الإسلام هذا الاتهام.. يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة، وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه، والتي تعبد الناس للناس وتمنعهم من العبودية لله، ومن أجل هذا التخليط -وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة!- يحاولون أن يحصروا الجهاد في الإسلام فيما يسمونه اليوم: «الحرب الدفاعية».. والجهاد في الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم، ولا بواعثها، ولا تكييفها كذلك.. إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعة الإسلام ذاته، ودوره في هذه الأرض، وأهدافه العليا التي قررها الله، وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات..

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد، وذلك بإعلان ألوهية الله وحده -سبحانه- وربوبيته للعالمين..

ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد، وأمام الدعوة تلك العقبات المادية من: أنظمة الدولة السياسية، وأنظمة المجتمع العنصرية إنها سذاجة أن يتصور الإنسان دعوة تعلن تحرير (الإنسان).. نوع الإنسان.. في الأرض.. ملء الأرض.. ثم تقف أمام العقبات تجاهدها باللسان والبيان!.. إنها تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الأفراد، تخاطبهم بحرية، وهم

مطلقو السراح من جميع تلك المؤثرات.. فهنا ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾.. أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية، فلا بد من إزالتها أولا بالقوة، للتمكن من مخاطبة قلب الإنسان وعقله وهو طليق من الأغلال)(١).

ولقد وقفت على مقال نافع في موقع (المختصر) أحسب أن صاحبه وفق لبيان الحق في هذه المسألة، ومن باب الفائدة أنقله مختصراً: (إنَّ الإسلام يحتاج اليوم إلى من يقدمه للناس كما هو بعزَّة ووضوح، نعم بحكمة ولكن دون تحريف أو انهزام، والذي أعتقده أنّ الفرصة هذه الأيام سانحة لمثل هذا التقديم، فلا ينبغي تضييعها، والإسلام ليس ضعيفًا كي نضعه في قفص الاتهام، ثم نجهد في الدفاع عنه لإخراجه منه!

وهكذا أوقعونا في الفخ فقالوا: إنَّ إسلامكم انتشر بالسيف، ودينكم دين إرهاب، وإنَّ نبيكم لم يأتِ إلا بالدمار للعالم! وأنتم معشر المسلمين تحبون الدماء! فقام المخلصون، وهم إما جهلة، وإما منهزمون، وإما يريدون تجميل الإسلام إلى أن يفتح الله، وإما -وللإنصاف- مجتهدون، يَردُّون: كلا ديننا لم ينتشر بالسيف، انظروا إلى شرق آسيا لم يدخله الإسلام إلا عن طريق التجار، وكلا نحن لسنا إرهابيين، نحن ألطف من خلَقَ الله! ونبينا نبي الرحمة، حتى الحيوانات لم تهملها رحمته! أما عن حبنا للدماء فإشاعات مغرضة والله!

ألا دعونا مما قاله رئيس الفاتيكان وأجداده وأبناؤه والمستشرقون من قبله، وقولوا لنا: ماذا قال الله سبحانه؟ وماذا قال رسوله ﷺ؟ دعونا من

(١) انظر: «في ظلال القرآن» (٣/ ١٤٣٣، ٣/ ١٤٤٠) باختصار.

فقه الأزمة هذا الذي يقودكم، وخذونا إلى فقه الرشد الذي دلَّنا اللهُ عليه ورسولُه، وحمله الصحابةُ ومن بعدهم من كبار الأمة وفقهائها، وعليه ساروا حتى وهم في أصعب حالاتهم أيام الصليبيين والتتار، ذلك أنَّ الهزيمة لا تقاس بكم احتل من أشبار، وإنما بكم احتل من قلوب!

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥].

لقد بينت الآية القاعدة التي يقوم عليها الإسلام، وهي الكتاب، والقوة، وقد قال ابن تيمية رحمه الله: «قوام الدين: كتاب يهدي وسيف ينصر»، لقد جاء الإسلام معلناً للحق، ومؤيداً للحق في نفس الوقت، وما الطغيان الذي نراه اليوم إلا لأن الحق لا قوة له، ولذلك أمر الله المسلمين بالإعداد ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ..﴾ [الأنفال:٦٠].

أمر بذلك لأنه لا يوجد مبدأ دون قوة، وسواء كان هذا المبدأ حقاً أم باطلاً، أرضياً أم سماوياً، فلابد له من قوة تحميه.

الإسلام دين السيف؛ لأنه جاء لقيادة البشرية نحو خيرها، فمن حقها أن تبلغَها الدعوةُ، ولا يمكن هذا إلا بتحطيم الأنظمة التي تحول بين الناس وبين أن يسمعوا كلمة الله، والإسلام دين السيف لمنع الفتنة

التي يقترفها المفسدون في الأرض، وليكون الدين كله لله »لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان، ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض«، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣].

وهل نريد هذا فعلا؟! مع كل هذا الضعف: نعم! ومع كل هذا الهوان: نعم! ونحن تحت القصف: نعم! ونحن مشردون: نعم! هذا هو فقه الرشد الذي لا يتغير في الأزمات! وغيره فقه أزمة لا يمثل الإسلام، وإنما يمثل النفوس المسحوقة..

والإسلام دين السيف؛ لأن الصراع بين الخير والشر لا ينقطع، فالحياة قائمة على قانون التدافع، ولو تمكن الشر وحده من الأمر، كما يحصل الآن، لفسدت الحياة، وما الطغيان الذي نراه اليوم إلا لانعدام القوة المقابلة. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].. والإسلام دين السيف؛ لأنه فعل رسول الله ﷺ، نبي المرحمة ونبي الملحمة؛ نبي المرحمة في وقتها، ونبي الملحمة في وقتها، وهذا مقتضى الحكمة التي بعث بها ﷺ:

فإن قيل: حلم فقل: للحلم موضع... وحلم الفتى في غير موضعه جهل

فهو ﷺ الذي أمر بقتال الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله.. كما صح عنه، والنص عام والقول: إنه خاص بوقته ضعيف، وهو الذي أمر

كما قال الصحابي فيما رواه البخاري: (أمرنا نبينا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية)[(١)].

لقد آن للمسلمين أن يتحولوا إلى موقف الهجوم بدلاً من موقف الدفاع، الذي لصقوا به دهراً طويلاً، وليقولوا للعالمين: إذا كان الإرهاب لحفظ الحق، فنحن إرهابيون، ذلك أن الإرهاب ليس وصفاً مطلقاً، فقد يكون خيراً وقد يكون شراً! كالقتل، منه ما هو شر، ومنه ما هو خير، فقتل النفس البريئة شر، وقتل القاتل خير! وهكذا..

إن من يتهمنا بالإرهاب هم آخر من يحق لهم الكلام عنه، فلسنا نحن الذين استعمرنا وخربنا العالم في القرون الوسطى، وأنهكنا الشعوب وسرقنا خيراتها، ولسنا نحن الذين اصطحبنا رجال الدين ليخدعوا الشعوب باسم الرب! ولسنا نحن الذين أشعلنا أقذر حربين في قرن واحد أكلتا ملايين البشر، ومحقتا خيرات الدنيا! والقائمة تطول)[(٢)] ا.هـ.

(هذا هو قوام الأمر في نظر الإسلام.. وهكذا ينبغي أن يعرف المسلمون حقيقة دينهم، وحقيقة تاريخهم، فلا يقفوا بدينهم موقف المتهم الذي يحاول الدفاع، إنما يقفون به دائما موقف المطمئن الواثق المستعلي على تصورات الأرض جميعاً، وعلى نظم الأرض جميعاً، وعلى مذاهب الأرض جميعاً، ولا ينخدعوا بمن يتظاهر بالدفاع عن دينهم بتجريده في حسهم من حقه في الجهاد لتأمين أهله، والجهاد لكسر شوكة الباطل المعتدي،

(١) البخاري (٢٩٢٥).
(٢) انظر: موقع المختصر مقال (بل الإسلام دين السيف) إبراهيم العسعس.

والجهاد لتمتيع البشرية كلها بالخير الذي جاء به، والذي لا يجني أحد على البشريـة جنايـة من يحرمها منه، ويحول بينها وبينـه. فهذا هو أعدى أعداء البشريـة، الذي ينبغي أن يطـارده المؤمنون، الذيـن اختارهم الله وحباهم بنعمـة الإيمان، فذلك واجبهم لأنفسـهم وللبشرية كلهـا، وهم مطالبون بهذا الواجب أمام الله..

جاهـد الإسـلام أولاً ليدفـع عن المؤمنـين الأذى والفتنـة التي كانوا يسـامونها، وليكفل لهم الأمن على أنفسـهم، وأموالهـم، وعقيدتهم. وقرر ذلك المبـدأ العظيـم ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ فاعتبر الاعتـداء على العقيدة والإيذاء بسـببها، وفتنة أهلها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها. فالعقيدة أعظـم قيمة مـن الحياة وفق هذا المبدأ العظيـم، وإذا كان المؤمن مأذون في القتـال ليدفـع عـن حياته وعن ماله، فهـو من باب أولى مـأذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه..

وجاهد الإسلام ثانياً لتقرير حرية الدعوة -بعد تقرير حرية العقيدة- فقـد جاء الإسـلام بأكمل تصور للوجـود والحياة، وبأرقـى نظام لتطوير الحيـاة جـاء بهذا الخـير ليهديه إلى البشريـة كلها؛ ويبلغه إلى أسـماعها وإلى قلوبها، فمن شـاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر. ولا إكراه في الديـن ولكن ينبغي قبـل ذلك أن تزول العقبات مـن طريق إبلاغ هذا الخـير للنـاس كافة؛ كما جاء من عند الله للناس كافـة. وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسـمعوا، وأن يقتنعـوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا. ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية في الأرض تصد

الناس عن الإسلام إلى الهدى، وتفتن المهتدين أيضاً. فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية؛ وليقيم مكانها نظاماً عادلاً يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان وحرية الدعاة. وما يزال الجهاد مفروضاً على المسلمين ليبلغوه إن كانوا مسلمين!

وجاهد الإسلام ثالثاً ليقيم في الأرض نظامه الخاص ويقرره ويحميه.. وهو وحده النظام الذي يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان؛ حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال؛ ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها...)[1].

---

(١) انظر: «في ظلال القرآن» (١/ ٢٩٤-٢٩٦) باختصار شديد.

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

التصدي للغزو الموجه لإفساد الأخلاق والأعراض وإثارة الشهوات

سبق أن فصلت الكلام في ذكر وسائل المفسدين ومظاهر إفسادهم في مبحث سابق، وإن من الجهاد أن ينبري المصلحون والدعاة والمربون والمعلمون والآباء والأمهات لمجاهدة هذه الحرب الشرسة على الأخلاق وتدمير الأمة بنشر الشهوات والإباحيات، وهذا النوع من الجهاد يقوم على فريضة الاحتساب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفضح المفسدين، وتحذير الناس وتحصينهم من شر فتنهم، ولا حامي بعد الله ﷻ إلا القيام بهذه الشعيرة، وتطبيع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمعات المسلمين، فهذا هو صمام الأمان بإذن الله تعالى.

يقول الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ...﴾ الآية [هود:١١٦].

ويقول -سبحانه-: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:٦٢-٦٣]. وقال ﷺ: «**وَالَّذِي**

نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»(١).

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ عند الآية الأولى: (يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض).

وقوله: (إلا قليلاً) أي قد وجد من هذا الضرب قليلاً لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤](٢) ا.هـ.

ويقول عند تفسير آية المائدة: (يعني: هلا كان ينهاهم الربانيون والأحبار عن تعاطي ذلك -أي السحت وقولهم الإثم- والربانيون هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم، والأحبار: هم العلماء فقط ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني: (الربانيين أنهم بئس ما كانوا يصنعون في تركهم ذلك. وروى ابن جرير عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٣) وقال: هذا حديث حسن، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥١٤٠).
(٢) «المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير» (ص٦٥١).

قال: ما في القرآن آية أشـد توبيخاً مـن هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ...﴾ الآية)(١).

وأمثال هاتين الآيتين في القرآن كثير.

والمقصود بيان مسؤولية العلماء والدعاة والمربين من معلمين وآباء وأمهات في تحصين المجتمعات المسلمة من شرور المفسدين، وما يسعون بـه في نـشر المنكرات ومحاولات فرضها على الناس حتى تألفها النفوس، وتنعدم من القلوب إنكارها، والمتابع اليوم لحركات المفسدين وأكابر المجرمين في مجتمعات المسلمين يرى شيئاً خطيراً، يجب أن يتنادى أهل العلم والغيرة للتصدي له وتحصين المجتمع من شره، ألا وهو محاولة المفسدين فرض المنكر الذي يريدونه، وجعل المسلمين أمام الأمر الواقع مستغلين في ذلك مناصبهم أو قربهم من صنع القرار متغافلين ومتجاهلين وغير مكترثين بإنكار المنكرين وصيحات المحذرين من هذا المنكر، وفي ظنهم أن هذا الإنكار وهذه الصيحات تتلاشى شيئاً فشيئاً عندما يفرض المنكر فرضاً، ويتطبع مع الوقت في حياة الناس، ويصبح مألوفاً بعد أن كان منكراً ومبغوضاً، وهنا مكمن الخطر إذ إن تحول المنكر إلى معروف ومألوف أخطر بمئات المرات من تلبس بعض الناس له مع كرههم له وشعورهم بالإثم وهم يفعلونه.

ودفعاً لهذا الخطر العظيم ينبغي اتخاذ الإجراءات الكفيلة بمدافعة أي منكر يراد فرضه في حياة الناس، ومنها:

---

(١) المصدر نفسه (ص٣٨٨).

أولاً: الاحتساب على من يكون وراء إقرار هذا المنكر، وإبراء الذمة بإنكاره وعدم الرضا به ومحاولة ثنيه عن قراره، وهذا هو المرتبة الثانية في الإنكار، ألا وهو التغيير باللسان أو الكتابة، وتكرار ذلك وعدم اليأس من التغيير.

ثانياً: وفي حالة الإصرار على فرض المنكر وعدم الاستجابة لنصح الناصحين وإنكار المنكرين تبذل المحاولات في تأجيله أو تخفيف آثاره أو تخفيف مفاسده.

ثالثاً: وفي حالة تجاهل ذلك كله والبدء في تطبيقه وإنفاذه، فإنه يبقى واجب كبير على المصلحين، ألا وهو تحصين المجتمع من هذا المنكر واعتقاد مخالفته للشرع، فإن هذا يضمن بإذن الله تعالى إفشاله وإضعافه، حتى ولو تلبس به بعض الناس، إذ إن فعل المسلم للمنكر وهو يعتقد تحريمه وإثم فاعله أهون بكثير من فعله له من غير إنكار له ولا تأثم. ولكي يتحقق هذا التحصين وتفويت الفرصة على المفسدين في تطبيع المنكر، فإنه يجب على المصلحين بمختلف تخصصاتهم ومجالاتهم أن يتعاونوا في ذلك، فالخطيب في منبره والواعظ في مسجده، والكاتب في مقالته، والشيخ في درسه، والمربي والمعلم في مدرسته، والرجل في بيته وقرابته، كل أولئك عليهم أن ينفروا في بيان المنكر للناس، وبيان إثم فاعله، وذلك ليبقى في القلوب تعظيم حرمات الله ونواهيه، ويبقى في القلوب كره المنكر، ويقطع الطريق على من يريد للناس أن يألفوا المنكر وأن يطبعوه في حياتهم من غير إنكار ولا رفض، لأن القلب إذا خلى من إنكار المنكر فإنه على خطر بفقد إيمانه

بالكليـة، وهذا ما يفهم من قولـه ﷺ: «**مَنْ رَأى مِنْكُم مُنْكَراً فَلْيُغيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهْ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»[(١)].

ولو فرض أن واحداً من هذه الثلاثة السـابق ذكرها لم يتحقق فيكفي الآمريـن بالمعـروف والناهين عن المنكر أنهم أعـذروا إلى ربهم ﷻ وأبرأوا ذمتهم، وكفى بذلك خيراً وأجراً، قال –سبحانه–: ﴿**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ [الأعراف:١٦٤].

واسـتجابة لله ﷻ ولرسوله ﷺ ومشـاركة مع إخواني الدعاة، الذين أقلقهم هذا الخطر، وراحوا يبحثون عن كل ما من شأنه مدافعة هذا الخطر وصده عن المسـلمين، أكتب هذه الخواطر السريعة التي كانت محل تفكير وحـوار، والتي أحسـبها تسـهم في إيجـاد مشروع تحصينـي وقائي لأسرنا ومجتمعاتنـا أمـام هذا الخطر الداهم، أسـأل الله ﷻ أن يلهمنا صحة الفهم وحسن القصد، فأقول وبالله التوفيق:

إن المدافعة لهذا السـيل الجارف من الإفسـاد يجـب أن ينفر إليه جميع شرائـح المجتمع من علماء ودعاة ومحتسـبين ومربين وآبـاء وأمهات، لأن الفسـاد من الضخامة والخطورة ما لا يكفيـه جهود أفراد أو طائفة معينة، بـل يحتـاج إلى تضافـر جهـود المصلحـين الذيـن يهمهم إصلاح أنفسـهم وأولادهم وأسرهم ومجتمعاتهم. وأرى أن تتم هذه المدافعة عبر جبهتين:

---

(١) رواه مسلم (٤٩).

الجبهة الأولى: جبهة الاحتساب والإنكار المباشر على المنظرين أو المنفذين لها أو المساهمين في تمريرها وتسهيلها، وذلك بالإنكار شفاهاً بزيارتهم والاحتساب عليهم، أو الكتابة إليهم ومخاطبة أهل الحل والعقد من أمراء وعلماء، وإظهار الامتعاض والإنكار، وهذا أمر يجب أن ينفر له طائفة من الدعاة والعلماء والمشايخ والقضاة وطلبة العلم والوجهاء، وذلك يتطلب تعاوناً وتشاوراً بين أهل العلم في كل مدينة، وأن يكون هناك مجالس وتوزيع للأدوار والجهود. كما يتطلب جهات مساندة تهيئ لهم المعلومات والوثائق، وحصر ما يجد من منكرات ومعلومات وترتيبها وتنظيمها، وقد وجد مثل هذا والحمد لله في بعض البلدان والمناطق، وآتت ثمارها، ولكنها غير كافية في مقابل ذلك الفساد المستطير، حيث نرى عجلة التغريب في بلدان المسلمين في تسارع شديد، وتجد من يدعمها ويسهل فسادها بالمال والإعلام.

الجبهة الثانية: جبهة التحصين والوقاية للمجتمع من الفساد ببيان المنكرات للناس وتحذيرهم منها، وأحسب أنه لازال هناك تقصير شديد في هذه الجبهة مع أن الثمار المرجوة منها كثيرة جداً واستجابة الناس لها كبيرة والحمد لله، ولا يعني هذا التقليل من جهود القائمين في الجهة الأولى فهم تاج الرؤوس وأجرهم على الله ﷻ وحسبهم أن يفوزوا بالإعذار عند الله ﷻ وإبراء الذمة إذا حوسبت الذمم، مع ما تثمره جهودهم من مراغمة أهل الفساد والتخفيف أو التأخير لبعض المنكرات، وإنما المقصود أن لا تنسى جبهة التحصين والوقاية التي قد تكون أكثر ثمرة وآثاراً، وبخاصة أن المتحركين من المصلحين في الجبهة الثانية يمتلكون

وسائل كثيرة ومجالات متعددة في مخاطبة الناس وتحذيرهم وتحصينهم لا يملكها غيرهم. ولو وظفت التوظيف الصحيح وتضافر الغيورون والمصلحون في تنفيذها، وتوزعت الأدوار فيها لكان لها نتائج باهرة تحبط على المفسدين أهدافهم وترد كيدهم في نحورهم.

وهنا أذكر بعض المقترحات في تفعيل دور هذه الجبهة وكيفية الاستفادة من الوسائل الكبيرة المتاحة في مخاطبة المجتمع وتوجيه الناس.

ومن نافلة القول: أن نُشبِّهَ سيلَ الفسادِ المسلط على مجتمعات المسلمين وتنوع الناس في مقاومته بسيل جارف ينتهي إلى تغريق أراضي وعمران ودور. وأصحابها يعلمون أنه سيخرب دورهم ومزارعهم وأموالهم، فانقسموا إلى فرقتين.

الأولى: فرقة رأت أن لا خلاص من خطر هذا السيل، إلا أن يهب الجميع في قطعه من منبعه وأصله، فتعذر ذلك غاية التعذر، وأبت طبيعة السيل وقوته عليهم ذلك، فكلما سدوه من موضع نبع من موضع آخر، وانشغل أهل القرية بشأن هذا الوادي عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار وتحصين البيوت، ويمكن أن يكون في عمل هذه الفرقة تخفيف لشدة السيل أو سد لبعض منابعه، لكن لا يمنعه عن بيوت الناس وممتلكاتهم.

الثانية: رأت أن صرف الجهود كلها في عمل الفرقة الأولى قد أضاع عليهم كثير من المصالح، ولم يستطيعوا منع السيل فاتجهوا إلى بيوتهم في تقويم أساسها وقواعدها ورفع أسوارها عن مجرى السيل كما اتجهوا إلى صرف سيل الوادي عن مجراه المنتهي إلى البيوت والعمران، وذلك

بتحذير الناس من شره القادم وبتوجيه الناس إلى أن يحصنوا بيوتهم من هذا السيل ويتضافر الجميع على صرفه عن بيوتهم وعمرانهم إلى الرمال المحيطة بهم أو السبخات أو الحفر التي يجد السيل فيها مصرفاً له يضيع فيه ويتفرق(١).

والمقصود من إيراد هذا المثال التأكيد على أهمية العمل في جبهة التحصين والوقاية للناس والمجتمعات من سبل الفساد الموجهة إليهم، وأن يعطى حقه من الاهتمام مع بذل الجهد من أهل العلم في الجبهة الأولى، وذلك بالاحتساب على المفسدين ولو للتخفيف أو التأخير، وأهم من ذلك إبراء الذمة والإعذار إلى الله ﷻ والمقصود توزيع الأدوار، وأن لا ينشغل الدعاة بجبهة عن جبهة.

وأسوق فيما يلي ما يحضرني من الوسائل القوية التي يملكها المصلحون من الدعاة وطلبة العلم، ولا يملكها غيرهم من المفسدين. وكيف يمكن تفعيلها وتنشيطها وتوظيفها.

الوسيلة الأولى: المنابر الدعوية والإعلامية:

ويقصد بها تلك المنابر التي يخاطب فيها فئام من الناس على مختلف شرائحهم، ويحصل من خلالها تحذير الناس ووعظهم، وبيان خطر المنكرات على الفرد والبيت والمجتمع، وبيان ذلك بالفتاوى الشرعية المستندة إلى الأدلة الشرعية.

---

(١) مستفاد بتصرف من كتاب «مدارج السالكين» (٢/ ٣١٢).

ويدخل تحت مسمى المنابر الإعلامية ما يلي:

أ- خطبة الجمعة:

حيث أثرها العظيم على الناس، ومما تتميز به دقة الإنصات من السامعين وتركيزهم على ما يقال فيها، وهذه المنابر نعمة من نعم الله ﷻ على المسلمين ووسيلة عظيمة الفائدة، يمتلكها الدعاة إلى الله ﷻ ولا يملكها المفسدون. وأقترح لتفعيل دور الخطبة واستثمارها في إصلاح الناس وتبغيض الفساد والمنكرات لهم النقاط الآتية:

- **أولاً**: إيجاد رابطة مستمرة بين الخطباء في كل حي تجتمع في كل أسبوع، وذلك للتنسيق وتبادل الخبرات وتبادل الخطب، وتحديد المواضيع المهمة للخطبة وترتيب الأولويات في ذلك، كما يقترح رابطة أوسع للخطباء على مستوى المدينة، وذلك في كل شهر مرة، وذلك لتوسيع دائرة التشاور وتنسيق الجهود.
- **ثانياً**: أن يتخصص أناس لجمع الخطب الجيدة القديم منها والجديد، التي يحتاج إليها المجتمع وطبعها وجعلها في متناول الخطباء، ليرجعوا إليها في كتابة الخطبة.
- **ثالثاً**: أن يتخصص أناس لجمع الفتاوى القديمة والجديدة للعلماء، التي يبين فيها أهل العلم الحكم في المنكرات القديمة والجديدة، التي تعشعش بين المسلمين أو هي في بدايتها، وذلك لرفضها من الناس ومقاطعتها وتزويد الخطباء بها لقراءتها على الناس.

• **رابعـاً**: التعاون مـع القائمين على إذاعة القـرآن بالاقتراح عليهم تسـجيل بعض الخطب المهمة، التي يتفق عليها سـلفاً لتذاع على الناس وتكرر عليهم.

• **خامسـاً**: طبع الخطب الجيدة والمهمة في رسائل صغيرة وتوزيعها مجاناً أو بيعها بسعر رمزي.

• **سادساً**: الحرص على محلات التسجيل على تسجيل الخطب المهمة ونشرها بين الناس، وأن يصاحب ذلك تغطية من الدعاية الجيدة والتسويق القوي.

• **سـابعاً**: يفعّـل دور أئمـة المسـاجد وحلقات التحفيـظ في توزيع أشرطة الخطباء الجيدة على بيوت الحي.

ب- الدروس والمحاضرات والجولات الوعظية:

وهذه من الوسائل المهمة التي لو رتبت مواضيعها وأماكنها وأوقاتها لظهر لها وقع عظيم في تحصين الناس ووقايتهم من الفساد، وهي -والحمد لله- كثيرة ومنتشرة، ولكن تحتاج إلى تفعيل وتنشـيط وتنظيم؛ لكي يكون أثرها أكبر مما هي عليه الآن، ومن الوسائل المقترحة لتفعيلها ما يلي:

• **أولاً**: اختيـار المواضع المهمـة للمحاضرات والدروس وتوظيف الـدروس في مخاطبة الناس ووعظهـم، وتحذيرهم من المنكرات، سـواء كان ذلك عندما يأتي مناسـبة في الدرس أو تخصيص آخر الوقـت في الـدروس للحديث عن المنكـرات والتحذير منها، أو

تعد أسئلة مهمة تطرح على الشيخ ليجيب عليها في نهاية الدرس، ويركز على مظاهر الفساد والموقف منها.

- **ثانياً**: تحريك بعض طلبة العلم المؤثرين بما عندهم من العلم والديانة والبلاغة في أن يشاركوا وينفروا، وأن يعيدوا النظر في سلبيتهم وقعودهم.
- **ثالثاً**: التنسيق مع إذاعات القرآن والقنوات الإسلامية بنقل الدروس والفتاوى والمحاضرات المهمة في إذاعة القرآن.
- **رابعاً**: مساعدة المُحاضِر في جمع المادة العلمية والفتاوى المهمة التي يستخدمها في إقناع الناس برفض الفساد وتحريمه ومقاطعته.
- **خامساً**: قيام محلات التسجيل بتسجيل مثل هذه الدروس والمحاضرات المهمة والدعاية لها وتسويقها بين الناس.
- **سادساً**: نشر هذه المحاضرات في بيوت الحي عن طريق مساجد الحي وحلقات التحفيظ ودعمهم مادياً.
- **سابعاً**: يحسن أن يكون هناك رابط أسبوعي أو شهري بين طلبة العلم، الذين يقومون بالدروس والمحاضرات للتنسيق بينهم والتشاور في المواضيع المطروحة.

ج- الاستفادة من إذاعات القرآن والقنوات الإسلامية:

وميزة هذه الوسائل الإعلامية أنها تخاطب الفئات الكبيرة من الناس، لذا صارت من أهم الوسائل التي ينبغي أن يعتني بها الدعاة إلى الله ﷻ

واستثمارها في توجيه الناس وتحصينهم، وتحذيرهم من الفساد الموجه لهم، ورد شبهات المفسدين، ومن أوجه الاستفادة من هذه المنابر ما يلي:

١- ما يكون فيها من برامج الإفتاء، ويحسن أن توظف هذه البرامج في تحذير الناس من صور الفساد المسلطة عليهم وبيان الحكم الشرعي فيها والتركيز على هذا النوع من الفتاوى.

٢- تقديم الدروس العلمية المبسطة التي توعي الناس بدينهم (في التفسير والعقيدة والفقه والآداب) وترفع عنهم اللبس والتضليل.

٣- إجراء المقابلات والندوات والحوارات في القضايا التي تحذر المسلمين مما يراد بهم من الفساد والشر والرد على الشبهات وفضح أهلها.

٤- ولتفعيل دور هذه المنابر يحث أهل القدرات الإعلامية من الدعاة للدخول فيها والتعاون مع القائمين عليها في تهيئة البرامج وتقديم المواد التي تحقق الأهداف.

٥- نقل الخطب والدروس والدورات الشرعية التي تعقد في المساجد.

الوسيلة الثانية: إحياء اللقاءات الأسرية ولقاءات الأحياء:

حيث ثبت بالتجربة عظيم فائدتها في تأليف القلوب والتعاون على الخير والتحذير من الفساد والمنكرات، ولو أن أهل الاستقامة في كل

أسرة وكل حـي -وهـم كثير والحمد لله- كونوا هـذه الروابط واللقاءات واسـتثمروها في وقايـة الأسر والجـيران نسـاءً ورجـالاً مـن شر الفسـاد والمنكـرات لكان لها الأثر العظيم. ومن الأعـمال الخيرة التي تقوم به هذه الروابط واللقاءات ما يلي:

١- توزيع الأشرطة والأقراص المدمجة والكتيبات التي تنشر الفضيلة وتحارب الرذيلة.

٢- توزيـع الفتـاوى التـي تبين حرمة ما جـدَّ في حياة المسـلمين من منكرات البيوت.

٣- إقامـة المسـابقات الهادفة التي تنبه السـامعين إلى أمور شرعية قد يجهلونها أو يغفلون عنها.

٤- استضافة بعض طلبة العلم المؤثرين ليتحدث عن بعض المنكرات وضرورة إنكارها، وتحصين البيوت وتربية الأولاد والنشأة على حب الفضيلة وبغض الفساد والرذيلة.

العناية بشـؤون المرأة وتوعيتها بأحكام الإسـلام، وتحذيرها مـن منكـرات اللبـاس والزينـة، ومـا يـراد لهـا مـن إخراجهـا واختلاطها بالرجال، ويمكن أن تنشـأ روابط نسائية في الأسرة، تتولى المسـتقيمات في كل أسرة تحقيق هذه الأهداف بما سـبق من الوسائل.

٥- مراقبة الحي وما فيه من المنكرات والتعاون مع الهيئات لإزالتها.

الوسيلة الثالثة: أئمة المساجد:

لا يخفى دور إمام المسجد في نشاط المسجد ونشاط الحي الذي فيه المسجد، وهذا ملموس من بعض الأئمة الناشطين، فلو أن إمام كل مسجد قام بدوره في جماعة الحي لكان في ذلك خير عظيم وسد منيع، ومن أهم الأنشطة التي يقوم بها إمام المسجد ما يلي:

١- القراءة على جماعة المسجد في الكتب والفتاوى، التي تحذر من الفساد والمنكرات في البيوت أو الأسواق وغيرها.

٢- التعاون مع دورية الحي في دعم أنشطة المسجد وحلقات التحفيظ ومتابعة المنكرات في الحي.

٣- استضافة طلاب العلم ليلقوا كلمات ومحاضرات وفتاوى تدعو الناس إلى الخير، وتحصنهم من الفساد وتحذرهم منه.

٤- متابعة المحاضرات والدروس في المساجد الأخرى، وتبليغ جماعة المسجد بها مشافهة، أو عن طريق الملصقات الإعلانية.

٥- التعاون مع حلقات التحفيظ في توزيع الكتيبات والأشرطة على منازل أهل الحي.

٦- تفقد الأشخاص الذين لا يصلون مع الجماعة ومناصحتهم ودعوتهم إلى لقاءات أهل الحي.

٧- إقناع طلاب العلم من جماعة المسجد على فتح دروس في المسجد، سواء كانت لعوام المسلمين أو المتعلمين.

٨- ولتفعيل دور الإمام في المسجد يحسن تكوين رابطة لأئمة المسجد في الأحياء المتقاربة والتشاور معهم، وتبادل الخبرات في أنشطة المساجد.

٩- الاستفادة من المشرفين على حلقات التحفيظ في تقديم الفتاوى واقتراح الرسائل المهمة التي تقرأ على جماعة المسجد.

الوسيلة الرابعة: حلقات التحفيظ ومكتبات المساجد:

لا يخفى دور هذه الحلقات المباركة في حفظ أبناء الحي بحفظهم لكتاب الله ﷻ وتربيتهم وتحصينهم من الفساد، ومع ذلك يمكن أن يستفاد من هذه الحلقات ليظهر أثرها في أهل الحي، وذلك بالوسائل الآتية:

- توزيع الأشرطة والأقراص المدمجة والكتيبات على بيوت الحي.
- إعطاء طلاب التحفيظ بعض الأشرطة والفتاوى والكتب لأخذها إلى أهليهم مما من شأنه تحذير البيوت من المنكرات والفساد.
- الاهتمام بأولياء أمور طلاب التحفيظ والاجتماع بهم في دورية شهرية للعناية بأبنائهم والتناصح معهم في إصلاح البيوت وتطهيرها من الفساد.

الوسيلة الخامسة: مواقع شبكة المعلومات:

وقد ظهر أثر هذه المواقع في الآونة الأخيرة لما ظهرت المواقع الإسلامية للمشايخ والمؤسسات الإسلامية والمواقع التي تهتم بالمرأة والحسبة. لذا يجب الاهتمام بها وتفعيلها وتقديم المادة المناسبة التي فيها

تحذير المسلمين مما يراد بهم من الفساد وتخصص بعض أهل العلم في تتبع شبهات المفسدين وشهواتهم والرد عليها.

الوسيلة السادسة: المعلمون في المدارس:

المعلم المسلم صاحب الرسالة لا ينظر إلى وظيفته بأنها مصدر للرزق فحسب، وإنما هي من أهم المجالات التي يمكن تربية النشأ فيها وتحصينهم من الفساد والمنكرات. كما يمكن التأثير من خلال التعليم على أسر الطلاب وبيوتهم بإيصال بعض الفتاوى والأشرطة عن طريق أبنائهم، وكذلك يستفاد من مجالس الآباء في المناصحة مع أولياء الأمور في التخلص من المنكرات والفساد.

الوسيلة السابعة: الحسبة والاحتساب:

من خصائص هذه الأمة أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وكلما شاع الاحتساب وانتشر قل الفساد واندحر المفسدون، سواء كان ذلك على يد مراكز الهيئات أو عن طريق المحتسبين، لذا ينبغي للدعاة وطلاب العلم والمحاضرين أن يحثوا الناس على مختلف طبقاتهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلاً فيما يخصه وحسب علمه وقدرته.

الوسيلة الثامنة: الكتاب والمؤلفون:

إن الإكثار من الكتب والرسائل والمطويات التي تحذر من الفساد وتكشف خطط المفسدين لتعد من أهم الوسائل التي توعي الأمة وتحذرهم من كيد المفسدين وتلبيسهم وتضليلهم، وذلك بما يكون في هذه

المؤلفات من بيان حكم الله ﷻ في مظاهر الفساد الذي يروج له المفسدون، وكشف شبهاتهم التي يلبسون بها على الناس.

الوسيلة التاسعة: أماكن الانتظار العامة:

وذلك مثل الانتظار في عيادات الأطباء، وصرف الدواء في الصيدليات الحكومية ومحلات الحلاقة ومكاتب العقار وما شابهها.

حيث من المفيد تزويد هذه الأماكن بمطويات ورسائل وفتاوى تناسب حاجة الناس، وتحذيرهم وتحصينهم من سبل الفساد.

الوسيلة العاشرة: الدور النسائية لتحفيظ القرآن:

لم يعد خافياً أثر هذه الدور المباركة -إن شاء الله- في تحصين المرأة المسلمة من كيد أعدائها، وتعليمها دينها، وتحذيرها من مظاهر الفساد الموجه لها وللأسر المسلمة، والعناية بالمرأة المسلمة له أثر في نفسها، كما أن له أثرًا كبيرًا في إصلاح الأسر والبيوت، حيث تنقل المرأة ما تسمع وترى وتقرأ في هذه الدور، وما يوزع فيها من أشرطة وكتيبات وفتاوى إلى أسرتها وأولادها، لذا لزم الأمر العناية الشديدة بهذه الدور.

الوسيلة الحادية عشرة: رسائل الجوال، ومواقع التواصل الاجتماعي في الشبكة العنكبوتية:

لقد ظهر في الآونة الأخيرة أثر رسائل الجوال ومواقع الاتصال في نشر الخير والشر، لذا ينبغي توظيفها من قبل المصلحين في نشر الفضيلة

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدلالة على الكتب والفتاوى والدروس المفيدة والتحذير من الفساد وتعرية أهله وتبيين المنكرات ودفع الناس لإنكارها.

تنبيهات مهمة:

الأول: لابد في الوسائل السابقة من عمل مرتب ومنظم، ترتب فيه الأولويات وتوزع فيه الأدوار، ويجند فيه الغيورون من الصالحين في إحيائه وتنفيذه بتوجيههم واستثمار طاقاتهم، ولا يكتفي بالجهود الفردية.

الثاني: العناية بالجانب التربوي في أوساط الدعاة وطلبة العلم وأهل الاستقامة من شباب الأمة وفتياتها، والعناية بصحة الفهم والتصورات وحسن السلوك والأخلاق، وأن لا يكون العمل الاحتسابي والإعلامي سبباً في انشغالنا عن أنفسنا وتربيتها وتربية غيرنا.

الثالث: إعداد جيل إعلامي قوي يجمع بين العلم الشرعي والصمود على الثوابت الشرعية، والبعد عن الضعف والانهزامية، والاستجابة لأهواء الناس، وبين الوعي الإعلامي والخبرة الإعلامية التي تخاطب الناس، وتؤثر فيهم وتكسبهم.

الرابع: لا يقتصر في مخاطبة الناس ببيان الحكم الشرعي في المنكرات وتحذيرهم منها، بل ينبغي أن يتوجه الخطاب إلى القلوب وتقوية العبودية لله ﷻ فيها والاستسلام لشرعه -سبحانه- والإذعان والقبول له، وتخويفهم من الله ﷻ ومن عذابه، وتقوية محبة الله ﷻ وتعظيمه والخوف

من يوم الحساب والوقوف بين يدي الله -تعالى-، وتقوية واعظ الله في قلب المسلم وخشيته في الغيب والشهادة، لأن الإيمان الحق والرادع القوي عن معصية الله ﷻ هو خوف الله -عز وجل بالغيب ومراقبته في السر والعلن، وإن في هذه الشهوات التي انفتحت في زماننا اليوم بشكل لم يسبق له نظير، بحيث يسهل الحصول عليها بأدنى جهد، بل بغير جهد، حتى أصبحت في متناول اليد والسمع والبصر، إن في هذا ابتلاء من الله ﷻ ليعلم من يخافه بالغيب، كما ابتلى أصحاب محمد ﷺ بعدما حرم قتل الصيد على المحرم بحج أو عمرة بأن ابتلاهم فسهل لهم الصيد تناله أيديهم ورماحهم، وكان الصيد قبل ذلك ينفر منهم بمجرد رؤيتهم من بعيد.

قال الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٩٤]. فنجوا من هذا الابتلاء لأنهم يخافون ربهم بالغيب، وكذا الحال في أجهزة الحاسوب والجوال المتاحة اليوم بيد الصغير والكبير، والرجل والمرأة، يحملها في جيبه ويخلو بها في غرفته، وبمجرد فتح موقع من المواقع السيئة يظهر ما يثير الشهوة ويوقع في الرذيلة، فإن لم يقوَّ في قلوب الناس واعظ الله ﷻ والخوف منه بالغيب، فإن أي وسيلة بعد ذلك قليلة الفائدة أو عديمتها.

فعن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى كنفي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى الصراط داع يقول: يا أيها الناس!**

اسلكوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو على الصراط، فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب، قال: ويلك، لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، والستور: حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، والداعي الذي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله يذكر في قلب كل مسلم»[١].

والشاهد في هذا الحديث قوله: (ويلك لا تفتحه)، وأن القائل لذلك الداعي إليه واعظ الله ﷻ في قلب المسلم، فلا عاصم من فتح محارم الله إلا الخوف من الله ﷻ في قلب المسلم.

(١) رواه الحاكم في «مستدركه» (٢٢٧) (١/ ٢٣٨)، ورواه أحمد بلفظ مقارب (١٨١٠١)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٣٤٨).

الفصل الخامس

وصايا وتنبيهات مهمة

أوصي كل الطوائف التي نفرت مجاهدة في سبيل الله تعالى، سواء باليد والسنان أو بالقلم والبيان أو بالتربية والاحتساب -كما سبق بيانه- أن تقف في جهادها مع الوصايا الآتية:

الوصية الأولى:

النظر إلى تنوع ضروب الجهاد المختلفة التي سبق ذكرها، وكأنها جامعة مشتملة على كليات وتخصصات عدة يكمل بعضها بعضاً، وتجمعها جامعة واحدة، وإن اختلفت وسائل الجهاد من السيف إلى البيان إلى التربية والاحتساب، والنظر إلى هذا الاختلاف على أنه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وبناء على هذه النظرة فإن التعاون والتواد بين هذه الطوائف هو الذي ينبغي أن يسود، كما ينبني عليه أيضاً أن تفرح كل طائفة نفرت في مجال معين بما تقوم به الطائفة الأخرى من جهاد، وتبذل لها الدعاء والمعونة حسب الاستطاعة، وعلى هذا فإنه لا يسوغ لطائفة نفرت في جهاد الغزاة الكافرين باليد والسنان أن تهوِّن من شأن من نفرت في جهاد الدعوة والبيان؛ لكونها لم تنفر في جهاد السنان، وكذلك الحال بمن نفر في جهاد البيان أو التربية والتحصين لا يسوغ له أن يهون من

شأن من نفر للدفاع عن بلدان المسلمين بالسنان، بل ينبغي لكل طائفة أن تنظر إلى أختها التي نفرت في عمل آخر على أنها تقوم بنوع من الجهاد تسانده وتفرح بما يتحقق على يد أفرادها من خير يفتح أو شر يغلق، نعم؛ من استطاع أن يضرب مع كل طائفة بسهم، فيكون مع أهل الثغور في جهادهم، ومع أهل البيان ورد شبهات المشبهين في بيانهم، ومع المربين وأهل الاحتساب في احتسابهم وتربيتهم، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولكن أهله قليل، وليس في استطاعة أكثر الناس.

الوصية الثانية:

ينبغي على كل الطوائف التي قامت لنصرة دين الله ﷿ والذب عنه بشتى أنواع النصرة والجهاد أن تتعرف على أسباب النصر وأصول التمكين فتأخذ بها، وأن تعرف أسباب الخذلان والفشل والهزيمة فتحذرها وتتجنبها، وكل ذلك مذكور في كتاب الله ﷿ وفي سير الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ولاسيما سيرة نبينا محمد ﷺ يقول الله ﷿: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]، ويقول -سبحانه-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، وقد أجمل الإمام ابن القيم رحمه الله أصول النصر والتوفيق في قاعدة ذهبية قال فيها:

(..فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً، وكان قيامه بالله ولله لم يقم له شيء، ولو كادته السماوات والأرض والجبال لكفاه الله مؤنتها، وجعل له فرجاً ومخرجاً، وإنما يؤتى العبد من تفريطه وتقصيره في

هذه الأمور الثلاثة، أو في اثنين منها، أو في واحد، فمن كان قيامه في باطل لم ينصر، وإن نصر نصراً عارضاً فلا عاقبة له وهو مذموم مخذول، وإن قام في حق لكن لم يقم فيه لله، وإنما قام لطلب المحمدة والشكر والجزاء من الخلق أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولاً، والقيام في الحق وسيلة إليه، فهذا لم تضمن له النصرة، فإن الله إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه، فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين، وإن نصر فبحسب ما معه من الحق، فإن الله لا ينصر إلا الحق، وإذا كانت الدولة لأهل الباطل فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصور أبداً، فإن كان صاحبه محقاً كان منصوراً له العاقبة، وإن كان مبطلاً لم يكن له عاقبة.

وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعيناً به متوكلاً عليه مفوضاً إليه بريئاً من الحول والقوة إلا به، فله من الخذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك، ونكتة المسألة أن تجريد التوحيد في أمر الله لا يقوم له شيء البتة، وصاحبه مؤيد منصور ولو توالت عليه زمر الأعداء)[1].

من هذا الكلام النفيس نخلص إلى أن الأركان المؤدية إلى الفوز والنصر والتوفيق ثلاثة أركان:

الركن الأول: أن يكون القيام في حق وليس في باطل، وذلك من قوله: (فإذا قام العبد بالحق).

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٧٨).

الركن الثاني: أن يكون القيام لله تعالى وطلب رضاه، وذلك من قوله: (وكان قيامه لله).

الركن الثالث: أن يكون القيام بالله ﷻ استعانة به وتوكلاً عليه وحده، متبرئاً من الحول والقوة إلا به، وهذا يفهم من قوله (وكان قيامه بالله). وبتفصيل هذه القاعدة يتبين لنا أن النصر والتمكين يقوم على الأصول الآتية:

* * *

الأَصْلُ الأَوَّلُ

القيام بالحق بصحة الفهم والموافقة للشرع

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى...﴾ الآية [يوسف:١٠٨].

ويعني بهذا الأصل أن تقوم الدعوة، وينطلق التغيير من فهم صحيح وعقيدة صافية وبصيرة واضحة في الدين، كما جاء في كتاب الله ﷻ وسنة رسول الله ﷺ وفهم الصحابة رضي الله عنهم، لأن أي دعوة أو جهاد تقوم على غير هذا بأن يزيد على ذلك أو ينقص؛ فإنها قد فرطت في هذا الأصل العظيم من أصول التمكين والنصر.

ويلحق بالفهم الصحيح ما يجب أن يكون عليه أصحاب الدعوة من عمل صحيح موافق لما كان عليه الرسول ﷺ، وذلك في عباداتهم ومعاملاتهم وسلوكهم، ومما يلحق بصحة الفهم: فهم الواقع والمحيط الذي يحيط بالدعاة والمجاهدين وطبيعته، واستبانة سبيل المجرمين ومخططاتهم وكيدهم.

كما يلحق بصحة الفهم وصحة الاتباع فهم مقاصد الشريعة والعلم بمسائل الخلاف ما يسع منها وما لا يسع، والعلم بفقه الموازنات وقواعد الترجيح بين المصالح عند تعارضها وبين المفاسد عند تعارضها، وبين

المصالح والمفاسد عند التعارض، وهذا العلم مما يحتاج إليه الدعاة والمجاهدين أمس الحاجة، وهم يواجهون النوازل والمستجدات والتعارضات في طريقهم، وإن الجهل به أو تجاهله ليعد من أسباب النكبات التي يتعرض لها الدعاة والمجاهدين في سبيل الله.

إن موضوع الموازنة بين المصالح والمفاسد أو فقه الأولويات معلم عظيم من معالم ديننا الحنيف، وهو ثابت في الكتاب والسنة، وقد كان هذا العلم رائد الصحابة، وعلماء الأمة، فما كان أحدهم يفتي إلا وهو يوازن بين المصالح لتحقيق مراد الله، وتتضمن الموازنات ثلاثة أمور:

الأول: الموازنة بين المصالح والمفاسد. **الثاني**: الموازنة بين المصالح بعضها مع بعض. **الثالث**: الموازنة بين المفاسد بعضها مع بعض.

ميزان الترجيح بين المصالح والمفاسد عند التعارض:

إذا تعارضت المصالح والمفاسد في مناط واحد كان الترجيح بينها على أساس ثلاثة أمور:

١ - الأهمية الذاتية للمصلحة والوسيلة إليها:

بما أن المصالح متفاوتة، ومتدرجة بحسب أهميتها في مراتب: أعلاها حفظ الدين، وأدناها حفظ المال، وبما أن الوسائل إلى تحقيقها متفاوتة كذلك، بدءاً من الضروري، وانتهاء بالتحسيني، فلذلك كان **هذا التدرج في الأهمية بالنسبة للمصالح والوسائل الميزان الأول للترجيح عند**

التعارض، فما تكون به ضرورة حفظ الدين مقدم على ما تكون به ضرورة حفظ النفس، وما يكون به ضرورة حفظ النفس مقدم على ما يكون به ضرورة حفظ العقل، وهكذا. وذلك كالترخيص في شرب الخمر لإزالة الغصة تقديماً لضرورة حفظ النفس على ضرورة حفظ العقل، وكإزالة محال الخمور وإن ترتب على ذلك إتلاف الأموال الطائلة التي قامت بها هذه المحال تقديماً لمصلحة حفظ العقل على مصلحة حفظ المال.

والضروري الذي تتحقق به إحدى هذه المصالح مقدم على الحاجي عند التعارض، وهذا الحاجي مقدم على التحسيني. ولا يستثنى من هذه القاعدة إلا استحباب تقديم الحاجي المتعلق بحفظ الدين على الضروري المتعلق بحفظ النفس، وذلك إعزازاً لجانب الدين الذي هو أساس القيم كلها، وذلك كقيام المسلم بأمر السلطان بالمعروف ونهيه عن المنكر، وإن غلب على ظنه قتله، وإنما قيل بالاستحباب فقط استصحاباً للأصل الذي هو جواز الترخص في مثل هذه الحال، وبناء على ذلك فلو تعارضت ضرورة حفظ الدين بالجهاد مع حاجي ككون الأئمة عدولاً غير فساق، فإنه يقدم الضروري على هذا الحاجي، فيجب الجهاد مع الأئمة أبراراً كانوا أو فجاراً، ويمضي الجهاد لا يبطله جور الأئمة ولا فسقهم، ولو تعارض أداء الجماعة وهو حاجي مع الاقتداء بالإمام الصالح، وهو تحسيني -بأن كان الإمام فاسقاً أو مبتدعاً ولم يوجد غيره- ألغينا التحسيني من أجل الحاجي، وتعين إقامة الجماعة خلف هذا الفاسق أو المبتدع، لأن التزام التحسيني هنا لا يكون إلا بترك الجماعة،وهذا يؤدي إلى انتفاء الحاجي والتحسيني معاً.

٢- مدى شمول المصلحة

إذا كانت المصلحتان المتعارضتان في درجة واحدة من الأهمية الذاتية بأن كانتا في رتبة واحدة، ومتعلقتين بكلي واحد، انتقلنا إلى ضابط آخر للترجيح وهو مقدار شمولهما للناس وانتشار آثارهما بينهم، فنقدم أشملهما على الأخرى، **إذ لا يعقل إهدار مصلحة جمهور الناس من أجل مصلحة فرد أو فئة قليلة منهم**، وذلك كترجيح الاشتغال بتعليم العلوم الشرعية على الاشتغال بنوافل العبادات لأن الأول أشمل فائدة من الثاني، وترجيح مصلحة حفظ عقول الناس من الزيغ على مصلحة الفرد في ممارسة حرية الرأي والكتابة عند تعارضهما، وكترجيح مصلحة عامة أهل السوق على مصلحة الواحد منهم في تلقيه للركبان والشراء منهم خارج البلدة.

٣- مدى تحقق الوقوع

وهو آكد ضوابط الترجيح بين المصالح والمفاسد عند التعارض، ذلك أن أساس اتصاف الفعل بكونه مصلحة أو مفسدة، إنما يكون بالنظر إلى ما يتمخض عنه في الخارج من النتائج، وهي ثلاثة أنواع: **١-مؤكد الحصول في العادة. ٢- مظنون الحصول. ٣- موهوم الحصول.**

* فحفر بئر خلف باب دار في الظلام مفسدة مؤكدة، والتجارة في مال اليتيم نقداً مصلحة مؤكدة.

* وبيع السلاح في الفتنة وبيع العنب للخمار مفسدة راجحة، والتجارة في مال اليتيم ديناً مع التوثيق مصلحة راجحة.

* وهجوم فئة قليلة من عزل المسلمين على أضعافهم من الكفار المدججين بالسلاح مصلحة موهومة، وبيع العنب لمن جهلت صنعته مفسدة موهومة، وعلى هذا فلا يجوز ترجيح مصلحة على أخرى إذا كانت مشكوكة أو موهومة مهما بلغت أهميتها أو درجة شمولها، بل لابد أن تكون مع ذلك مقطوعة الحصول أو راجحة.

ومن نفيس كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ما يتعلق بفقه الموازنات، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(**إذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فَقُدِّم أوكدهما لم يكن الآخر في هذه الحال واجباً، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تاركاً لواجب في الحقيقة. وإن سمي ترك واجب باعتبار الإطلاق**. ويقال في مثل هذا ترك الواجب لعذر، كما يقال لمن نام عن صلاة أو نسيها وصلاها في غير الوقت المطلق قضاءً.

في «الصحيحين» عن أنس بنِ مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ نبيُّ الله ﷺ: «**مَنْ نَسِيَ صَلاةً أوْ نَامَ عَنْهَا؛ فَكَفَّارَتُها أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذكَرَهَا**»(١). فيسمى قضاءً باعتبار الإطلاق، وإلا فهو وقتها بالنسبة لمن نسي أو نام لوجود العذر.

وإذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرماً في الحقيقة، وإنما سمي فعل محرم بصفة الإطلاق لم يضر، ويقال في مثل هذا فعل المحرم للمصلحة الراجحة أو لضرورة أو لدفع ما هو أشد حرمة...

(١) البخاري (٥٧٢)، ومسلم (٦٨٤) واللفظ لمسلم.

... إن باب التعارض واسع جداً، لاسيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة، فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة...

... وإذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم، واختلفت أنظار الناس:

* فأقوام ينظرون إلى الحسنات فيرجحون هذا الجانب، وإن تضمن فعل سيئات عظيمة.
* وأقوام ينظرون إلى السيئات فيرجحون هذا الجانب، وإن تضمن ترك حسنات عظيمة.
* والمتوسطون الذين ينظرون الأمرين قد لا يتبين لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرة، أو يتبين لهم فلا يجدون من يعنيهم العمل بالحسنات وترك السيئات، لكون الأهواء قارنت الآراء...

فينبغي للعالم أن يتدبر أنواع هذه المسائل، **وقد يكون الواجب في بعضها العفو عند الأمر والنهي في بعض الأشياء لا التحليل والإسقاط**، مثل أن يكون في أمره بطاعة فعلاً لمعصية أكبر منها، فيترك الأمر بها دفعاً لوقوع تلك المعصية، مثل أن ترفع مذنباً إلى ذي سلطان ظالم فيعتدي عليه في العقوبة ما يكون أعظم ضرراً من ذنبه، ومثل أن يكون في نهيه عن بعض المنكرات تركاً لمعروف هو أعظم منفعة من ترك المنكرات فيسكت عن النهي خوفاً أن يستلزم ترك ما أمر الله به ورسوله مما هو عنده أعظم

من مجرد ترك ذلك المنكر، والعالم تارةً يأمر وتارةً ينهى وتارةً يسكت، كالأمر بالصلاح الخالص أو الراجح أو النهي عن الفساد الخالص أو الراجح، وعند التعارض يرجح الراجح بحسب الإمكان.

فأما إذا كان المأمور والمنهي لا يتقيد بالممكن إما لجهله وإما لظلمه، ولا يمكن إزالة جهله وظلمه، فربما كان الأصلح الكف والإمساك عن أمره ونهيه، كما قيل: إن من المسائل مسائل جوابها السكوت، كما سكت الشارع في أول الأمر عن الأمر بأشياء والنهي عن أشياء، حتى علا الإسلام وظهر، **فالعالم في البيان والبلاغ كذلك** قد يؤخر البيان والبلاغ لأشياء إلى وقت التمكن، كما أخر الله سبحانه إنزال آيات وبيان أحكام إلى وقت تمكن رسول الله ﷺ إلى بيانها، يبين حقيقة الحال في هذا أن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

والحجة على عباد الله تعالى والوجوب والتحريم إنما تقوم بشيئين:

١ - التمكن من العلم بما أنزل الله.

٢ - والقدرة على العمل به.

فأما العاجز عن العلم كالمجنون أو العاجز عن العمل فلا أمر عليه ولا نهي، وإذا انقطع العلم ببعض الدين أو حصل العجز عن بعضه، كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله: كمن انقطع عن العلم بجميع الدين أو عجز عن جميعه كالجنون مثلاً، وهذه أوقات الفترات فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه

لما جاء به الرسول ﷺ شيئاً فشيئاً بمنزلة بيان الرسول لما بعث به شيئاً فشيئاً، **ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، ولم تأت الشريعة جملة**، كما يقال: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع، **فكذلك المجدد لدينه والمحيي لسنته لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به**، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها، وكذلك التائب من الذنوب والمتعلم والمسترشد لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين، ويذكر له جميع العلم فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجباً عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجباً لم يكن للعالم والأمير والمسئول أن يوجبه جميعه ابتداءً، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان، كما عفا الرسول -عليه الصلاة والسلام- عما عفا عنه إلى وقت بيانه، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات؛ **لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل**، وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط فتدبر هذا الأصل فإنه نافع. ومن هنا يتبين سقوط كثير من هذه الأشياء، وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة الله في الوجوب أو التحريم، فإن العجز مسقط للأمر والنهي، وإن كان واجباً في الأصل)[1].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٤٨) وما بعدها.

الأَصْلُ الثَّانِي

حسن القصد

ويعنى بهذا الأصل: إخلاص المقاصد لله ﷻ وصدق النية في الدعوة والتغيير بأن يكون القصد من ذلك التعبد لله ﷻ وابتغاء وجهه ورضاه وجنته، وإنقاذ الناس بإذن ربهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن الشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة إلى السعادة فيهما.

إن حسن القصد ينفي كل مقصد دنيوي، سواء كان رياء أو إرادة جاه أو مال أو منصب أو شهرة أو حزبية مقيتة.. إلخ؛ لأن وجود مثل هذه المقاصد في الدعوة يفسدها ولا يكون القصد فيها حسناً، ومن ثمَّ لا يبارك الله فيها، ولا ينصر أهلها، ولا يمكن لهم في الأرض ولو كانوا على فهم صحيح، لأنهم فرطوا في أصل عظيم من أصول التمكين، ألا وهو إرادة الله ﷻ والدار الآخرة. ولا شك أن تحقيق هذا الأصل العظيم في نفوس الدعاة يحتاج إلى جهد ومجاهدة ومناصحة وتربية علمية وعملية، يعتنى فيها بالقلوب وأعمالها، وتقوى فيها الصلة بالله ﷻ والتحلي بالأخلاق المحمودة الباطنة والظاهرة، والتي على رأسها الإخلاص لله ﷻ والتخلي عن الآفات الباطنة التي تفتك القلوب وتفسد السراء.

والأصلان السابقان (**صحة الفهم وحسن القصد**) هما المذكوران في الآية الآنفة الذكر ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ...﴾ الآية،

وهما ما عبر عنهما ابن القيم رحمه الله بقوله: (إذا قام العبد بالحق.. وكان قيامه لله) وقد عبر عنهما أيضاً في موطن آخر بقوله:

(صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت فهومهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة.

وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ويمده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى.

ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو

أجراً، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله)[١] ا.هـ.

ويتفرع عن الإخلاص أصل ثالث هو ثمرة من ثمار القصد الحسن والإخلاص، ألا وهو:

* * *

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٨٧).

الأَصْلُ الثَّالِثُ

اجتماع الكلمة ووحدة الصف ونبذ الفرقة

إن حرص الدعاة والمجاهدين وحبهم للاجتماع والائتلاف وكرههم للفرقة والاختلاف لهو دليل على الإخلاص وحسن القصد، والعكس بالعكس، ذلك لأن حسن القصد وتجرده لله عَزَّ وَجَلَّ ينفي الهوى وحظوظ النفس واللذان هما من أكبر أسباب الفرقة والبغضاء، فإنه لا يمكن لأصحاب الفهم الصحيح الواحد أن يتفرقوا، ويبغي بعضهم على بعض لاختلافهم في بعض الاجتهادات، إلا إذا وجد الهوى وسوء القصد، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي، لا لمجرد الاجتهاد)[١].

ويكفي في التدليل على أن اجتماع الكلمة ووحدة الصف أصل من أصول النصر والتمكين، وأن التفرق والتنازع أصل من أصول الفشل والهزيمة قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۚ ثُمَّ

(١) «الاستقامة» (١/ ٣١).

صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)﴾ [الأنفال:٧٣].

لقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة في تحذير الأمة من الفرقة والاختلاف، وبيان أنها سبب الفشل والنكبات، كما تبين لنا فيهما أن فرح شياطين الأنس والجن إنما هو في افتراق المسلمين، واختلاف كلمتهم لاسيما الدعاة والمجاهدين منهم، وأن غيظ الكافرين من الإنس والجن وغمهم حينما يرون اجتماع كلمة المسلمين وتآلفهم.

ولذا فهم لا يفتأون في الليل والنهار يسعون بالتحريش والتهريش في أوساط المسلمين. قال الله ﷻ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء:٥٣]، كما بين الله -تعالى- تراحم المسلمين فيما بينهم وتآلفهم وأن هذا يغيظ الكفار، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:٢٩].

وقال الرسول ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»(١).

وقال أيضاً ﷺ: «**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ**»(٢).

ولما رأى اليهود اجتماع كلمة الأوس والخزرج بعد أن صاروا مسلمين ومتحابين متآلفين، وقد كانوا قبل ذلك أعداء متحاربين، غاظهم ذلك وغمهم، وسعوا للإفساد بينهم وتفريق كلمتهم، فذكروهم الحروب التي كانت بينهم وما قيل فيها من أشعار، حتى كادت فتنة القتال تنشب بينهم، لولا أن الله ﷻ أخمدها بحكمة نبيه محمد ﷺ ورحمته، وأنزل الله ﷻ في ذلك آيات بينات، قال فيها -سبحانه-: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ...﴾ الآيات [آل عمران:٩٩-١١٢].

وأوصي بالرجوع إلى ما كتبته في مبحث سابق عن (حرب الجيل الرابع) لنرى تخطيط الأعداء لإذكاء الفرقة بين المسلمين، وإسهاماً في جمع الكلمة ونبذ الفرقة، أذكر بعض الوقفات التي تعين بإذن الله تعالى

---

(١) مسلم (٢٨١٢).
(٢) مسلم (٢٨١٣).

المخلصين من الدعاة والمجاهدين في توحيد صفوفهم، وجمع كلمتهم، وقطع الطريق على شياطين الجن والإنس في بث الفرقة والتحريش بين المسلمين.

الوقفة الأولى:

يجب على من يقوم بالرد على المخالف أن يراجع نيته، وذلك بأن تكون قومته لله ﷻ وحميةً لدينه، وليست حمية للنفس وإظهار الغلبة وشفاء للغيظ، وهذه مسألة دقيقة فكم من قائم حمية لنفسه لا لدين الله ﷻ وكم من قائم حمية لله ﷻ ولدينه في بداية أمره ثم لا يلبث أن يدخل حظ النفس والهوى، ويتحول الأمر إلى إثبات الذات والغلبة على الخصم. يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (**وكذلك الحمية لله والحمية للنفس. فالحمية لله يثيرها تعظيم الأمر والآمر، والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها**)[1].

ومن الآفات التي تنافي الإخلاص وتسبب الفرقة والاختلاف العجب والغرور بالنفس والاعتداد بها وازدراء آراء ومواقف الآخرين، ولا علاج لذلك إلا بالإخلاص والتبري من الحول والقوة وتحقيق التوكل على الله -عز وجل وحده- بالاستعانة به دون ما سواه، واليقين بأن المرء هالك ضائع خاسر لو وكله الله ﷻ إلى نفسه طرفة عين، وهذا عين تحقيق قوله -تعالى-: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

(١) «الروح» (٢٣٤).

فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ينفي الرياء، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ينفي العجب، والموفق من وفقه الله تعالى.

الوقفة الثانية:

الأصل في العلاقة بين المسلمين مهما اختلفوا أنها علاقة ولاء وتراحم وتغافر وتناصح، أما مع الكفار فليس لهم إلا البراءة والعزة عليهم، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤].

وبناءً على علاقة الولاء والتراحم بين المسلمين يكون التعاون بينهم فيما اتفقوا عليه، والتناصح بينهم فيما اختلفوا فيه دون أن يحدث هذا الاختلاف منابذة وخصومة وعداوة، كما يبنى عليه حسن الظن بينهم، وإقامة الأحكام والمواقف على العدل والإنصاف فيما بينهم، والسعي للإصلاح إن حصل ما يفسد الأخوة، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠].

الوقفة الثالثة:

على الدعاة والمجاهدين في حال الاختلاف والنقد أن (يسمعوا من بعضهم لا عن بعضهم)، وهناك فرق كبير بين السماع من الجهة المختلف معها وبين السماع عنها، إذ السماع عن المخالف يعتريه بالعنعنة مشوشات

كثيرة، منها سوء الفهم من الناقل، أو سوء التعبير من المنقول عنه، أو عدم التثبت والتوثيق، أو الكذب والهوى، ولاسيما إذا كان الناقل عن المخالف خصم له أو من أقرانه، وفي ذلك يقول الحافظ الذهبي في «ميزانه» في ترجمة الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني ما نصه: (كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لاسيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد. وما ينجو منه إلا من عصم الله، وما علمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس، اللهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾)[1].

أما السماع من بعضهم فإن كثيرًا من المشوشات السابقة تزول، حيث يسمع المختلفون الذين ينتقد بعضهم بعضاً سماعاً مباشراً من بعضهم، يذكر كل فريق حجته والملابسات التي عاشها والظروف التي أحاطت به، حتى صدر منه موقفه، كل ذلك وجهاً لوجه، وقد ينفي أحد الأطراف ما نسب إليه من موقف خاطئ أو يكذبه أو يصححه إذا كان النقل مشوهاً. كما أن في السماع مباشرة بين الإخوة المختلفين إجابة بعضهم لسؤالات بعض بشكل مباشر، الأمر الذي لا يملكه الناقلون للأخبار بالعنعنة. والمقصود أن في سماع الدعاة والمجاهدين بعضهم من بعض لا عن بعض يقضي على كثير من أسباب الخلاف ونزغات الشيطان وظلم بعضهم لبعض.

---

(١) «ميزان الاعتدال» (١/ ١١١).

الوقفة الرابعة:

على من يقوم بالدعوة إلى الله ﷻ أو الجهاد في سبيل الله تعالى، ولاسيما القادة منهم أن يكون لهم العناية التامة بعلم القواعد الشرعية وفقه الموازنات ومقاصد الشريعة، وذلك للحاجة الماسة لهذا العلم في نوازل الزمان والتعارض بين المصالح، والمفاسد ومآلات الأمور، واختلاف المواقف باختلاف الحال والزمان والمكان، وكما قيل: ليس العاقل من يعرف الخير من الشر، ولكن العاقل من يعرف خير الخيرين وشر الشرين.

ومن أهم هذه القواعد التي تعين على جمع الكلمة ونبذ الفرقة:

١- الجماعة أصل، فلا يضيع الأصل للمحافظة على الفرع، كما أتم ابن مسعود -رضي الله عه- الصلاة في منى وهو يرى القصر، وقال: «إن الخلاف شر».

٢- الموقف من المخالف -ولو كانت مخالفته بدعية ما لم تكن مكفرة- يختلف في حالة الضعف ووجود عدو كافر، يستبيح الجميع عنه في حالة القوة والتمكين، فبينما يكون الهجر للفاسق والمبتدع في حالة القوة والتمكين، فإن هذا لا يصلح أن يكون في حالة الضعف وتسلط الكافر الحاقد على الجميع. بل قد يكون من المتعين أن يتفق مع المخالف، ولو كان مبتدعاً في قتال العدو الكافر الصائل مع مناصحة المبتدع في ترك بدعته، فكيف إذا كان المخالف أو المخطئ من أهل السنة؟!

وهذا ما قام به شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ حينما اجتمع مع طوائف الأمة وفيهم الأشعري والصوفي من غير الغلاة، وجيَّش الأمة لقتال التتار ومقابلة ملكهم عندما أراد التتار اجتياح بلاد الشام.

وقد روى الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «السير»: (أن بعض علماء أهل السنة، ومنهم أبو إسحاق الفقيه اتفقوا مع الخوارج بقيادة أبي يزيد الخارجي في قتال الدولة العبيدية الباطنية، وقال عن الخوارج: هم من أهل القبلة وأولئك -يعني العبيديين- ليسوا من أهل القبلة، وهم بنو عدو الله، فإذا ظفرنا بهم لم ندخل في طاعة أبي يزيد لأنه خارجي)[1]. وهذا والله من الفقه والفهم لمقاصد الشريعة.

٣- إذا كان يترتب على إنكار المنكر منكر أكبر منه فلا يجوز الإنكار في هذه الحالة، كما ترك النبي ﷺ هدم الكعبة ليقيمها على قواعد إبراهيم -عليه السلام- خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك؛ لقرب عهدهم بالإسلام[2].

وكما ترك قتل عبدالله بن أبي الذي ظهر نفاقه وكفره خشية أن يقال: إن محمداً ﷺ يقتل أصحابه[3]. ومن ذلك أن مفسدة تفرق المجاهدين من فرح العدو الكافر، وإفشال الجهاد تربو على ما تفرق المجاهدون بسببه، فتنازل عن ذلك حفاظاً على وحدة الصف. ومن

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ١٥٤).
(٢) البخاري (١٥٨٦)،ومسلم (١٣٣٣).
(٣) البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

ذلـك نهيـه ﷺ أن تقطع يد السـارق في الغزو خشـية لحوق صاحب الحد بالمشركين حمية وعصبية[١].

الوقفة الخامسة:

ليـس لازم المذهـب مذهباً. وبنـاء على هذه القاعدة فـلا يلزم القائل بلازم قوله، وما يترتب عليه ويؤول إليه من المآلات، ما لم يلتزمه صاحب القـول؛ إلا أن يكـون حقـاً، ولكـن إلزام القائـل بلازم قوله يسـتخدم في المناظرات لإظهار تناقض الخصم وإبطال مذهبه الذي يقول به. وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: هل لازم المذهب مذهب أم لا؟

فأجـاب: (وأمـا قـول السـائل هـل لازم المذهـب مذهـب أم ليـس بمذهـب، فالصـواب أن لازم مذهـب الإنسـان ليـس بمذهب لـه إذا لم يلتزمه، فإنه إذا كان قد أنكره ونفاه كانت إضافته إليه كذباً عليه، بل ذلك يدل على فساد قوله وتناقضه في المقال)[٢].

وقال في موطن آخر: (وعلى هذا فإن لازم قول الإنسان نوعان:

أحدهما: لازم قوله الحق، فهذا مما يجب عليه أن يلتزمه فإن لازم الحق حـق، ويجوز أن يضاف إليه إذا علم مـن حاله أنه لا يمتنع من التزامه بعد ظهوره، وكثيراً ما يضيف الناس إلى مذهب الأئمة من هذا الباب.

والثـاني: لازم قولـه الذي ليس بحق، فهذا لا يجـب التزامه، إذ أكثر ما فيـه أنـه قد تناقض، وقد ثبت أن التناقض واقع من كل عالم غير النبيين عليهم السلام،

---

(١) أبو داود (٤٤٠٨).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٢١٧).

ثم إن من عرف من حاله أنه يلتزمه بعد ظهوره له فقد يضاف إليه، وإلا فلا يجوز أن يضاف إليه قول لو ظهر له فساده لم يلتزمه؛ لكونه قد قال ما يلزمه، وهو لا يشعر بفساد ذلك القول ولا بلازمه)(١).

وفهم هذه القاعدة وإدراكها يساهم في حل إشكالات كثيرة من شأنه جمع الكلمة، وذلك بعدم تحميل شخص أو طائفة ما لا يحتمل وإلزامه بما لم يلتزمه. ذلك أن كثيرًا من الخلافات والاتهامات التي تكون بين الأشخاص أو الجماعات إنما تنشأ من إلزام القائل بلازم قوله، ومن ثم يتخذ معه موقف المفارقة والمفاصلة، لاسيما إذا كان اللازم يوقع صاحبه في البدعة أو الكفر، ومن أمثلة ذلك ما يقفه بعض الغيورين على العقيدة والجهاد برمي من يفرق بين فعل الكفر وفاعله، وأن تكفير المعين لابد فيه من توفر الشروط وانتفاء الموانع بأنه مرجئ مبتدع، أو أن من يرى أن الجهاد العام في الثغور فرض كفاية، وليس فرض عين؛ لاكتفاء أهل البلد المغزو برجاله: أن هذا من المخذلين عن الجهاد المحسوب على الأنظمة المفسدة أعداء الجهاد.

والأمثلة كثيرة ذكر بعض أهل العلم منها عدم إلزام المرجئة الذين يقولون: إن الإيمان هو التصديق بأن إبليس وبعض اليهود وأبا طالب مؤمنون؛ لأنهم مصدقون مقرون لكون المرجئة لم تقل بذلك ولم تلتزمه.

الوقفة السادسة:

مهما اختلف الدعاة والمجاهدون فيما بينهم، فإن التكفير واستباحة الدماء بينهم خط أحمر لا يجوز الوصول إليه، وإذا تحول القتال إلى أن يكون

(١) «الفتاوى الكبرى» (٤/ ٢٦).

بين المجاهدين فلا خير يرجى منهم، ويتحتم على من يحب لنفسه النجاة اعتزال الجميع والإقبال على إصلاح النفس والدعوة إلى الله، وإن مثل هذه الفتنة لا يجوز التقليد فيها واتباع الداعين إليها، فالجهاد عبادة عظيمة لله -تعالى- يحبها الله ﷻ أما القتال بين المسلمين فإنه مكروه مبغوض لله -تعالى- فلا يجوز تقديم مرادات البشر وما يحبون على مراد الله -تعالى- وكل عبد يأتي يوم القيامة ربه ﷻ فرداً يجادل عن نفسه، وليس معه أحد من متبوعيه، ولا ينفعه أن يقول: اتبعت فلاناً أو طائفة من الناس.

وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الرغم من حبه العظيم لخليفة رسول الله ﷺ الصديق الأكبر أبو بكر الصديق رضي الله عنه وثقته في علمه وإيمانه وشفقته، إلا أنه ناظره في قتال المرتدين من أهل اليمامة، حين خفي عليه مشروعية قتالهم، فكيف بمن دون أبي بكر رضي الله عنه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما توفي النبي ﷺ واستخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر: يا أبا بكر! كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلا الله، فَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلا الله، عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله**» قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق)[1].

(١) البخاري (١٣٩٩) ومسلم (٢٠).

وهـذا عبـدالله بن عمر ﷺ يوم أمر خالد بـن الوليد ﷺ أن يقتل كل رجـل منهم أسـيره يوم بني جذيمـة، فقال عبدالله بن عمـر ﷺ: (والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره)(١).

وعن عمر بن سـعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه قال: يا بني! أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأسـاً؟! لا والله حتى أُعطى سـيفاً إن ضربت به مؤمناً نبا عنـه، وإن ضربـت به كافراً قتله، سـمعت رسـول الله ﷺ يقـول: «**إن اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ الخَفِيَّ التَّقِيَّ**»(٢).

وسـاق الذهبي بسنده عن حميد بن هلال قال: أتت الحرورية مطرف ابن عبدالله يدعونه إلى رأيهم، فقال: (يا هؤلاء! لو كان لي نفسان بايعتكم بإحداهمـا، وأمسـكت الأخـرى، فـإن كان الذي تقولـون هـدىً أتبعتها الأخـرى، وإن كان ضلالـة هلكت نفس وبقيت نفـس، ولكن هي نفس واحدة لا أغرر بها)(٣).

الوقفة السابعة:

إن من الأسـباب التي توقـع في الفرقة واختـلاف الكلمة العجلة في اتخاذ المواقـف وقلة الاسـتخارة والاستشـارة، لاسـيما إذا صـدرت من رمـوز العلـم المتبوعين، وعليه فـإن التأني والحلم وكثرة اسـتخارة الله ﷻ واستشـارة أهل العلم والتقوى والعقل والحكمة تعد من أسباب التوفيق

(١) البخاري (٦٦٧٩).
(٢) الحديث رواه مسلم (٢٩٦٥)، والأثر مروي في «الحلية» (١/ ٩٤).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٩٥).

واجتماع القلوب ووحدة الصف، ولئن يخطئ الرجل في التؤدة والتأني أهون من أن يخطئ في العجلة والطيش.

الوقفة الثامنة:

إن من أعظم الوسائل التي تستجلب بها الألفة واجتماع القلوب بين المسلمين، سؤال ذلك من علام الغيوب ومالك القلوب ومصرفها، إذ لا أحد يؤلف القلوب سوى الله ﷻ بعلمه وعزته وحكمته ورحمته، قال الله -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣]، وإذا علم الله ﷻ صدق الداعين استجاب لهم دعاءهم.

لذا ينبغي أن يتوجه الدعاة والمجاهدون إلى الله ﷻ في أوقات الإجابة بأن يجمع كلمة المسلمين، وأن يؤلف بين قلوبهم، ويوحد صفوفهم، وأن يعيذهم من التفرق والاختلاف.

أسأل الله ﷻ أن يجمع كلمة الدعاة والمجاهدين على الحق، وأن يؤلف بين قلوبهم ويوحد صفوفهم، وأن يجعل جهادهم في سبيله وإعلاء كلمته، وأن ينصرهم على القوم الكافرين.

* * *

الأصل الرابع

الابتلاء والتمحيص والتمييز والصبر على ذلك

قال الله ﷻ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١]، وقال سبحانه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ...﴾ [آل عمران:١٧٩].

وإن المتأمل في منهج الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وبخاصة في سيرة الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين ليرى هذه السنة الربانية واضحة وضوح الشمس، وذلك بما تعرض له المسلمون من الابتلاء والتمحيص في مكة والهجرة والجهاد في سبيل الله ﷻ، وأنهم لم يمكنوا إلا بعد التربية وبعد أن ابتلوا ومحصوا. قال الله ﷻ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١].

والابتلاء الذي يتعرض له أصحاب الدعوة نوعان:

أ- ابتلاء عقوبة وتكفير وتنبيه:

وذلك عندما يحصل الخلل في واحد من الأصول الثلاثة السابقة أو أكثر. فعندما يحصل الخلل في الفهم والمعتقد أو في النية والمقصد، أو في وحدة الصف وتآلف القلوب، فإن الله ﷻ قد يبتلي عباده هؤلاء ببعض

العقوبات والابتلاءات؛ لعلهم يرجعون ويراجعون أنفسهم، ويكفِّر الله ﷻ عنهم بهذه العقوبات سيئاتهم.

ب- ابتلاء تمحيص وتمييز للصفوف:

وهذا النوع من الابتلاء هو الذي نقصده في هذا الأصل، وهو الذي يتعرض له أصحاب الفهم الصحيح والقصد الحسن والصف الموحد، والحكمة منه تمحيص القلوب فيظهر ما فيها لأهلها، وتمييز الصفوف مما قد يكون فيها من المنافقين وأصحاب القلوب المريضة، والذين يكون ضررهم شديداً على الدعوة فيما لو بقوا مندسين في الصفوف ولم يعرف شأنهم، فيقدر الله ﷻ مثل هذا النوع من الابتلاءات ليتميز المؤمن الصادق من غيره، ويزيد الله ﷻ به المؤمنين إيماناً وثباتاً وصلابة في إيمانهم، قال الله ﷻ عن المؤمنين في غزوة الأحزاب عندما رأوا الشدائد والأهوال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢]. وقال عن المنافقين الذين نجم نفاقهم بالابتلاء: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢].

فما زادت الشدائد المؤمنين إلا إيماناً وتسليماً، وما زادت المنافقين إلا مرضاً، وأخرج الله بها ما في قلوبهم من النفاق والكذب الذي ما كان ليعرف في حال السلم والأمان.

وإن أوقات التمحيص والابتلاءات لمن أشد أوقات الدعوة على أهلها، فهي تحتاج إلى جهد عظيم من التعليم والتربية والعبادة والتواصي على الحق والتواصي بالصبر والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ومن علم الله ﷻ صحة فهمه وحسن قصده وعمله الصالح وحرصه على الوحدة والاجتماع، فإنه سبحانه يثبته، ويخرج من الابتلاءات، وقد قوي إيمانه وصلب عوده. وعلى مثل هؤلاء ينزل نصر الله تعالى ويقوم عز الإسلام،

ومن يتمنى النصر قبل التمحيص والابتلاء فإنه لا يفقه هذه السنة.

وبقيت مسألة مهمة تتعلق بالتميز، ألا وهي ضرورة تميز أصحاب الدعوات الذين يريدون التمكين لدين الله تعالى عمن حولهم ممن ابتعدوا عن الدين وتعاليمه، وظهور ذلك في تصوراتهم وأفهامهم وفي عباداتهم وسلوكهم، وفي دعوتهم وصبرهم وتضحيتهم.

وعليهم أن يوصلوا ما يحملونه من علم ودعوة إلى طبقات الناس قدر استطاعتهم، حتى يتم البلاغ وتقوم الحجة، ويعرف أصحاب الدعوة بين الناس بمنهجهم الواضح وأهدافهم العالية. ومن أهم ما يقوم به أصحاب الدعوة حتى يحصل التميز القيام بفضح الباطل وأهله، وتبيين سبيل المجرمين للناس حتى لا تختلط عليهم الأمور، ويلتبس الحق بالباطل، وما لم يتم هذا البيان فإن الناس المضللون قد يستخدمون في مواجهة أصحاب الدعوة لعدم وضوحهم ووضوح دعوتهم في مجتمعات الناس، وذلك بما يستخدمه أعداء الدعوة من تضليل وتلبيس للناس، سواء في تشويه أهل الدعوة وإظهارهم بمظهر المفسدين والمهيجين للفتن، أو بما يضفونه على أنفسهم من أنهم أصحاب الحق وحماته.

فما لم يحصل البلاغ الكافي الذي يتميز فيه الحق من الباطل ويزول التلبيس والتضليل، فإن هذا الأصل أعني أصل التميز لم يتحقق بعد وعلى الدعاة الصبر والتأني وبذل الأسباب في تحقيقه قدر الاستطاعة، حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، وحتى يعطي الواحد من الناس ولاءه لمن يختاره من أهل الحق أو الباطل عن علم وبينة وطواعية.

الأصل الخامس

التوكل على الله ﷻ والاستعانة به وحده مع الأخذ بالأسباب

وهو ما عبر عنه ابن القيم رحمه الله في قاعدته السابقة، بقوله: (وأن يكون قيامه بالله).

وهذا أصل مهم من أصول النصر والتمكين، وهو في حقيقته داخل في الأصل الأول والثاني، لأن صحة الفهم والمعتقد يجعل أصحاب الدعوة فاهمين لحقيقة التوكل، وأنه يعني تمام الثقة بالله ﷻ وغاية الاعتماد عليه مع فعل الأسباب المأمور بها، وعدم الاعتماد عليها؛ لأن خالق الأسباب ومسبباتها هو الله ﷻ، كما أن حسن القصد والإخلاص يجعلهم لا يتعلقون بالأسباب، ولا يعجبون بأنفسهم وإيمانهم وكثرة أتباعهم، وإنما يوقنون بأنهم ضعفة عاجزون، لا حول لهم ولا قوة إذا لم يعنهم الله ﷻ ويقويهم.

وإفراد هذا الأصل هنا في أصل مستقل مع دخوله فيما سبق للتأكيد على أهميته، ولوجود من يغفله في كثير من الأحيان، وفي زحمة الأخذ بالأسباب.

وإن الأخذ بهذا الأصل يعني تقوية اللجوء إلى الله ﷻ ودعائه والتضرع بين يديه في استجلاب النصر ودفع الشر، مما يكون له الأثر في إضفاء الطمأنينة واليقين والثبات، ومن اليقين والثقة بوعد الله ﷻ، اليقين

الذي لا يتزعزع بأن لله ﷻ جنود السماوات والأرض، وأنه سبحانه ينصر عباده المؤمنين الذين أخذوا بأسباب النصر بجند من جنوده، ويظهر ذلك للعيان ولو كان عباده في قلة من العدد والعتاد، ولو كان أعداؤهم في قوة عظيمة من العدد والسلاح وأدوات الدمار.

إنه لا يجوز لأصحاب الدعوة أن ينسوا نصر الله ﷻ لأنبيائه -عليهم الصلاة والسلام- بجنوده الذين سخرهم لنصرة عباده الذين بذلوا ما في وسعهم من العبودية له سبحانه والدعوة إلى دينه وإبلاغه للناس والصبر على ابتلاءات الطريق، فلقد نُصر نوح ﷺ بالطوفان، ونصر هود ﷺ بالريح، وصالح ﷺ بالصيحة، ومحمد -عليه الصلاة والسلام- بالرعب، والملائكة التي قاتلت معه في بدر وأحد وحنين وغيرها من الغزوات، بل إن الناظر في انتصارات المسلمين بعد ذلك وفتوحاتهم؛ ليلحظ أنهم كانوا دائماً في قلة من العدد والعتاد، مقابل أعدائهم من الفرس والروم وغيرهم، ومع ذلك انتصروا بنصر الله ﷻ لهم.

إذن من لوازم التوكل على الله ﷻ اليقين بتدخل قوة الله ﷻ لنصر عباده المؤمنين بآيات ومعجزات وتثبيت للمؤمنين وبث للرعب في قلوب أعدائهم، وغير ذلك مما يقدره سبحانه في وقته المناسب وفق علمه سبحانه وحكمته.

والناس في نصر الله ﷻ لعباده المؤمنين بالآيات والمعجزات طرفان ووسط.

الطرف الأول:

الذين يرون أن الله ﷻ سينصر المسلمين بالآيات والجنود الذين يسخرهم للقضاء على أعداء الدين، ولو لم يأخذوا بأسباب النصر أو لم يكملوها، فما داموا مسلمين وأعداؤهم من الكافرين، فإن نصر الله ﷻ سينزل عليهم، لأنهم مسلمون وكفى، وهذا الفريق من الناس يفرط في العادة في الأخذ بأسباب النصر أو يستطول الطريق فلا يكملها، وإنما ينتظر خارقة وآية من الله ﷻ.

ولا يخفى ما في هذا القول من التفريط والغفلة عن سنن الله ﷻ في النصر والتمكين.

الطرف الثاني:

وهو مقابل للطرف الأول، وقد يكون ردة فعل له، وذلك بقولهم: إنه لكي ينتصر المسلمون على أعدائهم ويمكن لهم في الأرض فلا بد أن يكونوا مكافئين لعدوهم في العدد والعتاد والسلاح والأخذ بالأسباب المادية، ومثل هؤلاء يغلبون الأسباب المادية، ويفرطون في الأسباب الشرعية، ولا يلتفتون إلى الآيات والمعجزات والإعانات التي ينصر الله سبحانه بها عباده، المحققين لأسباب النصر متى شاء سبحانه، وعلم أن عباده المؤمنين قد استفرغوا ما في جهدهم من الأخذ بأصول النصر وأسبابه.

ومعلوم أن المسلمين في كثير من الأوقات وبخاصة في هذا الوقت، لم يصلوا ولم يكلفهم الله سبحانه بأن يصلوا إلى مستوى أعدائهم في القوة والصناعة والسلاح، لأنه ليس شرطاً في نزول النصر.

ولا يخفى ما في هذا القول من تطرف وغفلة عن أسباب النصر الشرعية، ونسيان لقوة الله تعالى، والذي لا يقف أمامها أي قوة في الأرض ولا في السماء، والتي ينصر بها عباده المؤمنين الذين أخذوا بأسباب النصر، واستحقوا أن يسخر لهم جنود السماوات والأرض.

الموقف الوسط:

وهو الحق -إن شاء الله تعالى-، وهم الذين بذلوا كل ما في وسعهم في الأخذ بأسباب النصر السالفة الذكر، حيث بذلوا ما في وسعهم في الأخذ بالعلم النافع والعمل الصالح وحسن القصد، وربوا أنفسهم على ذلك وبلغوه للأمة قدر استطاعتهم، حتى عرفتهم الأمة وما هم عليه من الحق، وعرفت أعداءها وما هم عليه من كفر وفساد، وأخذوا بالأسباب المادية المباحة المتاحة لهم. ومع أخذهم بهذه الأسباب فلم يعتمدوا عليها، بل تبرأوا من الحول والقوة، واعتمدوا على مسبب الأسباب، ومن بيده ملكوت السماوات والأرض، وانتظروا نصره المبين الذي وعد به عباده المؤمنين الذين أخذوا بأسباب النصر، وبذلوا ما في وسعهم في ذلك، وانتظروا تأويل قوله سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧]. ولم ينسوا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]، بل هم موقنون بتدخل قوة الله ﷻ وظهور الآيات بعد أن يبذلوا وسعهم في الأخذ بالأسباب وإعداد العدة للجهاد، ولم يرهبهم حينئذ قوة أعدائهم من الكفرة والمنافقين، مهما بلغت القوة والدمار، لأن قوة الله ﷻ فوق

قوتهم ونواصيهم بيده سبحانه، ولو يشاء الله تعالى لدمرها عليهم، وأبطل مفعولها، ولكن هذا لا يكون إلا لمن حقق أسباب النصر والتمكين.

ومن رحمة الله ﷻ وحكمته أن يغفل الكفار، ويصرف قلوبهم عن الاعتبار بقدرة الله ﷻ وقوته ونصره لأوليائه ومعيته لهم، حيث لا حسابات عندهم إلا للأسباب المادية، وهذا من أسباب محقهم. أسأل الله ﷻ أن يشرفنا بنصرة دينه، وإعلاء كلمته وأن يمكن لنا ديننا الذي ارتضاه لنا.

الوصية الثالثة:

التذكير بقوله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة:٢١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]. وهذه سنة من سنن الله ﷻ ووعد منه سبحانه لا يتخلف، وهذا يجعل المسلم يحسن الظن بربه، ويوقن بوعده، لا ييأس من نصرة الله ﷻ لعباده المؤمنين، فسيأتي نصر الله ﷻ مهما أجلب الأعداء من الكفار والمنافقين بخيلهم ورجلهم وعدتهم وعتادهم وكيدهم ومكرهم، فإن هذا ممحوق ومهزوم بإذن الله تعالى.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦]، وقال سبحانه: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨].

إن العاقبة للمتقين الصابرين، مهما أجلب أعداء الدين وتكالبوا على حربه، ومهما كثر المنافقون والمخذلون فإن العاقبة لأهل الاستقامة الذين

ثبتوا على دين الله ﷻ ولم يضعفوا ولم يهنوا ولم يستكينوا، ومهما كانت قوة الحرب المشبوبة على الإسلام، فإنها لا تفقدنا الثقة المطلقة في أن المستقبل لهذا الدين، لقد صمد الإسلام في حياته المديدة لما هو أعنف وأقسى من هذه الضربات الوحشية التي توجه اليوم إلى طلائع الصحوة الإسلامية في كل مكان.

إن الإسلام هو الذي حمى الوطن الإسلامي في الشرق من هجمات التتار، كما حماه من هجمات الصليبيين على السواء والمماليك الذين حموا هذه البقعة من التتار لم يكونوا من جنس العرب.. ولكنهم صمدوا في وجه المهاجمين حمية للإسلام لأنهم كانوا مسلمين. صمدوا بإيحاء من العقيدة الإسلامية، وبقيادة روحية من الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

لقد كافح الإسلام -وهو أعزل- لأن عنصر القوة كامن في طبيعته، كامن في بساطته ووضوحه وشموله وملاءمته للفطرة البشرية وتلبية لحاجاتها الحقيقية، كامن في الاستغناء عن العبودية للعباد بالعبودية لله رب العباد، وفي رفض التلقي إلا منه، ورفض الخضوع إلا له، ومن ثم لا تقع الهزيمة الروحية طالما عمَر الإسلام القلب، وإن وقعت الهزيمة الظاهرية في بعض الأحايين لحكم ربانية، ومن أجل هذه الخصائص لهذا الدين بمحاربة أعدائه، هذه الحرب المنكرة، ولكن الأمر الذي لا شك فيه -على الرغم من حرب الأعداء وكيدهم- أن المستقبل للإسلام وأهله.

ولكن ذلك مرهون بأن نحقق معاشر المسلمين أسباب النصر وأن نغير ما بأنفسنا، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا

﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]. وإن لم نغير ما بأنفسنا فلا يعني هذا أن لا يكون نصر لهذه الأمة ودينها، بل سينصر الله ﷻ دينه ويظهره على الدين كله، ولكن بقوم آخرين، يتحقق فيهم أوصاف من ينصرهم الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]، فها هنا ثلاث سنن إلهية مترابطة يكمل بعضها بعضاً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨].

فنصر الله ﷻ آت لا محالة إما على أيدينا إن نحن غيرنا ما بأنفسنا إلى ما يحبه الله ويرضاه، أو يستبدل بنا قوماً آخرين تتحقق فيهم صفات عباده المؤمنين فينصرهم.

فنسأل الله ﷻ أن ينصر بنا دينه، وأن يجعلنا ممن يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله، لا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم.

وإن الناظر في واقع المسلمين اليوم وما تعيشه الأمة من نوازل كبيرة وأحداث متسارعة؛ ليرى أنها -إن شاء الله تعالى- إرهاصات لنصر قادم وقريب لهذا الدين وأهله.

لا أقول هذا رجماً بالغيب، وإنما بما أراه من سنن الله ﷻ في الظالمين، وفي عباده المتقين، وبما يلوح لنا في الأفق من البشائر والعلامات والإضاءات التي نتراءى منها قرب النصر، وقبل أن أذكر بعض هذه العلامات أود التنبيه إلى مسألة مهمة تناسب المقام، ألا وهي:

التأمل العميق في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤]، وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢]، وكذلك في قوله ﷺ للأنصار عندما بايعوه بيعة العقبة، وقالوا له: ما لنا إن بايعناك على ذلك؟ فقال: «**لَكُم الجَنَّة**»[1]. وبالتأمل في هاتين الآيتين الكريمتين، والحديث الشريف يظهر لنا معنى عظيم جداً، ألا وهو أن الله ﷻ قد وعد عباده المؤمنين المجاهدين في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله ﷺ بأن لهم الجنة على صراعهم مع الباطل، وربطهم بهذه الغاية العظيمة مترفعين على هذه الدنيا الفانية مع أنه سبحانه قد مكن لهم في الأرض ونصرهم، وهكذا ينبغي أن يتربى عليه الدعاة والمجاهدون، وذلك بأن تكون غايتهم رضوان الله ﷻ وجنته، ولا يتعلقون بشيء في هذه الدنيا يتقاضونه أجراً لجهادهم، هكذا كان الله ﷻ يربي عباده المؤمنين.

---

(١) «مجمع الزوائد» (٥٨٩١) وقال: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، كما رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله ثقات، ورواه أحمد مرسلاً (١٧١١٩) وقال الأرناؤوط: مرسل صحيح.

(لقد كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة. وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد، بحيث لا تتطلع وهي تبذل كل شيء، وتحتمل كل شيء إلى شيء في هذه الأرض. ولا تنتظر إلا الآخرة. ولا ترجو إلا رضوان الله. قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال، بلا جزاء في هذه الأرض قريب. ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام، حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل. وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للجزاء وموعداً كذلك للفصل بين الحق والباطل.. حتى إذا وجدت هذه القلوب، وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت، آتاها النصر في الأرض، وائتمنها عليه لا لنفسها. ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي، وهي أهل لأداء الأمانة، مذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه، ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه. وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه)(١).

وبعد بيان وتجلية هذه المسألة المهمة أعود لأبشر نفسي وإخواني المسلمين بهذه البشرى: إن نصر الله ﷻ لهذا الدين وأهله لقريب، ومن علامات وبشائر هذا القرب ما يلي:

أولاً: وعد الله ﷻ الذي لا يتخلف، وقد سبق بيان ذلك وشروطه عند قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]. ولا يشك

---

(١) انظر الآية (٣٦) من سورة المطففين «في تفسير ظلال القرآن».

في هذا الوعد إلا كافر او منافق او ضعيف إيمان جاهل بربه وصفاته، جاهل بسننه في عباده، قال الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٤-٧]. والملفت في هذه الآية أن الله ﷻ قد وصف الذين يشكون في هذا الوعد بأنهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أشرف العلوم، وهو العلم بالله ﷻ وأسمائه وصفاته وسننه وآياته، ومن ذلك قدرته سبحانه وقوته التي لا يعجزها شيء، ومحبته ومعيته ونصرته لأوليائه وحكمته، وعلمه في توقيت الأمور وخلقها، ومنها النصر والهزيمة، ثم وصف هؤلاء الشاكين الذين لا يعلمون هذا العلم الشريف بأنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي لا يؤمنون ولا يقيمون حساباتهم وموازينهم إلا على الأمور المادية المحسوسة في ظاهر الحياة الدنيا، وهذا من أسباب محقهم وتدميرهم، حيث أغفلهم الله ﷻ عن الأسباب الحقيقية للنصر والهزيمة، وقد ترتب على هذا أيضاً أن أغفلهم الله ﷻ عما يترتب على حماقاتهم وقراراتهم في حرب المسلمين، وهذا يعجل بنهاياتهم وانهيارهم كما هو المشاهد اليوم، وهذا من بشائر قرب نصر الله ﷻ.

ثانياً: بلوغ الغطرسة عند الأعداء أوجها وبلوغ الظلم ذروته، والله ﷻ يرى ويسمع ولا يعجزه شيء، والله ﷻ قد وضع للظلم والظالمين أجلاً ينتهون إليه، فيقصم الظالمين عنده، والظلم لا يستمر إلى ما لا نهاية، بل إن الله ﷻ يملي للظالم حتى يزداد في ظلمه وكبريائه وغطرسته ليسوقه سبحانه إلى نهايته

المحتومة حين يبلغ الظلم مداه، فيأتي وعد الله ﷻ بمحق الظلم وأهله، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقال الله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩]، وإن الناظر اليوم فيما يقوم به أعداء الإسلام وعلى رأسهم أمريكا الطاغية من قتل ذريع في المسلمين، وما امتلأت به سجونهم وسجون الظالمين من الدعاة والمجاهدين، ثم هم في غيهم وغطرستهم يعمهون، وفي ظلمهم يتمادون؛ ليتراءى قرب نهايتهم وانهيارهم، ومن رحمة الله ﷻ بالمؤمنين واستدراجه للكافرين أنه سبحانه يغفل الكفار الظالمين عما يترتب على حماقاتهم من قرب نهايتهم وسريان روح اليقظة في قلوب المسلمين، قال الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩].

ثالثاً: ما تشهده السنوات الأخيرة من فضائح متلاحقة للمنافقين والكفار والطواغيت والملبسين التي تكشف عداءهم السافر للدين وأهله، وتكشف معاييرهم الزائفة، وكذبهم ومكرهم، وكون هذه الفضائح وهذا المكر يظهر للناس، فإن هذا من عوامل وقرب النصر للمسلمين، لأن بيان سبيل المجرمين وظهور كيدهم وبيان تلبيسهم أمر لازم يسبق محقهم وغلبة المسلمين عليهم.

فهذه نوازل الأمة في أفغانستان والعراق وسوريا ومصر واليمن كم كشفت والحمد لله رب العالمين للمسلمين من فضائح الكفار وعملائهم، وفضائح المنافقين من بني جلدتنا، قال الله ﷻ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ

﴿لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

وقال -سبحانه-: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥]، ولقد مر بالأمة حيناً من الدهر خُدعت برايات وهتافات وادعاءات، نراها اليوم تنفصل من جسد الأمة، بعد أن ظهر عوارها وخبثها وولاءها لأعدائها، وتنكرها لدينها وعقيدتها، فهاهم الباطنيون الرافضة تنكشف باطنيتهم، ويعرف الناس خبثهم ونفاقهم، وأنهم دين ونحلة غريبة في جسد الأمة تنفصل عنها الآن، ولولا أن الله ﷻ قدر أحداث العراق وسوريا واليمن ولبنان ومصر؛ لبقي كثير من المسلمين مخدوعاً بهم وبتقيتهم وها هي العلمانية والليبرالية ورموزهما تتكشف لأبناء الأمة، فيتبرأون منها، وهي في طريقها إلى الانفصال عن جسد الأمة؛ لتستقر مع أخواتها من النحل الباطلة في مزبلة التاريخ، ويبقى الإسلام الصافي عزيزاً شامخاً، وهذا الوعي عند الأمة من عوامل نصرها ونصرها القريب -إن شاء الله تعالى-.

رابعاً: تلك العودة الحميدة والرجوع الصادق إلى دين الإسلام الحق من كثير وفئام من الناس، سواء من يدخل منهم في هذا الدين من الكفار، أو من يهتدي من أبناء المسلمين الفساق أو من يترك بدعته ونحلته الباطلة إلى منهج السلف أهل السنة والجماعة، هذا مع ما يبذله المفسدون من نشر للشبهات والشهوات، وصد عن سبيل الله تعالى، ولكنه دين الله ﷻ الذي تحن إليه الفطر النظيفة والعقول الصحيحة والقلوب السليمة. لاسيما بعد أن جرب كثير من الناس مذاهب ودعوات خداعة، لم يرو فيها إلا العناء

والشقاء والكذب والخداع، فحنين الناس اليوم إلى دين الإسلام الحق ودخولهم فيه أفواجاً من إرهاصات قرب النصر لهذا الدين وأهله.

خامساً: تسليط الله ﷻ على دول الكفر الظالمة، لاسيما الغرب الكافر، وعلى رأسه أمريكا الطاغية المتغطرسة، تلك الكوارث والنكبات التي تفتك الآن باقتصادهم، وذلك بما يعيشونه من انهيارات وإفلاس وعجز مالي، وبما يحصل بينهم من خلافات وتجسسات ستؤول بإذن الله تعالى إلى تصدع تحالفاتهم، وبما يعيشونه من جراء ذلك من تفكك بنيتهم السياسية والاجتماعية، يضاف إلى ذلك ما سبق بيانه من أنهم يعيشون الآن مكروهين عند الناس، بما تكشف من فضائحهم ومعاييرهم المزدوجة، وبيان خداعهم للناس، وبما يعيشونه من سقوط أخلاق شهواني ذريع، وهذا كله يؤذن بإذن الله تعالى بسقوطهم وتفككهم، كما سقط وتفكك المعسكر الشرقي، وفي هذا تمهيد وإرهاص بقرب نصرة هذا الدين، وظهوره على الدين كله ولو كره المشركون، وذلك بحول الله وقوته.

سادساً: ما تشهده الأمة من يقظة في مختلف جوانبها، وبما تعيشه من نوازل، كشفت لها حقيقة وهوية أعدائها، والتي أفرزت سريان روح المقاومة، وبعث عقيدة الولاء والبراء في النفوس، مما قويت به جذوة الجهاد في كثير من الثغور، واليقين بأنه لن يرفع الذلة والمهانة ويرد كيد الأعداء إلا الجهاد في سبيل الله تعالى، والإعداد له نفسياً وإيمانياً ومادياً، وهذا كله من علامات قرب نصر الله ﷻ لدينه وأوليائه.

نسأل الله ﷻ أن يرفع علم الجهاد، وأن يؤلف بين أهله، ويوحد صفوفهم، وأن يجنبهم الفرقة والاختلاف، وأن ينصرهم على القوم الكافرين.

وفي خاتمة هذه البشائر أقول لإخواني الدعاة والمجاهدين القابضين على الجمر أصحاب النفوس الكبيرة:

هنيئاً لكم ما أنتم عليه، فأنتم صفوة الناس، وأولياء الله، ولا أحد أحسن منكم قولاً ولا عملاً ولا غاية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، وأنتم صمام الأمان لمجتمعاتكم وأمتكم، لأنكم تقومون بما قام به أنبياء الله ورسله -عليهم الصلاة والسلام- فلا تستوحشوا الطريق، ولا تشعروا بأنكم قلة وضعفاء، فأنتم أقوياء بإيمانكم، وأنتم الأكثرون إذا تذكرتم أنكم ضمن قافلة شريفة عظيمة تنتسب إليها ملائكة الرحمن الذين لا يحصون عدداً، وأنبياء الله ﷻ، والصالحون من عباده، بل والكون كله هو رفيق المؤمنين لأنه مسبح عابد لربه تعالى.

ولم ينفرد عن هذه العبودية الشرعية إلا الكافر الظالم لنفسه، فماذا يساوي بالنسبة لبقية العوالم المستسلمة لربها ﷻ، إنه لا يساوي شيئاً، وإنما هو نشاز عن الطريق اللاحب الواسع الذي هو طريق الله ﷻ وسبيله، قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر:٤].

واصبروا على طاعة الله ﷻ وترك معاصيه ولا يهولنكم ضغط الواقع وشدته. ولا تيأسوا من إصلاح الناس وإقامة دين الله في الأرض، فإن العاقبة للمتقين الصابرين، مهما أجلب أعداء الدين وتكالبوا على حربه، ومهما كثر المنافقون والمخذلون، فإن العاقبة لأهل الاستقامة الذين ثبتوا على دين الله ﷻ ولم يضعفوا ولم يهنوا ولم يستكينوا.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

الخاتمة

الحمد لله المتفرد بالفضل والإنعام والتوفيق والإحسان الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه تحصل الهداية ويتم السداد، إن أطعناه فله المنة علينا، وإن عصيناه فله الحجة علينا، ما أصابنا من خير فبفضله، وما أصابنا من سوء فبعدله وبما كسبت أيدينا، ونسأله العفو والغفران، وبعد:

فهذا ما منّ الله به عليَّ من الكتابة في هذا الموضوع الجلل، أسأله سبحانه الإخلاص والصواب، وأن ينفع به كاتبه وقارئه وسامعه في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ويحسن في هذه الخاتمة أن أجمل أهم المسائل التي وردت في هذا البحث؛ لتعطي القارئ إلمامة سريعة عن فكرته وأهم عناصره:

المسألة الأولى:

ذكرت في المقدمة أهمية هذا البحث، ولاسيما في واقعنا المعاصر الذي تسلط فيه الأعداء من كل صوب وبكل وسيلة، مما أدى ببعض المسلمين إلى اليأس، وعند بعضهم تدور خواطر رديئة تشككهم في وعد الله ﷻ بنصرة الدين وأهله، وما ذاك إلا من الجهل بسنن الله ﷻ في المدافعة والصراع بين الحق والباطل، والجهل بأسماء الله الحسنى وما تقتضيه من الخلق والأمر، والجهل بأسباب النصر والهزيمة، فجاءت هذه الرسالة لتجلي هذه الأمور، وتنبه الجاهل إلى سنن الله ﷻ ومقتضى أسمائه الحسنى

وصفاته العلا، كما تضمنت المقدمة بيان الفرق بين الإرادة الكونية القدرية وبين الإرادة الدينية الشرعية، وأن ما يحدث في ملك الله ﷻ ومن ذلك الأحداث المعاصرة إنما هو بقدر الله ﷻ وإرادته وحكمته حيث أرادها كوناً وقدراً لحكم عظيمة، ولكنه سبحانه أراد منا ديناً وشرعاً مدافعة هذه النوازل والقيام بالتعبد لله ﷻ بشعيرة الجهاد في نصرة دينه ومدافعة الباطل، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب.

كما بينت في هذه المقدمة أهمية هذه الرسالة في بيان موقف المسلم من تسلط الأعداء وغزوهم لبلدان المسلمين عسكرياً وفكرياً وأخلاقياً: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

المسألة الثانية:

ذكرت بعد المقدمة الفصل الأول من هذه الرسالة، ويتضمن ذكر بعض الآيات من كتاب الله ﷻ الدالة على سنة المدافعة، وحتمية الصراع بين الحق والباطل، والحكم الإلهية من ذلك، وأرفقتها ببعض أقوال المفسرين عندها، وختمت ذلك ببعض الفوائد المستنبطة من هذه الآيات، ومن ذلك ذكر بعض الحكم الربانية من ابتلاء المؤمنين وتسليط الأعداء عليهم في وقت من الأوقات.

المسألة الثالثة:

وهي في الفصل الثاني من هذه الرسالة، وقد كان الكلام في هذا الفصل عن أنواع الغزو الذي يتعرض له المسلمون اليوم في بلدانهم، وذكرت أنه ثلاثة أنواع كبيرة وخطيرة:

الأول: الغزو العسكري واحتلال بعض بلدان المسلمين.

الثاني: الغزو الفكري الشبهاتي للعقيدة والأحكام.

الثالث: الغزو الإباحي الشهواتي للأخلاق.

وقد فصلت القول في كل نوع من هذه الأنواع وذكر صوره.

المسألة الرابعة:

وهي الفصل الثالث من هذه الرسالة، وضمنتها تنوع المواقف إزاء غزو الأعداء، وذكرت من هذه المواقف ستة مواقف:

الأول: موقف المنافقين المرجفين، **الثاني**: موقف اليائسين المحبطين. **الثالث**: موقف أهل الدنيا المترفين. **الرابع**: موقف المسايرين للواقع أهل الحلول الوسط. **الخامس**: موقف المستعجلين. **السادس**: الموقف الحق -(إن شاء الله تعالى)-.

المسألة الخامسة:

وهو موضوع الفصل الرابع، وفيها فصلت القول في الموقف الحق، وأنهم هم الذين لم ييأسوا ولم يتنازلوا ولم يستعجلوا، بل قاموا بنصرة هذا الدين ومدافعة غزو الكفار بأنواعه المختلفة، فنفرت طائفة منهم لرد عدوان الكفار العسكري، وذلك بالجهاد في سبيل الله تعالى باليد والسنان، ونفرت طائفة أخرى من أهل العلم والبيان برد غزو الكفار الفكري والشبهاتي، وقامت بإزالة الشبهات، وبينت سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، وطائفة ثالثة نفرت لمدافعة غزو الكفار الإباحي

وسبيل المجرمين، وطائفة ثالثة نفرت لمدافعة غزو الكفار الإباحي الشهواني بالتربية والتحصين والاحتساب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد فصلت القول في وسائل هذه المدافعات، وأفردت في هذا الفصل مبحث عن الشبهات وخطرها وكيفية مدافعتها، ومبحث آخر عن التأويل وجناياته في التاريخ الإسلامي وكيف كان باباً لتبرير الظلم وتحريف النصوص وبث الشبهات.

المسألة السادسة:

وهي موضوع الفصل الخامس، وقد ضمنتها بعض التنبيهات والوصايا المهمة على ما سبق، ومن أهمها:

أولاً: الحذر من أن تنظر أي طائفة نفرت في مواجهة الأعداء وغزوهم إلى الطائفة الأخرى بنظر التهوين من شأنها ودورها، بل على كل طائفة أن تفرح بعمل الطائفة الأخرى، وأن لا تحصر جهاد الأعداء في نوع من الجهاد هو ما تقوم به فقط، بل إن كل طائفة تكمل عمل الأخرى وتسانده.

ثانياً: على كل الطوائف التي قامت لنصرة دين الله ورد كيد الأعداء: أن تكون على علم بسنن الله ﷻ وعلى علم بأصول النصر والتمكين وأسباب الهزائم والفشل.

ثالثاً: التذكير ببعض البشائر التي تبشر بقرب نصر الله ﷻ لهذا الدين وأهله، وقد ذكرت هنالك ستة بشائر تبشر بقرب نصر الله ﷻ.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

في ٩/ ١/ ١٤٣٥هـ